حـوران

أرض الثورات المنتصرة

د. خالد المسالمة

حــوران
أرض الثـورات المنتـصرة

على ربى سهـل حـوران
حسـمت أهم معارك الأمـة

د. خالد المسالمة

مركز الدراسات الألمانية ـ العربية
مطبعة جامعة الرور 2015
بوخوم ـ ألمانيا

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

بوخوم ـ ألمانيا 2015

مطبعة جامعة الرور

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب تلزم أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن آراء مركز الدراسات الألمانية ـ العربية

مقدمـة

من مدينة درعا مركز سهل حوران، الواقعة في جنوب الجمهورية العربية السورية إنطلقت ثورة الحرية والكرامة في ظهر يوم 18 مارس من عام 2011 . وهي بذلك تفتح صفحة جديدة من تاريخ سوريا الحديث، وتساهم في تكملة مسيرة الربيع العربي التي إنطلقت شرارتها الأولى من بلدة سيدي بوزيد في جنوب تونس. ومن هذه المدينة الخالدة، درعا، يجدد الأبناء سيرة الأباء والأجداد، ويساهم أبناء هذه المنطقة من جديد في صنع التاريخ والمستقبل من جديد.

مرة أخرى يقف أبناء حوران الأبية صخرة صلدة في وجه الطغيان والإستبداد، ويحطمون بصمودهم الأسطوري غطرسة جلاوزة البعث ومرتزقة عائلة الأسد ومخلوف الحاقدة على الشعب منذ عقود.
سقطت جمهورية الخوف، سقطت جمهورية الرعب، التي أسس لها وبناها الإنقلابي الطائفي حافظ الأسد. لقد تبددت جمهوريته الفاسدة وأصبحت أشلاء، وسقطت كل أوهام عصابات الشبيحة تحت ضربات وأقدام ملايين السوريين الثائرين على العصابة الطائفية المارقة.

حوران، هذه الأرض الطيبة من أرض العرب، كانت ولازالت حاضرة ومشاركة في جميع معارك العرب التحررية. ومن أرض حوران تقرر مصير بلاد الشام ثلاثة مرات متتالية خلال القرن الأخير من الزمان. مرة في نهاية الحرب العالمية الأولى بعد أن ثارت حوران على الجيش العثماني وأنهت أسطورة الجيش الرابع العثماني، وتم بعد ذلك تحرير

دمشق ودخولها دون قتال. ومرة ثانية في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما هبت حوران في وجه المستعمر الفرنسي في معركة وثورة "المذخر" وأجبرته على الرحيل عن أرض سوريا. وتكرر المشهد الثوري الملحمي للمرة الثالثة على أرض حوران بإنطلاق ثورة الحرية والكرامة في 18. أذار عام 2011 على حكم الأسد الإستبدادي من درعا عاصمة الجنوب السوري الباسل، ومن ثم إنتشارها حتى عمت البلاد السورية.
ومن هذه الأرض الطيبة خرج زعماء سياسيون وقادة علم وفكر، من أمثال الإمام إبن الجوزي، والإمام محي الدين النووي، والشاعر الحوراني المعروف أبي تمام، والمؤرخ المشهور إبن كثير.

وعلى أرض حوران جرت معركة اليرموك الخالدة، وفيها حسم الصراع مع الروم على أرض الشام. وفي درعا وحوران أقام الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب أسبوعين ونصف الاسبوع، وإجتمع بقادة جنده في تل الجابية وتل الجموع الواقع في غرب حوران قبل ذهابه لفتح مدينة القدس الشريف، وتسلم مفاتيح المدينة المقدسة، وذلك بعد هزيمة الجيوش البيزنطية في معركة اليرموك في حوران وبلاد الشام.
وعلى أرض حوران تهاوت السلطنة العثمانية وهزم جيشها الرابع الجرار. وفي درعا، وعلى أرض حوران ،وقعت آخر معارك الشعب السوري مع المستعمر الفرنسي، ومن هناك إجبرالمستعمر الفرنسي على حمل عصاه والرحيل عن أرض سوريا.

في هذه الدراسة محاولة لتسليط الضوء على كفاح جزء من الشعب السوري، وعلى جهاد جزء عزيز من الشعب العربي، ضد الغزاة والمستعمرين والطغاة. فهي محاولة لكشف وإدراك ما تم نسيانه أو تناسيه، لتكتمل الصورة الكفاحية لهذا الشعب الأبي. لن تكون هذه

الدراسة، في أي شكل من الإشكال، إنتقاصاً من كفاح أي فرد أو مجموعة أو محافظة من محافظات القطر السوري، الذي نعتز بالإنتماء إليه، ونجل أهله، بل هي إضافة من المعرفة لكفاح هذا الشعب السوري العظيم، الذي تم طمسه كفاحه وتجاوز إنجازاته التاريخية بشكل ملفت للنظر وغير مبرر.

تتعدد الأسباب والدوافع، وتختلف عند الشروع في إنجاز أي مشروع علمي في أي مجال من المجالات. وهنا أيضاً، ربما كان السبب المباشر في تسليط الأضواء على حوران وأهل حوران هو إنطلاق ثورة الحرية والكرامة السورية المشتعلة من درعا ومن أرض حوران. وربما السبب هو الإعجاب بهذا التضامن والإباء الذي أظهره أبناء حواران أثناء سير الإحتجاجات الشعبية منذ اليوم الأول لإنطلاقة ثورة الحرية والكرامة المباركة في 18. 03. 2011 وحتى هذا اليوم. إن صورة التضامن والتعاضد التي أظهرها أبناء هذا السهل الفسيح الخصيب عندما أنتفضت جموع الحوارنة وتجمعت أمام مداخل مدينة درعا لفك عنها الحصار الذي ضربته قوات عصابات الأسد على المدينة الباسلة لهو مثل يحتذا به في النخوة وعزة النفس والإباء.

وربما كان السبب في تسليط الأضواء على الأحداث التي جرت في سهول ووديان هذه المنطقة خلال المئة عام الأخيرة مرده الرغبة والفضول في معرفة شيئاً عن تفاصيل أحداث جرت في هذه المنطقة في العقود والقرون الماضية، ولا زالت تفعل فعلها في الحاضر المعاش. أوربما الرغبة في تسجيل أحداث وروايات يتناقلها الناس في حوران بأحاديثهم اليومية عن الأيام الخوالي ولا تجد من يسطرها، على الرغم من أهميتها القصوى، وصحة حدوثها تاريخياً، هو السبب المباشر للشروع بهذا البحث. أو أن السبب يكمن في رغبة ذاتية مشروعة لها علاقة في هوى الكاتب في

تسليط الأضواء على مكان مألوف لديه، وإناس يعرفهم ويعرف أمزجتهم وثقافتهم حق المعرفة.
إذاً، الأسباب متعددة، تلك التي تقف خلف الطاقة والنية الناشئة للبدء في هذا المشروع المعرفي والتاريخي والسياسي، وفي البحث عن كفاح سكان سهل حوران الطيبين البواسل. هذه حوران، أنشودة الخير والعزة والكرامة عبر الزمان.
على صفحات هذا الكتاب ستطرح أفكار ومعلومات ليست كلها غير معروفة، لكن الجزء الأكبر منها غير مدون. وستسرد وقائع ربما لم يتجرأ أحد على طرحها لدرجة حساسيتها العرقية والطائفية. وهناك معلومات وأحداث سيجدها القارئ هي بالفعل غير معروفة أو غير متداولة، ويتم ذكرها لأول مرة.

وهنا لابد من ذكر إنتقاد وعتب يتناقله أهل حوران في مجالسهم وأحاديثهم الخاصة والعامة بشكل متكرر ومتواتر، وهو التسائل المنطقي والطبيعي التالي: لماذا غيبت أحداث حوران الوطنية في مناهج التعليم الحكومية بعد نيل الإستقلال، وبعد رحيل المستعمر الأجنبي، وتشكيل الحكومات الوطنية السورية المختلفة. لماذا غيبت هذه الأحداث عن المواطن السوري، على الرغم من أهميتها التاريخية، وشدة تأثيرها على حاضر سوريا، واستمرارية تأثيرها على واقع البلد. بل تميزها الكمي والنوعي عن بقية أحداث سوريا خلال المئة عام الأخيرة !

هذه محاولة لإستدراك جزء من سياسة الغفل أو التغافل التي سادت لتبيين تاريخ وحاضر مجيد لأهل منطقة من بلاد الشام ومن دنيا العرب.
وما التوفيق إلا من عند الله

د. خالد المسالمة

حـوران

حوران كلمة ترمز إلى منطقة في بلاد الشام، تقع جنوب مدينة دمشق، عاصمة الجمهورية العربية السورية، وإلى الشمال من مدينة عمان، عاصمة المملكة الإردنية الهاشمية. تلك هي المنطقة الجغرافية من بلاد العرب، التي تضم بين جنباتها مدن وأرياف سهل حوران، وجبل العرب وهضبة الجولان. تلك هي المناطق التي كانت تعرف تاريخياً بحوران.
يرمز لسهل حوران الذي يتكون من مدن وبلدات محافظة درعا في الجمهورية العربية السورية، ومحافظة إربد في المملكة الإردنية الهاشمية. فسهل حوران يمتد جغرافياً داخل الأراضي السورية والأراضي الأردنية. كان يطلق على حوران في العصراليوناني والروماني اسم أورانيس. وذكرت حوران بالتوراة بإسم بلاد باشان. وفي العصر الأشوري أطلق على حوران اسم حورانو، أي المنطقة المسطحة التي تقع بين مرتفعات جبلية عدة. على الرغم من أن المنطقة سهلية لكن يبلغ إرتفاعها عن مستوى سطح البحر بين 500 و600 متر. فهي من الناحية الجيولوجية هضبة سهلية مرتفعة.

التسميات المحلية للمناطق التي تتكون منها منطقة حوران هي الجيدور واللجاة و بثنية والنقرة، والزوية في الجولان ووادي اليرموك وجبل حوران (جبل العرب)، وكذلك منطقة النقع وإقليم بني كنانة في محافظة إربد في الأردن المجاورة لجبال عجلون. وقد ذكرت حوران وعدد من مدنها وقراها في رسائل (تل العمارنة) في مصر بلفظ حوران، وعرفت مدينة درعا أهم بلدات هذه المنطقة في تلك الأزمنة باسم أذرعات، ثم تحورت إلى ذرعات حتى أصبحت تلفظ درعا. والمراسلات التي وجدت في تل العمارنة هي رسائل متبادلة بين سكان منطقة حوران وسكان مصر

في عصر الفراعنة، إبان حكم الفرعون أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع، بين أعوام 1324- 1320 قبل الميلاد.

أغلب أسماء مدن وقرى حوران قديمة المنشأ، وتعود معانيها إلى تعابير آرامية، وخاصة إلى اللهجة الكنعانية منها. وقسم آخر من هذه الأسماء هي ذات أصول نبطية وعربية حديثة. ولقرب هذه اللغات السامية القديمة من اللغة العربية الكلاسيكية فإن معاني أسماء هذه القرى والمدن والأماكن والأنهر والوديان، وكذلك المناطق، مألوفة ومعروفة لسكانها. تدل أسماء هذه المدن والأماكن ذات المصدر اللغوي القديم على حضارات قديمة عاشت وتطورت في ربوع هذه البقاع، وتؤشر أيضاً على أن حوران وسكانها كانوا باستمرار في قلب الأحداث التاريخية للحضارات القديمة المتعاقبة. فالإنسان والحضارة البشرية كان لهما مسكن في حوران الخير والنماء، وبقيت حوران مسرح من مسارح صنع الدول والحضارات إلى يومنا هذا. من الطبيعي وحسب ما تؤكدة علوم الأنثروبيولوجيا من أن عبقرية المكان كان ولازال لها الأثر الكبير على صنع فكر وأخلاق الناس، وتساهم في تفاعل سكان المنطقة مع الأحداث الجارية في المكان وحول المكان عبر العصور.

حوران تحت سيطرة
الحكم العثماني

منطقة حوران التي تقع في وسط بلاد الشام أصبحت جزء من الدولة العثمانية بعد معركة مرج دابق في شمال سوريا وإحتلال العثمانيون بلاد الشام عام 1517 . وكان يمثل سهل حوران في مجلس المبعوثين العثماني شخصيات إقطاعية وعشائرية يتم تعيينها من قبل الحكام المحليين، أو من قبل الباب العالي في الأستانا. عبر هذه القرون الطويلة من الحكم العثماني لبلاد الشام جرت أحداث كثيرة أثرت سلباً أو إيجاباً على المنطقة وعلى سكانها، لكن أهم حدث قريب بالنسبة لعصرنا كان محاولة محمد علي باشا حاكم مصر توحيد السودان والجزيرة العربية وسوريا مع مصر، وذلك في بداية القرن التاسع عشر.

ففي عام 1830 تقدمت جيوش محمد علي باشا والي مصر إلى بر الشام وإحتلت جميع أقاليم بلاد الشام حتى وصلت إلى قلب الأنضول. كانت حوران من تلك المناطق التي أصبحت من ممتلكات الدولة المصرية. عندما دخل جيش محمد على باشا بقيادة إبنه إبراهيم باشا مناطق بلاد الشام لقي الترحيب به وبجيشه في بعض المناطق، والرفض والمقاومة في بعض المناطق الأخرى. كانت حوران وأهل حوران من تلك المناطق التي رحبت بقدوم إبراهيم باشا وجيشه، وإعتبر الجيش المصري جيش فاتح وموحد لبلاد العرب والمسلمين. في حين أن مناطق في لبنان وفي جبل حوران(جبل العرب) قاومت الجيش المصري وإعتبرته جيش غازي.

استمر الحكم المصري لبلاد الشام عشرة أعوام، وإضطر إبراهيم باشا بعد ذلك لسحب جيشه من بلاد الشام ومن حوران في عام 1840 بعد أن تحالفت القوى الإستعمارية الأوروبية، فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا، ووقفت إلى جانب السلطنة العثمانية من خلال تدخلها العسكري المباشر وتدمير كامل الأسطول المصري في البحر الأبيض المتوسط، ومحاصرة السواحل الشامية بشكل محكم.

في بداية أعوام الخمسينيات من القرن التاسع عشر بدأت أول إرهاصات التململ العربي في بلاد الشام والمطالبة بالمحافظة على اللغة العربية، والمطالبة في إستعادة السيادة العربية المسلوبة من قبل الأتراك على المناطق العربية. وكان للوجود المصري في بلاد الشام الأثر الكبير على تطور فكرة الإستقلال عن العثمانيين، بالاضافة لإنفتاح السلطنة العثمانية على دول الغرب الاوروبية ووصول بعض العناصر الشابة العربية إلى مدن الغرب ودخولهم بعض المعاهد والجامعات الاوروبية والغربية. وفي هذا الصدد كثرت النوادي الثقافية والمجلات والصحف العربية التي تنادي بالمساوة والعدالة وتنشد إعادة الإعتبار للثقافة العربية.

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طغى الخطب حتى غاصت الركب

هكذا عبر إبراهيم اليازجي عام 1854 عن طبيعة الأجواء السياسية العامة السائدة بين صفوف النخبة العربية في تلك الأزمنة تحت سلطة النخبة التركية المتسلطة. وتدل على تكاثر وإنتشار نزعة الحرية والإستقلال عن السلطنة العثمانية في المدن والأمصار العربية. ولمعت أسماء رائدة تنادي بحرية وأستقلال العرب، مثل بطرس البستاني، وعبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم اليازجي وناصيف اليازجي في بلاد الشام،

ورفاعة رافع الطهطاوي ومحمد عبدو وأحمد عرابي في وادي النيل. استمرت حالة التذمر العربي من أساليب الإستبداد العثماني حتى إنقلبت حالة التذمر العربي هذه مع بداية القرن العشرين إلى عمل سياسي منظم، وإلى هبات وثورات مسلحة على سلطات الإحتلال العثماني في أغلب المناطق العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية. ومما زاد الطين بلة وسارع في إنتشار حالات التمرد السياسي والعسكري العربي على الحكام العثمانيين هو:

- تفاقم سياسة التتريك على حساب اللغة العربية و الثقافة العربية التي إتبعها غلاة القوميين الأتراك الطورانيين، بعد وصولهم لسدة الحكم في الاستانا عام 1908 .
- خسارة السلطنة العثمانية مزيداً من البلاد العربية وتركها ومصيرها العاثر لقمة سائغة للإحتلال ولسيطرة الدول الغربية الأوروبية عليها، كما حدث لليبيا وسقطت بيد المستعمر الإيطالي عام 1912، وكانت من قبلها قد سقطت الجزائر وتونس بيد المستعمر الفرنسي، وعدن وعمان وضفتي الخليج العربي بيد المستعمر البريطاني.
- تفاقم سياسة الفساد والنهب التي تفشت في مؤسسات السلطنة العثمانية، مما ترتب عنه زيادة حالة الفقر والإفقار التي أصابت مواطني ورعايا السلطنة العثمانية، وخاصة المناطق العربية منها.

حوران وأهل سهل حوران كانوا في وسط هذه التغيرات العامة، ويتأثرون ويؤثرون في المزاج العام السائد بين الناس نحو السلطنة العثمانية، وممارسات حكام وموظفي السلطنة. وكان أهل حوران جزء حي وفعال في مشروع الإستقلال العربي، وبناء دولة العرب المستقلة. فكل التغيرات وتشكيل الحركات السياسية والعسكرية التي نشات في بلاد

الشام كان لها قبيل إندلاع الحرب العالمية الأولى إنعكاساتها العملية وأنصارها الكثر في أوساط أبناء سهل حوارن. ومنهم من كان من قادة وزعماء في حركات الإستقلال العربي التحررية، على إختلاف مسمياتها وتوجهاتها السياسية.

تشكل الوحدات العسكرية الفلاحية
في سهل حوران

كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت في 13. 07. 1914 . وكانت الحركات السياسة القومية في الأقاليم العربية الواقعة ضمن حدود السلطنة العثمانية قد زاد نشاطها وتوسع. وقد تشكلت قبل إندلاع الحرب العالمية الأولى عدة أحزاب وحركات سياسية عربية تنادي بإستقلال العرب عن السلطنة العثمانية. وخاصة بعد تصاعد سياسة التتريك التي إنتهجتها العناصر التركية القومية في السلطنة، والتي إتخذت أساليب دموية في عدائها للعرب ولطموحاتهم في الحرية والإستقلال. كانت عصبة الإتحاد والترقي التركية قد سيطرت قبيل الحرب العالمية الأولى على مقاليد الحكم في السلطنة العثمانية وحكمت بالحديد والنار وقتل وتشريد معارضيها السياسيين في السلطنة، وخاصة أبناء الشعوب غير التركية.

في عام 1908 تم إقالة السلطان عبد الحميد وتولي ثلاثة ضباط أتراك من أعضاء حركة "تركيا الفتاة" أو "الحركة القومية الطورانية" القومية المتعصبة سدة الحكم في أسطنبول. كان على رأس هذه العصبة أنور باشا، وطلعت باشا، وجمال باشا، المعروف بالسفاح عند العرب. ومن بين هؤلاء الضباط المتعصبين فقد نصب جمال باشا السفاح حاكماً مستبداً على بلاد الشام ومنطقة الحجاز. وفي الشام أقدم جمال باشا السفاح على سلسلة من الإعدامات طالت أعداد كبيرة من النخبة السياسية والفكرية العربية في بلاد الشام.

لقد أقيمت في كل من بيروت ودمشق المشانق، وعلق عليها أحرار العرب. وخاصة في 6 أيار من عام 1916 حيث علق على المشانق وفي نفس اليوم عدد من الشعراء والساسة والإدباء العرب. منهم عبد الحميد الزهاوي رئيس برلمان السلطنة العثمانية، وعبد الغني العريسي الشاعر والقائد الوطني المعروف، وعدد كبير آخر من السياسين والعسكريين والمثقفين الثوار العرب. يقول أسعد مفلح داغر في كتابه ثورة العرب: "ولا يعلم أحد عدد الذين شنقوا من أبناء الأمة العربية في سوريا، ولكنهم على كل حال يعدون بالألوف فضلاً عن الضباط والجنود العرب الذين أعدموا في الجيش العثماني". لقد وصل عدد الثوار العرب الذين تم قتلهم على يد جمال باشا السفاح، حاكم بلاد الشام في تلك الفترة الزمنية، وفي أقل من عامين أثناء الحرب العالمية الأولى إلى أكثر من 4000 مناضل عربي". هذا الرقم من الضحايا العرب في مقاييس ذاك الزمان يعتبر محاولة جادة من قبل السلطات العثمانية في إبادة النخبة العربية والعقول العربية إبادة تامة.

تشكلت قبيل الحرب العالمية الأولى عدد من الجمعيات والأحزاب العربية. كان أهمها "حزب اللامركزية"، وحزب "العربية الفتاة"، ومنظمة "العهد"، ومنظمة "القحطانية". كان كل من منظمة العهد العربية وحركة القحطانية السريتان تضمان في عضويتهما فقط العسكريين العرب في الجيش العثماني. وكانت أهم شخصية عسكرية في هذه المنظمات العربية الضابط المصري الكبير "عزيزعلي المصري" الذي كان يقود الجيش العثماني في حرب طرابلس الغرب ضد الجيش الإيطالي الغازي عام 1911- 1912.

لقد عقدت الأحزاب العربية المتشكلة حديثاً عام 1913 أول مؤتمر قومي عربي لها في باريس، حيث حضر في هذا المؤتمر ممثلون عن كل

الحركات السياسية العربية التي تنادي، إما في الحكم الذاتي للعرب في إطار السلطنة العثمانية، كما كان يطالب به حزب "اللامركزية" العربي، أو كانت تنادي بالإستقلال التام عن السلطنة العثمانية وبناء دولة عربية مستقلة، كحزب "العربية الفتاة"، التي كان الأمير فيصل إبن الشريف حسين ينتمي إليها وأحد قادتها البارزين. كان هدف حزب العربية الفتاة إلى جانب حركة "العهد" ومنظمة "القحطانية" العسكريتين كما نصت عليه أدبياتهما وبياناتهما هو إقامة دولة عربية موحدة على كامل البلاد العربية التي لا زالت تحت سيطرة السلطات العثمانية. أي تشكيل دولة تضم كل من بلاد الشام والجزيرة العربية والعراق.
وقد تشكلت فروع سياسية وعسكرية لهذه المنظمات والأحزاب في أغلب المناطق العربية في بلاد الشام والعراق، وأيضاً في القاهرة ومدن مصر الأخرى.

كان لهذه المنظمات العربية المختلفة، السياسية منها والعسكرية صدىً وأنصاراً في حوران. وكان الحوارنة بمزاجهم العام يميلون إلى تبني مشروع الإستقلال السياسي التام عن السلطنة العثمانية التي تتبناه منظمة "العربية الفتاة"، أحد أهم الحركات القومية العربية في تلك الحقبة من الزمن. وكان ميول ومزاج الحوارنة في تلك الحقبة من الزمن يجنح، وبشكل لافت، إلى إعتماد القوة العسكرية والعنف المسلح في تحقيق حلم الدولة العربية والإستقلال العربي عن السلطنة العثمانية. فإن أغلب الزعامات السياسية والإجتماعية في حوران كان لها بشكل او آخر علاقات مع منظمة العربية الفتاة ومع منظمة "العهد" العربية العسكرية. وقسم كبير من هذه الزعامات كانت أعضاء في هذه الحركات القومية العربية. ولم يشعر أبناء حوران بشكل عام بأي تضارب أو تناقض في نزوعهم القومي العربي وإعتقاداتهم الدينية، حيث السلطنة العثمانية تدعي منذ قرون تمثيل المسلمين في العالم.

وفي حوران، في وسط وقلب بلاد الشام، قد تشكلت عدة تجمعات عسكرية مقاتلة، كان الهدف والمحرك المباشر في تجميعها هو طرد القوات العثمانية الأجنبية من الأراضي العربية بأي طريقة وبكل الوسائل المتاحة. وشعارها العام الناظم هو رفع الظلم عن الناس والتخلص من جور الإقطاعية والجباة وممثلي حكام الأستانا.
ففي درعا والقرى المحيطة بها كانت مجموعة من المناضلين الخيالة يجوبون سهل حوران ويقومون بعمل الدوريات العسكرية، ومهاجمة مراكز الجيش العثماني في المنطقة، ويهاجمون مغافر الدرك العثمانية المتواجدة هناك. وكانت تتوسع المواجهات بين الثوار والسلطات العثمانية وتستمر في بعض المرات لعدة أيام.

وكان الحال أيضاَ مشابه في المنطقة الشرقية من حوران حيث تشكلت مجموعات من المجاهدين الخيالة الحوارنة في بلدة المسيفرة والحراك والجيزة وبصرى الشام وبصر الحرير وناحته وما حولها من البلدات. كانت أهم معاقل المجموعات العسكرية المسلحة المتمردة في هذه المنطقة من حوران هي منطقة اللجاة الصخرية الوعرة، والتي تكثر بها المغاور والكهوف الطبيعية. كانت وما زالت منطقة اللجاة الحصن المنيع للثوار الحوارنة ضد أي سلطات مستبدة، أكانت أجنبية أو محلية. وفي اللجاة وما جاورها من القرى والمدن الحورانية مثل بصر الحرير والحراك والمسيفرة وناحتة أخذ الجيش السوري الحر المنشق عن جيش عصابات الأسد مواقع له حديثاً، وأثناء مسيرة وتطور ثورة الحرية والكرام الحالية إلى الشكل المسلح والمواجهة المفتوحة مع عصابات الأسد ومرتزقة حزب الله .

وفي القرى والبلدات الحورانية الشمالية والغربية، المعروفة بمنطقة الجيدور القريبة من هضبة الجولان الوعرة، مثل الحارة وإنخل ونوى والصنمين وغباغب ودير البخت، كانت مجموعات من الفرسان الحوارنة تجوب المنطقة و تقض مضاجع القوات العثمانية المتمركزة في السهل وهضبة الجولان. وفي المنطقة الجنوبية من حوران كانت مجموعات الخيالة قد تشكلت من بعض الشباب من إربد والرمثا وقرى بني كنانة المطلة على نهر اليرموك.

عرف من القادة ذائعي الصيت في تلك المنطقة القائد الشيخ مصطفى الخليلي، هذا الإمام والمدرس والقائد العسكري الفذ ولد ونشأ في مدينة درعا، وعمل مدرساً في بلدة المغير، الواقعة في القسم الإردني من سهل حوران، يشابه في مسيرة كفاحة مسيرة الشيخ عز الدين القسام، المجاهد السوري والفلسطيني المعروف. ويعتبر الشيخ مصطفى الخليلي الشخصية الحورانية الأكثر شيوعاً ومعرفة في النضال العربي في المنطقة الجنوبية من بلاد الشام. ويعتبر بحق الأب الروحي والقائد الميداني الحقيقي لكفاح أهل حوران، وكفاح أهل سوريا الجنوبية ضد المستعمر التركي والمستعمر الفرنسي على حدٍ سواء.

وقد سبق تشكيل مجموعات الفرسان المقاومة في سهل حوران تشكيل بقية التنظيمات السياسية والعسكرية العربية الأخرى في بلاد الشام. كما تؤكد الأحداث والوقائع العسكرية التي يتناقلها أهل المنطقة بأن الصدامات مع القوات العثمانية بدأت لزمن طويل قبل إنطلاقة الثورة العربية الكبرى عام 1916. كان حكام السلطنة العثمانية يعترفون بهذه الصدامات المسلحة ويوجهون إليهم الحملات العسكرية المتكررة للإخضاعهم وتركيعهم دون جدوى. وكان العثمانيون يطلقون على هذه المجموعات الحورانية المقاتلة صنوف من الأوصاف والمسميات السلبية المتعددة،

مثل أوصاف "المتمردين" و"العصاة" و"حرامية البقر" و"الخارجين عن القانون" وإلى آخره من الأوصاف.

لا يوجد أي تاريخ محدد وموثق لبداية نشأة هذه التشكيلات العسكرية في سهل حوران، لكن الأباء والأجداد، والأجيال الحاضرة تتناقل حكايات وقصص هؤلاء الفرسان الشجعان في قرى وبلدات حوران، ومن المرجح أن زمن ظهورها على مسرح الحياة في هذا السهل الفسيح قد سبق بداية أعوام القرن العشرين بعدة سنين، تزامناً مع نشوء النوادي والمنظمات العربية الثقافية في المدن السورية العربية الكبرى في السلطنة العثمانية. ولم تحدد أعداد هذه المجموعات العربية الحورانية المقاتلة بشكل دقيق. لكن حسب روايات الأباء والأجداد الذين عاصرو هذه الحقبة السياسية من الزمن فإن أعداد هذه المجموعات كان متواضعاً بعضها كان بالعشرات وربما المئات من المقاتلين الفرسان الشجعان.

و في جبل حوران (جبل العرب) كانت قد تشكلت مجموعات عسكرية بقيادة سلطان باشا الأطرش مع بداية القرن العشرين. وقد كانت السلطات العثمانية قد قتلت والد سلطان الاطرش، ذوقان الاطرش. وكانت مجموعات الجبل المقاتلة تلعب الدور نفسه في مناطق الجبل وتهاجم مغافر الدرك العثمانية.
وقد إنتشرت أيضاً في المناطق البدوية الواقعة إلى الجنوب والشرق من حوران مجموعات مسلحة من القبائل البدوية ذات طبيعة محاربة تفرض إرادتها على المنطقة وعلى الجوار، منها كقبائل السرحان وقبائل السردية.

ومن المعروف تاريخياً أن السلطات العثمانية جردت عدة حملات عسكرية إلى مناطق جنوب سوريا وجنوب بلاد الشام بقصد المحافظة

على الأمن والأمان ومحاربة "المتمردين والعصاة"، كما كان يتردد في أدبيات السلطات العثمانية بشكل مستمر. كان أخر هذه الحملات العسكرية العثمانية الشرسة على المنطقة، والتي وصلت بإتساعها وشدتها إلى مناطق الكرك والطفيلة في جنوب الأردن، هي الحملة التي قادها سامي باشا الفاروقي قبيل بدء الحرب العالمية الأولى. وقد صرح الفاروقي مع بداية حملته العسكرية على حوران والأردن أنه " قصد من حملته سيادة القانون واعادة الطمأنينة والهدوء إلى المنطقة وتطبيق القانون، كنزع السلاح من الاهالي، وجباية الاموال وتجنيد الشباب."

من المؤكد أن بين أعضاء المجموعات الحورانية المقاتلة كانت صلات وآليات تواصل وقواعد تنظيم قائمة، وقد تشكلت هذه الآلية عبر المعرفة الشخصية وعلاقة القرابة والنسب والجيرة. وكان الحس العشائري والنخوة الحورانية المعروفة عند أبناء هذه المنطقة هي القوة والقدرة المحركة الأساسية على رص الصفوف والتعبئة، وخاصة في ظروف الأزمات، وفي أوقات المعارك والمواجهات العسكرية مع قوات العدو.
في أثناء سير المعارك التي كانت تنشب بين الثوار ومراكز الجيش العثماني على أرض حوران في الأزمنة التي سبقت إندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت تتكرر الهبات الشعبية، والتي تعرف في النمطقة "بالفزعات". وقد ساهم في رفع درجة الإحساس الوطني بين أبناء المنطقة تلك الميول والمواقف الوطنية الشجاعة التي أبداها نواب حوران في مجلس المبعوثين، أي البرلمان العثماني.

لقد كان نواب حوران، كل من النائب أسماعيل الحريري من بلدة الشيخ مسكين، والنائب سعد الدين خليل المقداد من بصرى الشام، ومصطفى التل من أربد، من الشخصيات الوطنية المعروفة داخل الأوساط السياسية

والشعبية في بلاد الشام، وكان لهم حضور وإجتماعي مؤثر، خاصة عند أهالي منطقة حوران.

مع بداية الحرب الليبية في عام 1911 ونشوب الحرب العالمية الأولى عملت السلطات العثمانية على مصادرة جميع المحاصيل الزراعية، وخاصة القمح، من الفلاحين في حوران، وقد أدت هذه السياسة الجائرة إلى إفقار سكان المنطقة بشكل مأساوي. وهي المنطقة الخصبة والغنية المعروفة ببحبوحة العيش فيها، وموطن الخير والعطاء والكرم، وملجأ كل محتاج وفقير. حوران الملقبة "بأم اليتامى" ومطعمة كل جائع تصبح بلداً للفقراء والعوز من خلال سياسة الجور والنهب، التي سار عليها حكام أسطنبول المغامرين القوميين المتعصبين. وقد زادت حدة الفقر والجور بعد أن تمادت السلطات العثمانية في مصادرة سبل عيش السكان. لقد كانت هذه السياسة الرعناء سبب آخر مضاف في استفزاز الحوارنة، وحسم أمرهم مبكراً على مقاومة الترك، والإنخراط في صفوف الحركة الوطنية العربية المتصاعدة في بلاد الشام.
هذا ما كان الحال عليه في حوران قبيل إندلاع الحرب العالمية الأولى، وإندلاع الثورة العربية الكبرى عام 1916. فالناس كانت قد ملت من سياسة التتريك، وسأمت من سياسة الظلم والإضطهاد، التي سار عليها حكام السلطنة العثمانية في الأعوام التي سبقت إندلاع الحرب العالمية الاولى.

كانت حالة رفض سياسة السلطة العثمانية منتشرة في كل بلاد الشام، والعراق، والحجاز، وفي جميع هذه البلدان والأقاليم العربية شهدت حالات وأشكال من التمرد العسكري والشعبي. وكان رد السلطات العثمانية في أغلب الأقاليم العربية قاسياً جداً، مما ساهم مساهمة كبرى في تعزيز فكرة الثورة والإنفصال عن السلطنة العثمانية، وبناء دولة

عربية مستقلة عن الترك. لقد ساهم الحكام العثمانيون مساهمة واضحة في تعبئة الجماهير العربية ضد السلطة المركزية في الأستانا، ومهد التربة لتشيكل ثورات عربية عارمة في وجه المستعمر العثماني، وكان الحوارنة جزء أساسي من هذه الصيرورة الشعبية المنتشرة.

أهمية سهل حوران
الأستراتيجية

في حوران كانت سياسة الإستفزاز وسياسة الأستبداد والاضطهاد العثمانية مضاعفة لعدة أسباب وتخص أهل المنطقة.
فهذه المنطقة من الناحية الجغرافية تقع فيها عقدة الطرق لكل بلاد الشام، وعبرها تمر الطرق والممرات السالكة في تلك الأيام من دمشق إلى الحجاز، وإلى الأراضي المقدسة في مكة والمدينة المنورة، وعبر سهل حوران يمر طريق الحج الشامي والعثماني. وفي سهل حوران تتجمع المعابر الأساسية إلى فلسطين والساحل اللبناني. ومنه يعبر الطريق الجنوبي الموصل إلى سيناء ومصر. وعبر سهل حوران تسير الطرق التي تربط العراق بمصر وفلسطين. حوران إذاً حالة إستثنائية من الناحية الجغرافية.

لازالت حوران تقع في قلب الأحداث، فعلى أرض حوران تمتد كل الجبهة السورية، ونصف الجبهة الإردنية مع الكيان الصهيوني. وجميع المعارك والحروب التي دارت مع الكيان الصهيوني منذ تأسيس هذا الكيان عام 1948 وقبل ذلك التاريخ كان جزء كبير منها يجري على أرض حوران، وكانت مدن وبلدات حوران دائماً جزء من جبهات المواجهة والقتال. قليل من أبناء سوريا والعرب من يعرف أن الشعب السوري خسر في حرب تشرين عام 1973 قرابة 12 ألف شهيد من المدنين والعسكريين، وأن نصف هؤلاء الشهداء هم من أبناء حوران والنصف الآخر كان من بقية محافظات سوريا.

وفي حوران تجري مجموعة من الأنهر والوديان, وفيها عدد كبير من الينابيع وبحيرات المياه العذبة الصالحة للشرب وللري، وخاصة في المنطقة الغربية من حوران التي تضم المنطقة الجنوبية من الجولان المعروفة بمنطقة الزوية. فكل من نهر الرقاد ونهر العلان ونهرالهرير تجري في سهل حوران من الشمال إلى الجنوب. وجميع هذه الأنهر تنبع من جبل الشيخ في شمال هذا السهل الفسيح وتصب في نهر اليرموك الذي يجري من الشرق إلى الغرب ويصب في نهر الأردن. أغلب قرى ومدن حوران الغربية والشمالية تقع على ضفاف هذه الأنهر وعلى روافدها وتفرعاتها، وايضاً على أطراف الوديان الموسمية التي تصب بها. وهناك عدد من الوديان الموسمية والتي تجري في سهل حوران من جهة الشرق إلى الغرب وتتمركز حولها وعلى ضفافها أغلب قرى ومدن حوران الشرقية والجنوبية، كوادي الذهب ووادي الزيدي ووادي الرمثا ووادي الشريعة. كل هذه الأنهر والأودية التي تجري في سهل حوران تصب في نهاية المطاف في نهر اليرموك الخالد، الذي على ضفافة دارت معركة اليرموك الخالدة في عام 635 م .

ففي سهل حوران وفي طبقات صخورة يتشكل حوض اليرموك المائي العملاق في بلاد الشام، الذي يعتبر من أغزر الأحواض المائية في الشرق الأوسط.
وسهل حوران غني عن التعريف في خصوبة تربته، وغنى إنتاجه من الحبوب والخضار عبر التاريخ، وهو السهل الذي كان يعتبر من مخازن الحبوب في العصور القديمة والحديثة. من هذا السهل الفسيح كان ينتج أكثر من نصف حاجة السلطنة العثمانية من الحبوب، وبقي كذلك في سوريا الحديثة.

لا زال هذا السهل الخصيب يشكل سلة من الانتاج الزراعي من الحبوب والخضار وأشجار الزيتون والعنب في سوريا الحديثة. فهو هدية الله على أرضه. كانت حوران على مر التاريخ بوابة بلاد الشام وبداية الخصب والمدنية، وظلت حوران على مر التاريخ السياسي والحضاري منتهى حدود الإمبراطوريات والدول. وعلى أرضها شيدت الممالك وأقيم العمران، وأغلب مدنها وقراها يتجاوز عمرها ال 4000 عام.

التركيبة الإجتماعية
لسكان حوران

يقطن سهل حوران والجولان عائلات وعشائر مستقرة في قراها ومدنها منذ مئات السنين. بل أن بعض العائلات العربية التي تقطن هذه الديار يمتد جذورها إلى أكثر من ألفي عام. وبعض هذه العائلات تسكن في نفس الحي وفي بيوت الأجداد منذ مئات السنين. فالناس تعرف بعضها البعض وترتبط بعلاقات قرابة مصاهرة شديدة.

في حوران يخاطب الفرد منهم الآخر بكلمة "يا عم" أو "يا خال" أو "يا قرابة" في أي مناسبة وفي أي مكان، وهذه هي لغة المخاطبة المألوفة بين الناس، فهي تعبير مباشر عن حقيقة واقع إجتماعي نسجته حركة الأيام والسنين في هذه البقعة من الأرض. ففي حوران يشعر الناس أن بينهم صلة القربى حقيقية. فمن لم يكن إبن عم فهو من المحتمل أن يكون إبن خال من الدرجة الثانية والثالثة أوالرابعة.

وهناك عامل أخر يعزز الشعور بالقربى السائدة بين سكان سهل حوران هو إنتشار بعض العائلات والعشائر في أكثر من مدينة وقرية. فالزعبية يقطنون أكثر من عشرين قرية في حوران وكذلك الحريرية والمصري والرفاعية والمقداد في شرق حوران، والسعدية والعمارين في شمال حوران، والكثير ومن تلك العائلات والعشائر ينتشر أفرادها خارج سهل حوران في فلسطين وفي الأردن والعراق، وفي بقية البلاد السورية.

وتتعزز اللحمة الإجتماعية بين سكان سهل حوران، إذا ماعرف أن قرى ومدن حوران لا يفصل بينها مسافات جغرافية كبيرة. فإن كل قرية أو مدينة في حوران تحيط بها قرى وبلدات أخرى عدة بمسافات لا تتجاوز الخمسة كيلو مترات، وأن طرق التواصل وطرق المواصلات بين هذه القرى سهلة وميسرة منذ قديم الزمان نظراً لعدم وجود الموانع الطبيعية التي يمكن أن تعيق حركة التواصل الإجتماعي بين الناس. فدرجة المعرفة والتعارف حول أحوال الناس لا تختصر فقط على معرفة أحوال الناس في الحي والبلدة التي يقطنها الشخص فقط، بل تتعدى ذلك وتصل إلى القرى والبلدات المجاورة. من المألوف أن تسأل إنسان عن شخص في أحد القرى ويجيبك بأن فلان الذي تسأل عنه لا يقيم في هذه البلدة بل يقيم في البلدة الأخرى التي تجاورهم أو تلك التي تليها ويحدد مكان سكناه تماماً.

وربما أيضاً طبيعة المهنة، وهي الفلاحة، التي يعمل بها أغلب سكان حوران، والتي تحتاج بالإضافة إلى بذل الجهد والعمل الشاق تتطلب أيضاً درجة عالية من الإنفتاح على الآخرين من المعارف والجيران في السكن المباشر، والإنفتاح على الناس المجاورين في الحقل وفي البيدر لطلب العون والمساعدة المتبادلة لإنجاز العمل الشاق والمضني.

سكان هذا الإقليم بأغلبية ساحقة من العائلات والعشائر العربية، المسلمة منها والمسيحية أيضاً. ونظراً لقرب هذا الإقليم الجغرافي من شبه الجزيرة العربية فإن أغلب حركات هجرة القبائل العربية من هناك إلى بلاد الشام كانت تمر عبر إقليم حوران. وحسب طبيعة الأشياء والمزاج البشري العام فإن قسم من هذه القبائل العابرة كانت تقيم وتستقر في سهل حوران بشكل دائم. ولهذا السبب فإن أغلب العائلات والعشائر التي تقطن حوران لها علاقات قربى ونسب مع القبائل العربية في الجزيرة العربية

واليمن، ولم ينقطع التواصل مع هذه الجذور العشائرية على الرغم من طول السنين. وكذلك لها علاقة قربى ونسب مع أغلب القبائل والعشائر والعائلات المنتشرة في ربوع بلاد الشام ومصر والمغرب العربي. هذه العلاقة المتجددة بين حوران وقلب الجزيرة العربية وبقية بلاد الشام مستمرة منذ آلاف السنين، ولم تتوقف إلا خلال الثلاثين عاماً الأخيرة عندما أحكمت قبضة الحكومات المحلية على الحدود المصطنعة، وحدت من حركة الجماعات البشرية بين الجزيرة العربية وبلاد الشام.

لوقت قريب جداً يتذكر أهل حوران ظاهرة حركة القبائل المتكررة المتنقلة من قلب الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. كانت تنتقل مجموعات بشرية كبيرة في كل عام مرتين على الأقل عبر سهل حوران متجهة إلى هضبة الجولان في الغرب والبادية السورية والجزيرة السورية في الشمال في فترة الربيع والصيف، ومن ثم العودة من هناك عبرسهل حوران إلى قلب الجزيرة العربية في فترة الخريف والشتاء.

كان يطلق على هذه الحركة السنوية الكثيفة تعابير محلية مألوفة مثل "شملوا وقبلوا"، أي اتجهت هذه القبائل إلى الشمال، إما للجولان أو إلى الجزيرة السورية في منطقة الفرات، وإتجهوا إلى القبلة، أي إلى الجنوب إلى الجزيرة العربية في المملكة العربية السعودية. لازالت هذه التعابير شائعة في أوساط أبناء حوران، على الرغم من توقف هذه الظاهرة البشرية للتنقل والترحال منذ ثلاثة أو أربعة عقود من الزمن.

لا تخلو هذه الحركة البشرية السنوية، وكذلك حقيقة الإقامة واستيطان بعض فروع القبائل العربية البدوية المتحركة من بعض الإحتكاكات العشائرية والصراعات العائلية، فالتراث العربي مليئ بقصص الغزو وبقصص الثأر. وكثير من هذه الإحتكاكات كان مردها الخلاف حول

مناطق الزراعة ومناطق الرعي بين الفلاحين والرعاة الواقعة في طريق حركة التنقل الكثيفة. وقد سبقت هذه الحركة البشرية بين الجزيرة العربية وبلاد الشام عبر حوران حقبة الفتح الإسلامي لبلاد الشام ونشأة الدين المسيحي وغيره من الديانات بآلاف السنين.

يعيش في إقليم حوران بعض العائلات الكردية والتركمانية والشركسية التي بحسب الظروف السياسية والإجتماعية قد تعربت وأصبحت بفعل عامل الزمن جزء أصيل من النسيج الإجتماعيي لهذه المنطقة. ولا تدل على أصول هذه العائلات الإثنية غير أسمائها وألقابها. ويغلب على معتقدات سكان حوران الدين الإسلامي. ويعتنق جزء من سكان حوران الدين المسيحي.

تعود أصول مسيحي حوران العائلية إلى القبائل العربية المسيحية التي سبقت نشأة الدين الإسلامي، وكانت العرب تطلق عليهم تعبير "العرب المتنصرة"، أي العرب المسيحية أو النصارى. من أهم هذه القبائل المسيحية بالطبع كانت قبائل الغساسنة، التي حكمت المنطقة لأكثرمن ثلاثة قرون من الزمن. وكان آخر ملوك الغساسنة في حوران وبلاد الشام هو الملك المسيحي الغساني "جبلة ابن الأيهم"، الذي أعلن إسلامه ثم ارتد عنه في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب.

إن أغلب العائلات المسيحية في حوران وفي أغلب مناطق بلاد الشام ينحدرون من تلك القبائل العربية النصرانية القديمة. فهم من سكان البلاد الأصليين بإمتياز، وأجدادهم من حواري السيد المسيح عليه السلام، ومنهم من أسس لنشر تعاليم السيد المسيح في العالم. وفي حوران كانت ولا زالت منتشرة أديرة وكنائس المسيحية الأولى، ولا يقل إعتزاز مسيحي حوران بدينهم ووطنهم عن غيرهم من سكان البلاد الآخرين

بشئ. ففي بصرى الشام لا زال دير الراهب بحيرة، أحد قادة تيار اليعاقبة المسيحي قائم، ومن هذا الدير بشر الراهب بحيرة عم الرسول الكريم أبي طالب بنبوئة محمد عليه الصلاة والسلام. وفي مدينة إزرع في وسط حوران لا زالت أحد الكنائس المسيحية التي بنيت في القرن الرابع الميلادي قائمة وهي معلم من معالم التراث السوري والعربي. وفي جنبات حوران لازالت منتشرة الديانة المسيحية بمذاهبها القديمة اليعقوبية المؤسسة وغيرها.

وكذلك فإن أعداد كبيرة من مسلمي حوران وبلاد الشام بعد إعتناقهم الدين الإسلامي تعود اصولهم العرقية والعشائرية إلى قبائل الغساسنة المسيحية. وكثير من هذه العائلات والقبائل لا زالت تدل عليها أسماء عائلاتها وعشائرها. فأسماء مثل المسلماني والمسالمة والمسلمي والغساني والغسانية ودير غسان تدل بأغلبها على الأصول الغسانية المسيحية لهذه العائلات والبلدات.

ففي بعض مناطق حوران كان وحتى نهاية القرن السابع عشر يغلب عليها الطابع المسيحي من الناحية الدينية. والسبب في ذلك يعود لبدايات الفتح الإسلامي لحوران وبلاد الشام. فعندما دخل الفاتحون المسلمون العرب إلى مناطق شرق الأردن وجنوب سوريا لم يجدوا مقاومة من السكان المسيحيين العرب الذين كانوا يسكنون المنطقة ويحكمونها تحت سيطرة الرومان المسيحيين. بل استبشر السكان المسيحيين خيراً بقدوم هؤلاء الفاتحين العرب لتخليصهم من ظلم الحكام المستبدين الرومان. وقد فتحت أغلب مناطق حوران أمام العرب المسلمين صلحاً ودون قتال.

إنقسم سكان حوران من المسيحيين بين مؤيد للرومان التي تجمعهم معهم وحدة العقيدة، ومؤيد للعرب المسلمين التي تجمعهم معهم وحدة الثقافة

والعرق. وقد طلب هذا القسم المسيحي من سكان المنطقة الدخول في جيش الفاتحين العرب المسلمين لكنهم رفضوا تقديم الجزية للمسلمين. وقد وافق الخليفة عمر ابن الخطاب على هذا الشرط وأعفاهم من الجزية وتعامل معهم في هذا الجانب كما يتعامل مع المسلمين كمواطنين في الدولة الناشئة.

وقد شاركت أعداد كبيرة من مسيحي الغساسنة في حوران وجنوب بلاد الشام في معركة اليرموك الخالدة إلى جانب أبناء العمومة من عرب الجزيرة المسلمين. في حين أن أعداد أخرى من الغساسنة وقفت إلى جانب الروم في هذه المعركة المشهورة. فمعركة اليرموك جرت أحداثها على أرض حوران، وعلى أرض حوران حسم الصراع مع الروم حول بلاد الشام.

بعد إنتصار الجيوش الإسلامية على الروم في حوران وبلاد الشام هرب مع الروم أعداد كبيرة من الغساسنة واستقرت في مناطق متعددة من بقايا الدولة البيزنطية. لكن أهل حوران من المسيحيين استقروا في مساكنهم وقراهم يعيشون مع بقية المواطنين في سلام ومودة عبر القرون الخوالي. ولم يسجل التاريخ منذ أكثر من 1400 عام عن حوادث ذات طاب ديني تذكر قد جرت في المنطقة. وقد سارت حالة التحول وتغيير المعتقدات الدينية بشكل سلمي وسلس، ولم يتسلل إليها أي نوع من الإكراه أو التوتر. وربما يعود سبب هذه الصيرورة الإجتماعية المثالية في الإنسجام بين سكان حوران إلى تلك البداية الأولى الموفقة من تاريخ الشراكة الإسلامية المسيحية في حوران، ويعود الفضل فيها إلى حكمة وعبقرية الخليفة عمر الفاروق في فهم الإسلام وفهم عقلية سكان حوران من المسيحيين.

أحداث جبل لبنان وتأثيرها
على جبل حوران

لكن في الجزء الشرقي من حوران، والمعروف بجبل حوران أو "جبل العرب"، حدثت فيه مع بداية القرن التاسع عشر بعض المستجدات الإجتماعية والسياسية الحادة الطارئة. فسكان جبل حوران وحتى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانوا من المسلمين السنة ومن المسيحيين كبقية مناطق حوران. ونظراً لإضطهاد الدولة العثمانية للأقليات الطائفية والدينية ونظراً للحوادث السياسية المؤسفة التي جرت في جبل لبنان في القرن التاسع عشر، فإن أعداد من أبناء الطائفة الدرزية أخذت طريقها إلى جبل حوران طلباً للحماية وهروباً من الإضطهاد الذي بدت تجلياته في منطقة جبل لبنان.

وكانت أول العائلات الدرزية التي سكنت جبل حوران قادمة من لبنان في بداية القرن الثامن عشر بعد المذابح التي جرت في بلدة عين دارة عام 1710 في لبنان. وكانت عدد العائلات الدرزية لا تتعدى العشرات. وقد سكنت هذه العائلات الدرزية الوافدة في بعض الجبال والوديان.

وبعد تفجر الحرب الطائفية والدينية التي حدثت في جبل لبنان في أعوام الخمسينيات من القرن التاسع عشر بين الطائفة الإسلامية الدرزية والسكان المسيحيين في جبل لبنان، حيث كانت الغلبة فيها للفلاحين الموارنة على العائلات الإقطاعية الدرزية المتنفذه في حكم جبل لبنان.

بعد رجحان كفة المسيحيين الموارنة على كفة الدروز في هذا الجبل أخذت أعداد من العائلات الدرزية طريقها بكثافة إلى هضبة الجولان وإلى جبل حوران في الشرق، واستوطنت تلك العائلات الدرزية الهاربة من أتون الحرب الأهلية اللبنانية في جبل حوران.

كانت أكبر الهجرات الدرزية من جبل لبنان إلى جبل حوران في عام 1861 بعد المعارك والمذابح التي جرت بين الدروز والموارنة في عام 1860 وخسر فيها الدروز المواجهة أمام الموارنه. في تلك الفترة الزمنية أسست الجاليات الدرزية اللبنانية قرى لها صغيرة في جبل حوران إلى جانب القرى التي كانت قائمة هناك.
كثير من القرى المتشكلة حديثاً في الجبل كان أغلب سكانها أقارب وينتمون لنفس العائلات. وكثير من هذه القرى أخذت اسم العائلة التي تسكنها اسماً لها.

ومع زيادة هذه الهجرة وتشكل تجمعات درزية كبيرة نسبياً في مناطق متعددة من الجبل إنتقلت معها الصدامات والإحتكاكات التي كانت قائمة في جبل لبنان إلى جبل حوران أيضاً. كان جبل حوران في تلك الفترة معموراً ويغص بسكانه المسيحيين الغساسنة إلى جانب المسلمين السنة. وقد تطورت الإحتكاكات البسيطة إلى سلسلة من الهجمات المتكررة على القرى المتجاورة في جبل حوران. لقد أكسب توسع هذه المصادمات بعداً إقليمياً ودولياً، حيث تدخلت فرنسا لصالح المسيحيين، وأتخذت بريطانيا موقفاً مسانداً للدروز. هذا الموقف من القوى الغربية ليس بجديد، فهو إستمرار لمواقف تلك الدول الإستعمارية الذي بدأ مع بداية عام 1830 في لبنان بقصد التدخل في شؤون السلطنة العثمانية في تلك الفترة الزمنية.

لقد تفاقمت الأزمة بين الدروز والمسيحية في جبل حوران، ومن ثم تطورت هجمات المهاجرين الدروز وشملت القرى والعائلات الإسلامية السنية في الجبل وفي أطراف سهل حوران، والتي حاولت حماية القرى والعائلات المسيحية الهاربة من تعديات المقاتلين الدروز، وحماية جيرانهم في السكن من المسيحيين، لتصبح أكثر حدة. وخاصة عندما أضيف عامل جديد بعد دخول الجيوش المصرية بلاد الشام. في هذه التطورات وقف الدروز ضد جيوش محمد على باشا التي دخلت بلاد الشام في العام 1830، في حين إتخذ أغلب المسلمين السنة والمسيحيين في بلاد الشام موقفاً مسانداً لجيش مصر الذين أعتبروه جيشاً فاتحاً ومحرراً في ذاك الحين. وانعكس تباين المواقف بين الجماعات البشرية في جنوب سوريا من حملة محمد علي باشا على بلاد الشام في تزايد حدة الإحتكاكات في جبل حوران، حيث تسببت هجمات الدروز على القرى المجاورة إلى نزوح أعداد كبيرة من العائلات المسيحية والإسلامية السنية من جبل حوران إلى مناطق أكثر أمناً في سهل حوران.

وقد تزايدت هجرة أهل جبل حوران من المسلمين والمسيحيين جراء هجمات الدروز المتكررة على قراهم بمرور الأيام، حتى أصبحت كثير من القرى في الجبل خالية من سكانها وحل محلهم عائلات درزية وافدة. وقد أصبحت مناطق جبل حوران مع بداية القرن العشرين ذات أغلبية سكانية درزية، وصار سكان الجبل الأصليين من مسلمين سنة ومسيحيين أقلية في هذا الجبل. وقد توسعت هجرة سكان الجبل الحوارنة مع بداية القرن العشرين، ووصلت إلى مناطق أخرى في سوريا وخاصة في لبنان. ولهذا السبب فإن كثيراً من العائلات المسيحية المنتشرة في لبنان وفلسطين تعود في أصولها العائلية إلى عوائل وعشائر حورانية قادمة من حوران السهل والجبل.

لقد إنتقلت الإحتكاكات والهجمات المتبادلة بين سكان الجبل الجدد الدروز والعائلات المسيحية إلى إحتكاكات بين الدروز والعائلات الحورانية المسلمة في الجبل وفي سهل حوران. "ومنذ نزول الدروز في حوران مابرحوا يناوشون النصارى والسنيين من أهل القرى والبادية القتال، حتى أستقلوا فيه استقلالاً تاماً. وكانت أول وقائعهم المشهورة بعد وقائع إبراهيم باشا ما حدث سنة 1296 ه 1880 م بينهم وأهل بصر الحرير من أجل فتاة، فهجم الدروز على بصر وقتلوا من أهلها ثمانية أو عشرة أشخاص وقتل من أهل بصر خمسة آخرون أثناء الدفاع عن أنفسهم."[1] ويتابع محمد كرد علي في وصف عدوانية الوافدين الدروز ضد جيرانهم الجدد ويكتب: "عندما فشلت السلطات العثمانية في تحسين الإدارة في الجبل زادت جرأة الدروز إلى أن كانت سنة 1882 م فهجموا على قريتي الكرك وإم ولد وذبحوا سكانهما على بكرة أبيهم ولم يبقوا حتى على الأطفال الرضع."[2] يشتكي الحاكم العثماني لبلاد الشام مدحت باشا ويسجل في مفكرته شكواه من تدخل القوى الغربية وتشجيع الأقليات على الفوضى والإعتداء ويقول في عام 1881 : "والذي زاد الطين بله أن فرنسا تحمي الموارنة والكاثوليك وإنكلترا تتشيع للدروز."[3]

وكانت أخر هذه الأصتدامات تلك الغزوة التي قادها سلطان الأطرش ضد قافلة من الفلاحين الحوارنة بالقرب من بلدة بصرى الشام عام 1910 وراح ضحيتها 17 شخص من عشيرة المقداد.

وفي تلك الحقبة من الزمن كانت قد إنتشرت الإحتكاكات وتوسعت بين البدو والفلاحين في جنوب سوريا. وعلى وجه الخصوص بين العشائر البدوية المقيمة والمنتشرة في منطقة الصفا الواقعة إلى الشرق والجنوب

---

[1] محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، صفحة 102 ، دمشق 1980 .
[2] المصدر السابق.
[3] المصدر السابق.

من جبل حوران والعائلات الدرزية المقيمة بالجبل. واستمرت هذه الإحتكاكات بين سكان جنوب سوريا ودامت قرابة نصف قرن من الزمان، خلقت خلالها بعض الحساسيات السلبية في العلاقة بين سكان السهل والجبل الحوراني الراهن. وقد تلاشت هذه الحساسيات خلال أعوام القرن العشرين ومع مرور الزمن أيضاً.

سكان حوران لا ينتمون إلى دين أو طائفة أوعرق أو قبيلة بعينها، فهم سكان هذا المكان منذ مئات السنين، ويغلب على سكان هذه المنطقة طابع الإستقرار والتوافق، وقد نسجت بين سكان هذه المنطقة علاقات ودية وعلاقات نسب وقرابة. وتكونت مع الزمن ثقافة وقيم مشتركة أو متقاربة بين سكانه. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال منظومة الأخلاق العامة والأمثال الشعبية واللهجة العربية القريبة للهجة أبناء الجزيرة العربية التي يتميز بها سكان حوران.

لقد توقفت بفعل الثورة السورية ضد المستعمر العثماني والمستعمر الفرنسي الهجمات المتبادلة والإحتكاكات التي كانت تتكرر بين الدروز والحوارنة، وبين العشائر البدوية على الرغم من محاولة المستعمر الفرنسي من تأجيجها وإثارتها من جديد في أكثر من مناسبة وفي أكثر من حدث. لقد فشل المستعمر الفرنسي على إثارة تلك النعرات الطارئة عندما إنخرط أبناء الأمة والوطن في جولات وصولات معارك الحرية والتحرير من سيطرة القوى الأجنبية الغازية وضد وجود جيوش المستعمر. هذه التجربة التاريخية للشعب السوري تصلح دائماً كنموذج في شد اللحمة الوطنية وخاصة في الأزمات التي تجتاح الوطن.

واقع العرب
أثناء الحرب العالمية الأولى

نشبت الحرب العالمية الأولى عام 1914 بين ألمانيا وتركيا من جهة وفرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية من جهة أخرى. كان العالم يطلق على السلطنة العثمانية دولة الرجل المريض. وكانت لا تزال أجزاء عربية شاسعة تحت سيطرة الرجل المريض، في حين تخلت السلطنة العثمانية أوخسرت خلال السبعين سنة الماضية التي سبقت هذه الحرب أجزاء كثيرة من الأرض العربية وتم الإستيلاء عليها تباعاً من قبل القوى الإستعمارية الغربية، بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الغازية الواحدة تلو الأخرى.

ففي عام 1830 خسرت السلطنة العثمانية الجزائر ولم تستطع الدفاع عنها أمام الغزاة الفرنسيين. وفي عام 1831 خسرت السلطنة العثمانية اليمن الجنوبي والخليج العربي ولم تستطع الدفاع عنه أمام الغازي الإنجليزي. وفي عام 1882 سيطرت بريطانيا على مصر وسيطرت فرنسا في نفس العام على تونس وعلى أجزاء واسعة من المغرب الأقصى. وفي عام 1912 سقطت ليبيا بيد المستعمر الطلياني وتخلت السلطنة العثمانية عن هذا الإقليم العربي بكل سهولة وتركت الجيش الذي حاول الدفاع عن هذه الأرض والذي كان يقوده أحد الضباط العرب وهو عزيز علي المصري دون عون ومساعدة ولم يمد حتى بالإمدات العسكرية والتموينية الكافية. وترك هذا الجيش وهذا الإقليم العربي ومصيره المحتوم حتى سقط تحت قبضة الغازي الطلياني.

هذه لمحة عن تطور الأقاليم العربية التي كانت لزمن ليس بالبعيد عن تفجر الحرب الكونية الأولى جزء من أملاك السلطنة العثمانية. فالسلطنة العثمانية كانت قبيل الحرب تعيش حالة تفكك وحالة فوضى عارمة وفساد مستشري في كل مفاصل الدولة. فالعجز الشامل في السلطنة العثمانية كان واضح ومعروف في الأوساط السياسية المحلية والدولية.

كان العرب قبيل الحرب وأثناء الحرب يبحثون عن مخرج من هذا المأزق التاريخي الذي وضعتهم بها السلطنة العثمانية. وكانت تسري بين النخب العربية حركة فكرية وسياسية نشطة طالت أغلب المناطق العربية في الريف والمدينة على حدٍ سواء. ففي بيروت ودمشق وحلب والقاهرة تشكلت المنظمات السياسية، وفي الأرياف طغت سمة المواجهات العسكرية مع قوات السلطات التركية التي أصبح السكان العرب يعتبرونها منذ بداية القرن العشرين كقوات إحتلال أجنبي ويجب التخلص منه.

في حوران هذه البقعة الجغرافية من بلاد الشام، ذات الطبيعة الزراعية والتي كان أغلب سكانها من الفلاحين وتربطهم بأرضهم من مئات السنين علاقة خاصة، كانت أشكال المقاومة العسكرية المسلحة للإحتلال العثماني هي السمة الطاغية.

قبيل عام 1916 وبعد أن أقدم جمال باشا السفاح على تعليق أعداد من المناضلين العرب على أعواد المشانق في 6 أيار عام 1916 في ساحة المرجة في دمشق وساحة الحرية في بيروت، وكان منهم أعضاء في البرلمان العثماني من أمثال عبد الحميد الزهاوي، وشفيق المؤيد والأمير عمر الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي، ورشدي

الشمعة. وكان من بين شهداء 6 أيار عام 1916 أيضاً شخصيات عسكرية وثقافية عربية مثل رفيق رزق سلوم، والعقيد سليم الجزائري، والعقيد أمين لطفي الحافظ، وعبد الغني العريسي (صاحب جريدة المفيد) والشيخ احمد طبارة (صاحب جريدة الاتحاد العثماني) والأمير عارف الشهابي، وتوفيق البساط، وسعيد عقل (رئيس تحرير جريدة النصير) ، وجلال البخاري وسيف الدين الخطيب، وبترو باولي، ومحمد الشنطي، وجرجي الحداد، والدكتور علي عمر النشاشيبي، والشاعر عمر حمد ، وغيرهم. وقد حسم النقاش في الساحة العربية في تلك الأجواء المأساوية التي خلقها الأتراك من تقتيل وملاحقة وتجويع في صفوف المواطنين العرب داخل السلطنة، واعتمد العرب أسلوب الكفاح المسلح كخيار أساسي للتخلص من الإحتلال العثماني.

تداعت الزعامات الوطنية السورية في اليوم التالي لجريمة الإعدامات للاجتماع سرا بالأمير فيصل في 7 ايار 1916م في دار نسيب البكري في حي القابون بدمشق. وكان من بين الحضور في هذا الإجتماع والمؤتمر الوطني العربي عدد من زعماء حوران. كان من بين من حضر هذا المؤتمر القومي من الحوارنة فايز زعل الغصين رفيق ومستشار الأمير فيصل، و فواز بركات الزعبي عضوا حزب العربية الفتاة القومي العربي.

وفي هذا اللقاء التاريخي توافق الحضور على مشروع الثورة العربية ضد المحتل العثماني، و تم توزيع الأدوار والمهام بين الحاضرين في هذا اللقاء المنعقد في أحد أحياء دمشق التاريخية، وفي بيت أحد رواد حركة التحرر العربية. وقد رسمت في هذا الإجتماع التاريخي إستراتيجية إنطلاق الثورة من مكة المكرمة في الحجاز، لما لمكة المكرمة من رمزية في التاريخ العربي والإسلامي.

بعد إنتهاء هذا اللقاء التاريخي الهام أرسل نسيب البكري رسالة إلى الشريف حسين يشرح له فيها الحالة السياسية المأساوية القائمة في بلاد الشام، وبين له ما قرره الحضور من بدء الثورة على العثمانيين. وكان لحوران ولأهل حوران منذ اليوم الأول لمشروع الثورة العربية الكبرى دور أساسي وكبير وحاسم. وتعود الأسباب لدور أهل حوران إلى الاسباب التالية:

- أن حوران وأهل حوران هم بوابة بلاد الشام وأقرب الحواضر العربية إلى دمشق عاصمة بني أمية من جهة بلاد الحجاز والجزيرة العربية التي ستنطلق منها الثورة العربية المسلحة
- وثاني هذه الإعتبارت أن التداخل والتمازج السكاني بين أهل حوران وسكان دمشق كبير جداً، وأكثر من أي منطقة أخرى في العالم. فقد كانت أحياء كاملة من مدينة دمشق تسكنها عائلات ذات أصول قادمة من سهل حوران كحي الميدان الدمشقي العريق ومنطقة القدم على سبيل المثال.

عاد زعماء وقادة الثورة العربية بعد إنفضاض الإجتماع السري في حي القابون الدمشقي كل إلى مكان سكنه، وكل إلى تنفيذ المهمة الموكلة إليه. في هذ الإجتماع أبدى زعماء حوران حماس شديد لدعم الثورة العربية ووعدوا زملائهم ورفاق دربهم بدعم ثورة العرب بالرجال والسلاح . فالحوارنة كانوا قد بدأوا في مقارعة المحتل العثماني بعدة أعوام سبقت هذا اللقاء، وقد جاءت الأيام والأحداث في المنطقة والعالم وإقتربت من رؤيتهم في كيفية التعاطي مع العثمانيين وسلطاتهم. فالجهاد المسلح كان هو الأسلوب الأقرب لمنطقهم في تلك الأيام.

استعد الزعماء الحوارنة لتعبة وتجنيد الثوار في مناطقهم، ومن أجل ذلك عقدت في حوران سلسلة من الإجتماعات العشائرية عمت جميع مناطق حوران، وشارك في هذه اللقاءات السرية والعلنية زعماء وممثلي أغلب عائلات وعشائر حوران. لقد عقدت في درعا عدد من هذه اللقاءات، وفي الشيخ مسكين وفي بصرى الشام، وفي الطيبة وفي إربد في مجلس ومضيف مصطفى وهبي التل، وفي الرمثا في مجلس فواز بركات الزعبي، وفي المسيفرة وفي دير البخت عند شيوخ السعدية وغيرها من اللقاءت والمؤتمرات. كل هذه اللقاءات كان موضوعها الرئيسي حل الخلافات القائمة بين العشائر والعائلات في المنطقة، وتحشيد جميع القوى الممكنة لمواجهة الجيوش العثمانية.

وفي أحد اللقاءات التي تمت في بلدة المسيفرة بشرق حوران في بداية شهر حزيران عام 1916 ضم عدد من الزعماء الحوارنة من بينهم فايز الغصين، وفواز بركات الزعبي مع بعض زعماء جبل حوران (جبل العرب)، وعلى رأسهم كان سلطان الأطرش. في هذا اللقاء إتفق فيه ممثلي سهل حوران وممثلي جبل حوران على المشاركة بالثورة العربية جنباً إلى جنب. وفي هذا اللقاء ربط سلطان الأطرش و زعماء جبل حوران مشاركتهم في الثورة العربية بقبول القبائل البدوية المجاورة لهم المشاركة أيضاً في الثورة إلى جانب الآخرين.

وقد كانت الخلفية لهذا الشرط من زعماء الجبل هي الحساسيات التي كانت قائمة بين القبائل البدوية وسكان الجبل حتى ذاك الوقت، وقد وجد أهل الجبل في مشاركة هذه القبائل المجاورة لهم في الثورة ضمانة لقراهم من أي هجمات محتملة عليهم من قبل البدو. لقد كانت حتى ذاك الحين بين قبائل منطقة الصفا وقرى جبل حوران تحدث بين الفينة والأخرى بعض التعديات والإحتكاكات الدموية. ومن أجل تحقيق ذلك والتوصل لمشاركة

القبائل البدوية المقيمة في جنوب وشرق حوران ذهب وفد من زعماء سهل حوران وإلتقى بزعماء قبائل السرحان وقبائل السردية البدوية وتم طرح مع زعماء و شيوخ العشائر البدوية موضوع الثورة على العثمانيين وإقناعهم بواجب المشاركة في هذه الثورة.

وقد تم في هذا اللقاء إعلامهم بنتائج اللقاءات التي جرت في دمشق مع الأمير فيصل وزعماء الحركة الوطنية الدمشقية، والحركة الوطنية السورية في بيت نسيب البكري. وقد تم إطلاعهم على نتائج لقائهم مع زعماء جبل حوران و موضوع مشاركتهم في صفوف الثورة العربية، التي ستنطلق من مكة المكرمة. كانت نتائج لقاء الحوارنة مع زعماء القبائل البدوية في شرق وجنوب حوران جيدة ولاقت حماس شديد من زعماء القبائل البدوية للمشاركة في الثورة العربية. وقد كلف فايز الخصين بتبليغ الأمير فيصل والشريف حسين بنتائج اللقاءات بين زعماء سهل حوران وزعماء جبل حوران وزعماء قبائل منطقة الصفا وشرق الأردن.

كانت هذه الإستعدادات وما تمخض عنها من نتائج في رص صفوف جنوب سوريا وشمال الأردن وإنخراط أبناء هذه المنطقة في مشروع تحرير البلاد العربية الأثر الكبير في الإسراع في إنطلاقة الثورة العربية الكبرى وتحرير البلاد العربية من المستعمر التركي. لقد كان لحوران وزعماء حوران دور كبير في ترتيب القوى ورص الصفوف العربية للبدء في الثورة العربية المسلحة ضد العثمانيين والبدء في مرحلة التحرير التي طال إنتظارها.

إنطلاق
الثورة العربية الكبرى

في عام 1916 تجمع عدد كبير من الثوار العرب في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفي مدن الحجاز الأخرى، وأعلنوا من هناك وفي 10. 06. 1916 إنطقلاقة الثورة العربية الكبرى على السلطنة العثمانية بقيادة الشريف حسين بن علي والي الحجاز. لكن علاقة أهل حوران بالحجاز وبالشريف حسين بن علي كانت أقدم من تاريخ إنطلاقة الثورة العربية بعدة سنين، وخاصة قادة الرأي والمناضلين منهم. فقد حدث أول لقاء بين شخصيات من قادة الراي في حوران مع الشريف حسين في عام 1912. ومن بين هؤلاء الزعماء كان الشيخ إسماعيل الحريري شيخ مشايخ حوران وعضو البرلمان العثماني، وطلال مرعي الحريدين، وسليم الصالح، ومطلق المذيب، وسعيد الحلقي، ومحمد العائدي، وعرسان الحشيش، ومحمد رجا المسالمة، وفواز بركات الزعبي، وفاضل المحاميد، وعبد الرحمن المحاميد، وطالب الشرع، وصالح قناة، وغيرهم من الشخصيات الحورانية.

لقد تجمع عدد كبير من العسكريين العرب المنشقين عن الجيش العثماني، وأعداد أخرى أكثر من المتطوعين العرب من أبناء القبائل العربية في الجزيرة العربية في الجيش العربي الذي بدأ للتو في التشكل. من الحجاز سار جيش التحرير العربي متجهاً إلى الشمال لتحرير بلاد العرب من الحكم العثماني الجائر. وكلما تقدم الجيش العربي إلى الشمال كلما زادت

أعدادة من المتطوعين من أبناء المناطق والقبائل العربية التي كان جيش الثورة العربية يقترب منها بقيادة الأمير فيصل، ثاني أبناء الشريف حسين من بني هاشم. لقد بدأ الجيش العربي بحوالي ثلاثة ألاف مقاتل من العسكريين المحترفين، ومن المتطوعين قليلي الخبرة العسكرية والخبرة القتالية، لكنهم كانوا يتمتعون بمعنويات عالية وتصميم كبير على تحرير البلاد، وبناء دولة موحدة تجمع فيها كل الأقاليم العربية التي يتم تحريرها من القوى الأجنبية.

قبل إنطلاق الثورة العربية المسلحة من بلاد الحجاز كان البريطانيون قد أقدموا على خوض مباحثات وإجراء إتصالات ومراسلات عدة مع شريف مكة، الشريف حسين بن علي الهاشمي. وقد عرفت هذه المباحثات والمراسلات بمراسلات حسين ـ مكماهون. ومكماهون هذا كان هو المفوض السامي البريطاني المقيم في القاهرة، وهو وزير المستعمرات البريطاني في حينه. كانت بريطانيا تعمل على كسب ود العرب إلى جانبها، وهم يعرفون جيداً ما يطمح إليه العرب من تحقيق هدف الإستقلال وبناء دولة عربية موحدة. لقد كانت أهداف الحركة الوطنية العربية معلنة على الملأ ويتداولها العدو والصديق، وهي على كل لسان. لقد أقر مكماهون في أحد رسائلة إلى الشريف حسين بالإعتراف بدولة عربية موحدة تضم بلاد الشام والحجاز والعراق، في حال عمل العرب وتحالفوا مع البريطانيين في الحرب الكونية الجارية، وساهموا في هزيمة الحلف العثماني ـ الألماني في هذه الحرب.

لقد وافق الشريف حسين وقبل العرب بهذا التحالف مع البريطانيين لتوافق المصالح السياسية الإستراتيجية بين الطرفين، وتقاطع أهدافهم السياسية في تلك المرحلة من الزمن. كانت القاعدة السائدة في تلك الأيام "عدو عدوي صديقي"، على الرغم من عدم صحة هذه المقولة في كل الأحوال

لإحتمال، بل لتكرار، أن يكون "عدو عدوي عدوي" أيضاً، وقد تأكد هذا الإحتمال بعد حين من خديعة البريطانيين للعرب، وتحالفهم الغادر مع عدوهم في الأمس القريب، ضد طموحات العرب في الحرية والإستقلال، وبناء دولتهم القومية، التي تضم بين حدودها أبناء الأمة العربية. كانت بريطانيا ومعها فرنسا من أشد دول العالم عداوة لطموحات العرب، والافصح خيانة لدمائهم التي سالت على أرضهم قرباناً لأهدافهم الوطنية المشروعة.

قلعة بصرى الشام في شرق حوران

الاثار التاريخية في مدينة الصنمين في شمال حوران

كنيسة القديس جاورجيوس في مدينة أزرع في وسط حوران

نهر اليرموك في وسط وغرب حوران

الحوارنة
في قلب الثورة العربية

وصلت طلائع الجيش العربي الزاحف من الجنوب إلى منطقة الأزرق الواقعة اليوم على الحدود الأردنية السعودية، وذلك بعد تحرير العقبة والكرك في جنوب الأردن. وعندما علم ثوار حوران بقرب قدوم الجيش العربي الثائر إلى مشارف ديارهم ذهبت جماعات منهم ووصلت إلى معسكر فيصل في منطقة الأزرق، واستقبلهم هناك ورحب بقدومهم الأمير علي بن الحسين قائد القوات العربية في منطقة الأزرق، ودار نقاش وحوار بين الثوار الحوارنة وقيادة الجيش العربي حول السبل الأفضل لسير المعارك والسبل الأفضل للتكتيكات العسكرية. وفي الأزرق بدأت تتجمع قوات من عشائر الرولة بقيادة نوري الشعلان ومن قبائل السردية وبني صخر والسراحين. كما انضم إليهم كثيرون من أهل حوران وجبل الدروز حتى زاد مجموع رجالها على ثلاثة آلاف مقاتل.

كان من بين الثوار الخيالة الحوارنة طلال الحريدي من قرية طفس، وفواز بركات الزعبي من الرمثا، والشيخ مصطفى الخليلي، ومحمد رجا المسالمة، وفاضل المحاميد من درعا، واسماعيل الحريري من الشيخ مسكين. وفي المساء جاء قبلان الجاموس شيخ عشيرة الجاموس من قرية داعل للسلام على الشريف علي، ومعه عدد اخر كبير من زعماء حوران المعروفين، وقد تجاوز عددهم الخمسين شخصية حورانية ثائرة. إستقر رأي القيادات العسكرية في الجيش العربي المتجه لتحرير دمشق والشام

أن يعود عدد من فرسان حوران الثائرة إلى أرض حوران، وتم تكليفهم من قبل قيادة أركان الجيش العربي بمهمة العمل على ترتيب المنطقة وجمع الصفوف من أجل زعزعة الجيوش العثمانية والألمانية المتمركزة في درعا ومنطقة حوران، وإعداد المتطوعين الجدد وتنظيمهم للمعارك الحاسمة القادمة.

وفي اللقاءات التي جمعت القيادات العسكرية للجيش العربي والقيادات العسكرية والإجتماعية الحوارنية في منطقة الأزرق، والتي دامت عدة أيام تم فيها تشيكل وحدات الجيش النظامي العربي. وقد تم الاتفاق على تشكيل جيش أخر رديف من المتطوعين العرب. وبهذا أصبحت قوات الثورة العربية تتكون من جيشين إثنين مقاتلين، يتم إستعمالهما والتنسيق بين عمليات كل من الجيشين حسب الحاجة والضرورات العسكرية والتكتيكية. وقد أوكلت القيادة العامة لهذين الجيشين من قبل الشريف حسين إلى الضابط المصري المشهور، عزيز علي المصري، الذي كان قبل أنشقاقه عن الجيش العثماني يقود الجيش العثماني في حرب ليبيا ضد الغزو الطلياني عام 1911 و1912 . لقد أصبح عزيز علي المصري رئيساً لقيادة أركان القوات العربية المسلحة. واصبح القائد العام العسكري والسياسي لقوات الثورة العربية هو الأمير فيصل إبن الشريف حسين، شريف مكة المكرمة.

وقد أسندت قيادة الجيش النظامي الاول إلى الأمير علي إبن الحسين، مع عدد من الضباط العرب السابقين في الجيش العثماني، من أمثال فؤاد الركابي ونوري السعيد. وقد اسندت مهمة تشكيل الجيش الثاني من المتطوعين العرب، غير المحترفين من أبناء المناطق المحررة وأبناء العشائر والفلاحين الثائرة، إلى الضابط الحوراني المنشق عن الجيش العثماني محمد رجا المسالمة. فهذا الجيش يصلح لعمليات الكر والفر،

وإلى تنفيذ العمليات الخاصة خلف خطوط العدو. وقد كلف القائد العسكري المشهور في حوران، الشيخ مصطفى الخليلي، لقيادة وحدات الثوار والمتطوعين الجدد الحوارنة، كرئيس أركان لهذا الجيش. فالشيخ مصطفى الخليلي كان مفتي حوران وقائدها العسكري الميداني في كل الأزمات والحروب، ومحل ثقة عالية عند أبناء حوران وجنوب بلاد الشام.

ومن بين رواد الثورة العربية الكبرى من رجالات حوران كان المجاهد المعروف فايز زعل الغصين من منطقة اللجاة. هذه الشخصية الحورانية الفذة كانت تجتمع فيها صفات الحكمة والثقافة والبسالة. ولعب فايز الغصين دوراً أساسياً وبارزاً في تجميع أطراف حركة التحرر العربية في بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية. فهو العضو البارز في الحركة القومية العربية السرية المعروفة بمنظمة "العربية الفتاة"، وكان المستشار السياسي للأمير فيصل، والمؤرخ للأحداث في الأوساط العلمية العربية. وفايز زعل الغصين كان أول من كتب وخلد أحداث الثورة العربية في كتابه المعروف "مذكراتي عن الثورة العربية".

بعد عدة أيام من الإقامة في منطقة الأزرق في معسكرات الجيش العربي عاد عدد من القادة الثوار الحوارنة إلى مدنهم وقراهم، وباشر كل منهم في تنفيذ المهام الموكلة إليه بكل جد ونشاط وحماس لتقريب يوم الخلاص من حكم الأجنبي الظالم وتحرير البلاد والعباد من سلطة عثمانية جائرة طال زمن طغيانها. بدأ القادة الحوارنة العائدون إلى حوران يجوبون القرى والمدن الحورانية، ويعقدون اللقاءات المحلية والعشائرية، ويدعون إلى رص الصفوف، وحشد القوى ليوم موعود. وقد استجاب أهل حوران لهذه الدعوات بحماس شديد، وصار الشباب يشتري السلاح والذخيرة، ويبيع البقرة الحلوب ويشتري بثمنها البندقية والفرس

والمركوب. خلال أيام معدودة من عودة زعماء حوران إلى قراهم ومدنهم شهدت حوران حالة من النشاط والأمل في المستقبل تشاهد إنعكاساته على وجوه الناس وأحاديثهم في مجالسهم العامة والخاصة. هذا ما نقله الاباء والاجداد في أحاديثهم بعد زمن عن تلك الايام المجيدة من أيام حوران.

وفي منطقة الأزرق بالقرب من الحدود السعودية الأردنية بقي عدد من المحاربين من زعماء العشائر الحورانية مع الأمير علي ابن الحسين، وأنضموا لصفوف جيشه، ومنهم من أوكلت إليه قيادة بعض الكتائب العسكرية المقاتلة. كان أبرزهم فواز بركات الزعبي من الرمثا، وطلال الحريدي من قرية طفس، حيث أصبحا من أهم قادة الجيش العربي الزاحف إلى بلاد الشام، إلى جانب رئيس قيادة أركان الجيش العربي، عزيز علي المصري، ونوري السعيد وشيخ قبائل الحويطات الأردنية المعروفة عودة أبو تايه. وقد تشكلت علاقة صداقة وزمالة كفاح بين الثوار والقادة الحوارنة مع الأمير فيصل، وبقية قادة الجيش العربي الثائر، وظلت هذه العلاقة قائمة ومستمرة لزمن طويل.

بعد سلسلة مواجهات مع الجيش العثماني المتمركز في منطقة عمان والسلط وإربد والرمثا، وبعد سلسلة تفجيرات قام بها المستشار العسكري البريطاني لورنس إدوارد توماس المعروف "بـ لورانس العرب" لخطوط السكك الحديدية إلى الجنوب و الغرب من مدينة درعا، وصل الجيش العربي إلى مشارف درعا، وعسكر في المنطقة الواقعة بين بلدة المتاعية وبلدة نصيب وصيدا إلى الشرق والجنوب الشرقي من مدينة درعا. كان هدف جيش الثورة العربية تحرير مدينة درعا بأي ثمن، وبسط السيطرة عليها، لما لهذه المدينة من أهمية إستراتيجية في سير المعارك اللاحقة.

ففي مدينة درعا كانت تتمركز قيادة الفيلق التركي المنوط به وقف الزحف العربي بإتجاه دمشق. وفي درعا تقع محطة السكك الحديدية الرئيسية، المعروف بالخط الحديدي الحجازي، والتي تربط مدينة دمشق بالحجاز والمدينة المنورة، وكذلك تربط دمشق والحجاز بفلسطين. وعلى أرض فلسطين كانت المعارك جارية بين اللواء السابع واللواءالثامن من الجيش العثماني الرابع بقيادة جمال باشا السفاح والجيش البريطاني القادم من جبهة قناة السويس وسيناء، متجهاً إلى دمشق، بقيادة الجنرال البريطاني اللنبي. فمن يسيطر على درعا يستطيع التحكم بإمدادات الجيوش المتصارعة في المنطقة، ويستطيع فتح الطريق إلى دمشق العاصمة، الهدف المنشود في الحرب الجارية، لبناء الكيان السياسي العربي الجديد.

يعتبر الجيش الرابع العثماني من أهم الجيوش العثمانية. هو أحد الجيوش الأساسية التي كانت السلطنة العثمانية تخوض بها الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.
كان الجيش الجيش العثماني الرابع هو أحد الجيوش العثمانية الأربعة التي تقوم عليها قوة السلطنة العثمانية بشكل عام، ويشكل مع ثلاثة جيوش عثمانية أخرى العمود الفقري في السلطنة العثمانية.

- كان الجيش الأول للسلطنة العثمانية منتشر في قلب السلطنة العثمانية حول إسطنبول العاصمة وفي منطقة الأنضول،
- وكان الجيش الثاني العثماني منتشر في جبهة البلقان الغربية في القارة الأوروبية،
- وكان الجيش الثالث العثماني منتشر في العراق وشط العرب ورأس الخليج العربي.
- أما الجيش الرابع العثماني كان مجال إنتشاره هو بلاد الشام والحجاز ومركز قيادته دمشق.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى عين جمال باشا السفاح حاكماً عاماً لبلاد الشام والحجاز، وقائداً للجيش الرابع العثماني، والذي يضم بصفوفه اللواء السابع واللواء الثامن، والتي إلحقت به أثناء سير المعارك الحربية في الحرب العالمية الاولى.

مهمة الجيش الرابع الأساسية كانت تتلخص في المحافظة على بلاد الشام وعدم وصول العرب أو الإنجليز إلى عاصمة الولاية دمشق. كان مجال إنتشار الجيش العثماني الرابع مع اللواء السابع واللواء الثامن هو بلاد الشام، وبالدرجة الأولى، وعلى جبهات القتال الممتدة من مدينة غزة غرباً عبر مدينة الخليل ومدينة القدس الشريف في فلسطين، ومدينة السلط ومدينة عمان في الأردن، وعبر مدينة درعا وبصرى الشام حتى مدينة السويداء في سوريا الحالية شرقاً. وفي أثناء الحرب العالمية الاولى كانت تتجمع في مدينة درعا أغلب غرف القيادة والتخزين والإمداد، لتوسط المدينة جبهات القتال وخطوط الدفاع من الناحية الجغرافية، ولوقوع مدينة درعا على محاور طرق المواصلات الأساسية أيضاً من ناحية أخرى.

إن إختراق خط الجبهة في درعا كان يعني بالنسبة لإستراتيجية الحرب العثمانية حصول الكارثة العسكرية، لما لها من تأثير كبير على إستراتيجية الحرب العثمانية في المنطقة. ولذلك كانت تعزيزات الجيش العثماني في درعا وحول القرى المحيطة بمدينة درعا كبيرة جداً، والتحصينات فيها وحولها شديدة أيضاً. وفي مدينة درعا تم تشييد مطار حربي، وقاعدة جوية عثمانية ـ وألمانية مشتركة أيضاً. وفي مدينة درعا تم إقامة ثكنة وقاعدة عسكرية كبيرة وحصينة على كتف وادي الزيدي من الناحية الغربية الشمالية في المدينة، والتي كان الاهالي يطلقون عليها أسم "المذخر" لكثرة العتاد والذخيرة المخزنة بتلك القاعدة.

على أرض حوران
رفع علم الثورة العربية لأول مرة

خلال الأعوام الثلاثة الأولى للحرب العالمية الاولى تراجع الجيش العثماني عن خط الدفاع الاول عند قناة السويس أمام الضغط البريطاني الفرنسي المتواصل. وعندما دخل العرب إلى ساحة الحرب، وأصبحت القوات العثمانية المنتشرة على طول جبهة ممتدة من عمان حتى بصرى الشام عبر جبهة درعا مهددة بشكل جدي وصارت شبه محاصرة بين الجيش البريطاني المتقدم في جبهة فلسطين والجيش العربي المتقدم من العقبة وجنوب الاردن بإتجاه الشمال وبإتجاه درعا ودمشق. هذه الجبهة كانت هي مسرح عمليات الجيش العربي، وهي مبتغاه للوصول إلى عاصمة الدولة العربية عاصمة بلاد الشام دمشق.

كانت وحدات وكتائب الجيش العثماني المرابطة في درعا والمزيريب وتل شهاب تتوقع هجوم القوات العربية على مدينة درعا من جهة الجنوب، أي من قرية نصيب وبلدة الرمثا، حيث الضرورات العسكرية وطرق الإمدادات لا تسمح بغير هذا التكتيك العسكري. لكن العرب والجيش العربي، وعلى خلاف كل التوقعات العسكرية، أقدموا على مهاجمة مدينة درعا من جهة الشمال، من قرية داعل وعتمان وخربة غزالة، حيث كان التجمع الأساسي للقوات المهاجمة في منطقة تل عرار المرتفعة والتي تتوسط هذه القرى الثلاثة المذكورة أعلاه ومجرى وادي

الذهب الذي يمر عبر قرية عتمان المجاورة وملاصقة مباشرة لدرعا من جهة الشمال.

كان مخطط جيث الثورة العربية بسيط جداً، لكنه غير متوقع ومفاجئ، حيث تسلل خلف خطوط العدو التركية والألمانية عدد قليل من القادة العسكريين المحترفين، منهم الشريف ناصر بن علي، وعودة أبو تايه، ونوري السعيد، وطلال الحريدي، ومحمد رجا المسالمة، وفواز بركات الزعبي، مع بعض قادة وزعماء عشائر حوران إلى منطقة التجمع، وكان أغلب المقاتلين الذين تم تجميعهم هم من أبناء تلك المناطق، من الفلاحين الحوارنة، ومن الرجال الشجعان الذين يعرفون تفاصيل تضاريس مناطقهم وأزقة قراهم ومدينتهم درعا، التي كانت تعرف بإسم "ذرعات" وكما كان الناس يتداولها بلفض "ذرعا".

وقبل البدء في الهجوم على درعا في 17. 09. 1918 كان قد تم الإتفاق مسبقاً مع أعداد من سكان درعا من المقاتلين والقيادات المحلية حول التكتيك وحول نقطة الصفر المنوي فيها مهاجمة الحامية العسكرية العثمانية، والثكنة العسكرية العثمانية المتمركزة في شمال وغرب مدينة درعا، ومهاجمة المطار، ومهاجمة القاعدة الجوية التركية ـ الألمانية المشتركة. لكن في المدينة كانت قد تحتشدت قوات كبيرة عثمانية وألمانية، وتغص المدينة بالجيوش المعادية. فمع مرور أيام الحرب، وتوالي هزائم العثمانيين والألمان في الأردن وفلسطين فقد تجمعت أعداد كبيرة من القوات العثمانية والألمانية المنسحبة من فلسطين والاردن في مدينة درعا الإستراتيجية، بقصد المحافظة عليها بأي ثمن، وبأي شكل من الأشكال.

مع بزوغ أول خيوط الفجر من صباح يوم 17. 09. 1918 أغار فرسان الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر بن علي على الحاميات العسكرية العثمانية المتمركزة في مدينة درعا والواقعة في القسم الشمالي من المدينة المعروفة بمنطقة المحطة، قادمين من منطقة تل عرار وخربة غزالة وعتمان. وفي نفس الوقت وفي نفس الساعة إنتفضت مدينة درعا عن بكرة أبيها في ثورة مسلحة في وجه قوات المستعمر العثماني في المنطقة الجنوبية من المدينة المعروفة باسم درعا البلد.
أصبحت وبلمح البصر جميع شوارع وكل أزقة مدينة درعا ساحة حرب وجبهة قتال. دارت المعارك بين جيش ناصر بن علي والمراكز العسكرية العثمانية والألمانية الحصينة في المدينة، وتولى سكان درعا مهمة مهاجمة المراكز والمخازن والدوريات الراجلة العثمانية في كل مكان، وفي كل شارع من شوارع المدينة الثائرة.

حسمت المعركة في درعا لصالح الجيش العربي بسرعة فائقة. ولم تدم المعارك في المدينة لأكثر من نصف نهار حتى تحررت مدينة درعا واصبحت بيد الثوار الحوارنة، وبيد الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر ورفاقه. واستولى الجيش العربي على مخازن الأسلحة الكبيرة العثمانية والالمانية في المدينة، ووقع جميع أفراد الجيش العثماني والالماني المتواجد في مدينة درعا بين قتيل وجريح وأسير.

في نفس اليوم الذي تحررت به درعا سارع الثوار العرب على رفع علم الثورة العربية على سارية بناية البلدية، والمعروفة ببناية السرايا. وشكل الشريف ناصر بن علي، إبن شقيق الأمير فيصل، قائد الحملة العسكرية العربية على درعا أول حكومة عربية وأول إدارة عربية تشرف وتدير شؤون المدينة المحررة، وتدير شؤون المنطقة المحررة الواقعة إلى الشرق والشمال من مدينة درعا من أرض حوران.

في درعا وفي ذاك اليوم المشهود من تاريخ حوران وسوريا والعرب والموافق في 17. 09. 1918 رفع علم الثورة العربية لأول مرة منذ إنطلاقة الثورة العربية الكبرى من الحجاز والمدينة المنورة. ومن هناك، من "أذرعات" شكلت أول إدارة سياسية عربية حرة في بلاد الشام.
مع تحرير درعا، وبهذه السرعة المفاجئة، وغير المتوقعة من الناحية العسكرية، طرأ تطور نوعي على مسار الحرب في بلاد الشام، وربما على مسار الحرب الكونية الدائرة بين القوى العظمى في حينه. لم يك الأعداء العثمانيين والألمان سعداء بهذه النتيجة المدمرة بالنسبة لإستراتيجية حربهم، ولكن هذه النتيجة العسكرية المفاجئة لم ترضي أيضاً الطرف الإنجليزي الحليف للعرب، كما كان مفترض أيضاً، بل إعتبر السياسيون والعسكريون الإنجليز تحرير مدينة درعا سيزيد من قوة ومكانة القوات العربية النظامية، والقوات الشعبية العربية المقاتلة، قوة وثقة بالنفس غير مرغوب فيها لدى الانجليز وحلفائهم الفرنسيين في هذه الحرب، وربما تخلق لهم هذه التطورات العسكرية النوعية والسياسية والنفسية إرباكات سياسية وعسكرية في المستقبل القريب.

رفض الإنجليز في أول الأمر الإعتراف بالسلطة السياسية والإدارة العربية المشكلة في درعا بعد التحرير، ورفض الإنجليز على لسان الجنرال اللنبي، القائد العام للقوات البريطانية في الشرق، الإقرار بشرعية رفع علم الثورة العربية على دار الحكومة في درعا. وهدد الجنرال اللنبي قائد الجيش الإنجليزي بتقديم وبدفع بقوات عسكرية إنجليزية إلى درعا من أجل إنزال العلم العربي بالقوة عن البنايات الحكومية. وطالب بحل الحكومة والادارة التي شكلها ناصر بن علي في المدينة. وقد تقدمت بالفعل وحدة عسكرية إنجليزية بقيادة الجنرال باور قادمة من الرمثا بإتجاه درعا، لإجبار قيادة الثورة العربية على نزع علم الثورة العربية، وإنزاله

عن دار السرايا بقوة السلاح. لكن الثوار العرب أصروا على موقفهم، وأعتبروا أن هذا هو حقهم وهذه هي بلادهم، وأن الجيش العربي والمتطوعون العرب هم من حرروا مدينتهم. وقد أصر ثوار مدينة درعا على أن علم الثورة العربية هو العلم الوحيد الذي سيظل مرفوعا على أبنية المدينة الرسمية.

وقد حدثت في هذا اليوم إشتباكات مسلحة بين القوات الإنجليزية المهاجمة وقوات من الثوار الحوارنة على طريق درعا ـ عمان في وسط وادي الزيدي الذي يقسم المدينة إلى قسمين وتم إيقاف الرتل العسكري الإنجليزي لعدة ساعات، وحوصرت بعض آلياته في قاع الوادي من قبل ثوار المدينة، لم تعد تلك القوات المحاصرة قادره حتى على التراجع وحتى على الفرار.

توقف الرتل العسكري الإنجليزي لعدة ساعات على الطريق العام وعلى الجسر الغربي في وسط مدينة درعا، وعمل "لورنس العرب" على التوسط بين الطرفين، واستطاع خلال هذه الوساطة من إقناع الجنرال اللنبي بالعدول عن خططه في إنزال العلم العربي عن بناء السريا، ونصحه بسحب قوات الجنرال باور من درعا، والعودة بها إلى الرمثا، حيث كانت متمركزة قبل حدوث الإشتباكات المسلحة مع المقاتلين الحوارنة في درعا. ونصح "لورانس العرب" الجنرال اللنبي بإظهار إحترامه للسيادة العربية على المدينة، وأن يقوم اللنبي بنفسه بتقديم التحية العسكرية للعلم العربي المرفوع فوق سارية السرايا بدرعا، وإلا فإن جميع الخطط العسكرية لجيشه ولجيوش الحلفاء بالشرق ستصبح مهددة بالفشل الذريع. لقد ذكر لورنس هذا في مذكراته اليومية التي دونها في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" حول مجريات حرب جيش الثورة العربية

وحول تحرير مدينة درعا وحول الاحداث التي جرت في مدينة درعا بعد التحرير.

لقد إستجاب اللنبي لهذه النصيحة من ضابط مخابرات إنجليزي "لورنس" ومنتدب للعمل في صفوف الثورة العربية، ويمتلك معرفة واسعة عن العرب وأحوال العرب، ويتقن لغتهم، ويعرف أمزجتهم الإجتماعية والنفسية. وأقدم الجنرال اللنبي بالفعل على سحب قواته من درعا وعاد بها إلى الرمثا، وطلب من القيادة العربية في المدينة السماح له بدخول مدينة درعا بمفردة مع بعض حراسه. وفعلاً جاء اللنبي إلى سرايا درعا في حي المحطة وقدم التحية العسكرية للعلم العربي المرفوع على سارية سرايا المدينة. لكن أحد الثوار كان قد سقط شهيداً في معركة الدفاع عن السيادة العربية وعن العلم العربي في معركة وادي الزيدي مع القوات الإنجليزية، وكان اسمه خلف حسن المسالمة، وجرح معه إثنان في هذه المعركة من عائلة المحاميد من سكان المدينة.

أهمية مدينة درعا
في الإستراتيجية العسكرية

في تحرير درعا من الجيش العثماني سقطت دفاعات السلطنة العثمانية الأخيرة في بلاد الشام. ويعترف "إدوار ميدايدل" في كتابه "صانعو الاستراتيجية الحديثة" بالدور العظيم الذي قامت به حملة الأزرق والتي تكونت من الجنود العرب وقوات البدو وكانت مهمتهم خطيرة وصعبة مؤادها أن تقوم هذه القوات بحملة سريعة الحركة وبهجوم خاطف من الخلف على درعا ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن بقصد قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبل قيام "اللبني" بالهجوم ويعترف أنه لولا نجاح هذه الحملة لما نجح هجوم "الجنرال اللبني".

في معركة درعا الصاعقة أستسلمت وحدات القوات العثمانية الباقية في المدينة للجيش العربي، وسيق المئات من الجنود العثمانيين الأسرى. وجن جنون القيادة العسكرية التركية للجيش الرابع المتمركز في تلك المنطقة. فسقوط درعا بيد الجيش العربي يعني إختراق الجبهة العسكرية العثمانية وخطوط دفاع الجيش الرابع العثماني في درعا. ويعني أيضاً بأن قواتهم أصبحت في وضع صعب من الناحية العسكرية وقطعت طرق المواصلات الرئيسية التي تربط المنطقة ببقية بلاد الشام وسوريا.
أثناء سير المعارك كان جمال باشا السفاح، القائد العام للقوات المسلحة العثمانية في بلاد الشام والحجاز، قد قرر وبعد التطورات العسكرية في

فلسطين وفي الاردن الإنسحاب من جميع المواقع ونقاط الجبهة الواقعة إلى الجنوب من خط سحم الجولان ـ درعا ـ وبصرى الشام التي كان جيشه منتشراً بها، وسحب اللواء السابع العثماني المنتشر في فلسطين إلى حوران، وأعاد ترتيب قواته من جديد حيث قام في بناء خط دفاعي جديد يمتد من وسحم الجولان مروراً بطفس وداعل غرباً حتى خربة غزالة والمسيفرة والسويداء شرقاً، ليتمكن من وقف أي تقدم للجيش العربي شمالاً بإتجاه دمشق، وللحفاظ على بقية بلاد الشام عند تلك الحدود التي تمر من وسط سهل حوران.

وبالفعل بدأت وحدات الجيش الرابع العثماني واللواء السابع واللواء الثامن التي كانت منتشرة في فلسطين وشرق الاردن بالتحرك في تلك المنطقة استعداداً لبناء خط جبهة وخط مواجهة جديد مع القوات الإنجليزية والقوات العربية في جبهة بلاد الشام. كان الجيش الإنجليزي لا زال يعمل في الجبهة الغربية في بلاد الشام في فلسطين، أي إلى الغرب من نهر الإردن، وبدأ التحرك بجبهة مدينة إربد وقراها متعقباً وملاحقاً وحدات الجيش العثماني المنسحبة من السلط وعجلون ومناطق أم قيس المطلة على نهر الإردن، ونهر اليرموك من جهة الأردن.

وبعد سقوط درعا وتحريرها من قبل الجيش العربي والثوار الحورانة وأبناء المدينة، تغير مزاج الإنجليز وتغيرت نظرتهم للعنصر العربي في القتال. قبل درعا كان ينظر الإنجليز للجيش العربي وللمتطوعين العرب على أساس تكملة عدد للقوات البريطانية العاملة على الجبهة في فلسطين. وكان الجنرال اللنبي يتعامل بنظرة فوقية متغطرسة مع القيادات العسكرية والسياسية العربية، لأنها حسب قناعته لن تستطيع عمل أي شيئ مؤثر خارج إطار تصورة لسير المعارك على الجبهات. وكان اللنبي وضباطه في القيادة البريطانية مطمأنه بأن الحليف العربي لا يمتلك أي

عنصر من عناصر المبادرة والقوة، ولن يشكل أي حالة تنافس وندية مع الجيش البريطاني العامل في المنطقة. هذا كان قبل معركة درعا. وهذه القناعات استمرت حتى يوم 17. 09. 1918 يوم تحرير درعا الصاعق، الذي أدهش الحليف قبل العدو. وكان الحليف لا يبعد عن درعا أكثر من عشرين كيلو متراً إلى الجنوب وينتظر وصول القوات والإمدادات الكبيرة إستعداداً لمعركة درعا المصيرية. لكن الحوارنة وجيش الثورة العربية، حسم الامر وحسم المعركة بسرعة خاطفة وبأقل الخسائر أيضاً، وخلق واقع سياسي وعسكري جديد على مسرح الاحداث في المنطقة.

مذبحة طفس
وثورة حـوارن الشاملة

أثناء إنسحاب أحد الوحدات العسكرية العثمانية بقيادة الجنرال مصطفى كمال باشا، الذي سيصبح فيما بعد يعرف بكمال باشا أتاتورك، من قرية المزيريب القادمة من السلط التي سقطت بيد الجيش العربي، وأثناء محاولة إعادة الإنتشار في المنطقة من جديد، فقد عبرت هذه الوحدة العسكرية، التي يقارب عدد أفرادها الثلاثة آلاف جندي عثماني وخمس مئة جندي ألماني، قرية طفس، اولتي تبعد عن مدينة درعا مسافة 13 كم شمالاً.

من هذه القرية طفس يأتي أحد قادة جيش الثورة العربية، وأحد فرسان حوران البواسل، شيخ عشيرة الحريدي، القائد طلال الحريدي، الذي ذكر اسمه سالفاً أكثر من مرة. وفي هذه القرية تسكن عشرية الحريدي ولازالت كذلك. تذكر الجيش العثماني وقادته المنسحبين من منطقة معان وعمان واربد مرارة الهزيمة في مدينة درعا، قبل أيام قليلة من تحرير درعا، على يد الجيش العربي وثوار حوران، وقرر قادة الجند المنسحبين الإنتقام من السكان العزل الآمنين من عشيرة الحريدي ومن سكان قرية طفس الفلاحين الطيبين.

أرتكب اللواء الثامن من الجيش العثماني الرابع المنسحب بإتجاه الشرق في 17. 09. 1918 مجزرة مروعة يندى لها جبين البشرية بحق سكان

طفس. لا لشيى، فقط إنتقاماً لبسالة وشجاعة قائد وفارس شهم من قادة الثورة العربية اسمه طلال الحريدي، وينتمي بالصدفة لهذه القرية الفلاحية الحورانية الوادعة.
سمع سكان المنطقة بأخبار المذبحة التي جرت فصولها في بلدة طفس، وسارع الجيش العربي لنجدة السكان في القرية المنكوبة. لكن عند وصول طلائع الجيش العربي والمقاتلين الحوارنة إلى وسط القرية كان يخيم عليها رائحة الموت والدماء والأشلاء المنثورة في الأزقة وعلى الجدران. وتنتشر الحرائق في بيوت الفقراء المساكين. وسيطر جو من الوجوم والذهول على من شاهد هول الجريمة، ممزوج بغضب وحنق إنتاب قادة ومقاتلي جيش الثورة العربية الذين وصلوا إلى عين المكان.

كان عدد الضحايا المدنيين من أطفال ونساء وشيوخ عجز في قرية طفس قد بلغ 83 ضحية، والجيش العثماني ـ الالماني القاتل قد خرج للتو من القرية، وتجمعت قواته بين قرية طفس وقرية داعل وإلى الشرق قليلاً في سهول بلدة داعل. ويذكر احمد الزعبي في كتابه عن نضال حوران، ان القوات التركية قامت بحملة انتقامية ضد الأهالي في بلدة طفس، "وكسروا عظام العجزة من كبار السن، وكانت الفضائح التي ارتكبها الأتراك لا تصدق، تأثر الثوار، الشيخ فواز البركات الزعبي وعودة أبو تايه ومحمد رجا المسالمة، لمقتل النساء والأطفال وكبار السن، وقرروا الانتقام من أفراد هذه القوة الهمجية، وكانت أكبر حافز لهم للأخذ بالثأر، وعدم ترك العدو يمر بدون عقاب".

وقد أقسم أبو تايـه، كما يذكر لورنس العرب في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، على اذلال مصطفى كمال باشا، القائد التركي الذي أمر جنوده بإرتكاب هذه الجريمة النكراء مقابل دموع نساء وأطفال الحوارنة. وقف الثائر الباسل طلال الحريدي على أشلاء أهله ونظر إلى القتلة في السهل

الممتد إلى الشرق من القرية المنكوبة، ولم ينتظر الراي والمشورة العسكرية، ولم يلتفت يميناً أو شمالاً، بل تقدم على ظهر فرسه لوحده منفرداً بكل هدوء وتصميم ثم إنطلق كالسهم مهاجماً جيش القتلة العثماني الغادر والمكلل بعار الخسة والجريمة.

سقط القائد الباسل طلال الحريدي، أحد قادة الثورة العربية الكبرى من أبناء حوران صريعاً قبل أن تصل أقدام فرسه صدور ووجوه الغزاة القتلة. لم يتكلم طلال كثيراً، بل لم يقل شيئاً عندما نهر فرسه وأوعز لها بالهجوم على الجيش الغازي الممتد في سهول حوران، أحمر اللون بلون الدم، بل نطق بكلمتين لا ثالث لهما، "طلال طلال" ، كما يذكر لورنس العرب في كتابة "أعمدة الحكمة السبعة"، وإنطلق كعادة الفرسان البواسل نحو العدو الغادر كالسهم الثاقب أو الشهب المضيئ في كبد السماء.

كانت مذبحة طفس هي غلطة العمر التي إرتكبها القادة العسكريون الأتراك، وكانت المحرك المباشر بالتسريع بسقوط السلطنة العثمانية وإنسكار جيشها في بلاد الشام إلى الابد. على أطراف قرية طفس إتخذ القادة الميدانيون للجيش العربي، الشيخ مصطفى الخليلي، وفواز بركات الزعبي، وعودة أبو تايه، ومحمد رجا المسالمة، قراراً تاريخياً حاسماً ، كان عنوانه هو "مهاجمة الجيش الرابع العثماني أين ما تواجدت وحداته، وكيفما إتفق". كان هذا القرار العسكري الذي إتخذ للتو بعد المذبحة وسقوط القائد النبيل الشجاع، طلال الحريدي، من أخطر القرارات العسكرية في تلك الفترة الزمنية الدقيقة والحساسة، وسيكون لهذا القرار الحاسم أثار عسكرية وسياسية كبيرة حاسمة على مجريات الأحداث في المنطقة وربما العالم، حيث ساهم مساهمة مباشرة بهزيمة الجيش التركي في بلاد الشام، وهزيمة السلطنة العثمانية بشكل عام.

ومن هناك، وعلى مشارف بلدة طفس الحورانية المنكوبة بعث بالرسل وطلب الفزعة من أهل حوران، نصرة لأهلهم في بلدة طفس المنكوبة. من جميع أجناب حوران تداعت الرسائل والفرسان تنادي بالفزعة والحض على الإنتقام من الجيش الذي إرتكب الفضائع بحق المدنيين الآمنين في قرية طفس المنكوبة.

كان الحوارنة بعد المؤتمر الذي عقد في حي القابون في بيت نسيب البكري في 7 أيار عام 1916 قد عدوا العدة وحشدوا رجالهم وسلاحهم في كل قرى حوران ليوم لا بد أنه قادم لا محالة.
كان جواب الحوارنة سريع لم يتخيله العثماني والألماني على الإطلاق، وهبت حوران كعادتها عن بكرة أبيها وكأنها كانت على موعد مع المجد. ولبى أهلها للنداء الذي بعث به قادة الثورة العربية القادم من أطراف بلدة طفس، "الفزعة الفزعة يا حوران" لتصفية حساب مع جيش القتلة والمجرمين العثماني. تقاطر الفرسان من كل حدب وصوب، وهبت كل قرية ومدينة تهاجم القوات العثمانية المنسحبة أوالمتمركزة في كل أرجاء حوران بما استطاعت، وبكل ما تيسر من قوة وسلاح.

إشتعلت حوران من أقصاها إلى أقصاها، ولم يطفئ نارها إلا النصر المبين. من غباغب وكناكر والصنمين، ومن دير البخت وجباب والجيزة وسحم الجولان وعابدين، من أنخل الأبية ونوى والشيخ مسكين، ومن داعل أم النشامى، و أربد والرمثا وقراها كانت شريكة في يوم النخوة والمروئة العربية المعهودة في أبناء حوران. من أطراف الزوية في الجولان تقاطر الفرسان وجاءت النجدات. أشتعلت لهيب نار متقدة قل نظيرها في التاريخ، وشوهد سعيرها في كل أجناب حوران والجولان في وجه الجيوش العثمانية المنتشرة هناك على هذه الأرض الطيبة، حيث أصبح الجيش الرابع العثماني وبقايا اللواء السابع والثامن العثماني

المنسحب من منطقة الجليل في فلسطين، واللذان كانا يمثلان العمود الفقري في قدرات السلطنة العثمانية العسكرية في بلاد الشام يسبحان في أمواج بحر متلاطم دون هدى ودون رواسي، وتحترق في نار سعير عم لهيبه أرض حوران قاطبة.

لقد شكلت غارات أبناء القرى الحورانية بكل ما تيسر من الأسلحة على العدو، والتي لم تتوقف خلال الأيام التي تلت مذبحة طفس، النهاية المحتومة للجيش العثماني وللقوات الالمانية في المنطقة. وكان الثوار يهاجمون كل شيئ له علاقة بالجيوش التركية والجيش الألماني الحليف. وهوجمت كذلك وحدات الدرك والشرطة العثمانية المنتشرة هناك. لقد أفلح الحوارنة بإنهاك الجيش التركي وتشتيت قواه وهزموه شر هزيمة. وقد أسر الثوار الحوارنة "تسعة آلاف جندي عثماني، وغنموا تسعة آلاف بندقية وثمانية مدافع وأربعة وخمسين رشاشاً"[4]. إسبوعين من القتال الشرس خاضها رجال وأشبال حوران مع الجيوش العثمانية والألمانية، من يوم مذبحة طفس في 17. 09. 1918 حتى 31. 09. 1918 يوم دخول دخول الجيش العربي دمشق العاصمة كانت كافية لتدمير الجيوش العثمانية والألمانية في بلاد الشام على أرض حوران.

وقد تفرغ الجيش العربي النظامي لجمع قواه من جديد والإستعداد للتوجه إلى دمشق بأقصى سرعة، ليكون شرف فتح وتحرير دمشق، عاصمة الأمويين على يد رجال الجيش العربي، وليس على يد الإنجليز، أو أي جيش آخر.

[4] محمد كرد علي ، خطط الشام، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، صفحة 152 ، مكتبة النور، دمشق 1983 .

لقد أدهشت ملحمة الثورة الشاملة الحورانية هذه بسعيرها مشاعر أحد الشعراء العرب من أبناء الجزيرة العربية في جيش الامير فيصل، جيش الثورة العربية. فقد شاهد هذا الجندي الشاعر وعايش ملحمة كفاح أهل حوران في تلك الأيام المجيدة من تاريخ العرب، وأدهشته تلك الهبات والفزعات الحورانية العارمة والشجاعة، وتعجب لبسالة أبناء هذه المنطقة من أرض الله الواسعة، وأحيت في نفسه نشيداً عذباً عزيزاً. وقد عبر عن مشاعره وما شاهده في حوران بقصيدة شعرية منها هذين البيتين:

حوران يوم الهوش ما تنداس
كلهم نشامى مجندة بالرصاص
رجالها حرار ومرهفي النوماس
بيوم الوغى ليوث رافعين الراس

بعد فزعة وثورة الحوارنة بوجه الجيوش العثمانية توقفت جميع خطط الجيش العثماني الرابع وارتبكت، ولم يعد أي أثر أو قدرة على بناء خطوط دفاعات جديدة، ولم يعد بالإمكان بعد هذا الذي يجري المحافظة على أي منطقة في تلك البلاد التي أصبح أغلب الجيش العثماني المتواجد بها يواجه هجمات صاعقة مستمرة ويومية ومتكررة، وتأتيه من كل جانب. لقد وقع المحذور، وتورط الجيش العثماني بحرب إستنزاف شعبية في سهل حوران، صمم أهله على النصر مهما كلف الثمن. لقد دمر الحوارنة الجيش الرابع العثمانيين، ودمرت معه الكتائب العسكرية الألمانية المرافقة له. لم يتبقى من هذه الجيوش والكتائب إلا أشلاء جيوش

مهزومة ومشتتة هائمة على وجوهها في سهل فسيح، إتخذ أهله قرارهم الإنتقام من المحتل والثأر لشهدائهم وجرحاهم.

كان هذا القرار الحاسم هو الأخطر في مسيرة الثورة العربية الكبرى. تحرك جيش الثورة العربية مسرعاً متجها إلى دمشق، وفي الطريق إلى هناك لم يواجه الجيش العربي أي قوة عثمانية ـ ألمانية حقيقية تذكر، لأن هذه الجيوش الأجنبية قد إنهكت وتمزقت وتم سحقها على يد ثوار حوران على بطاح سهول ووديان حوران، وتشتت هذه الجيوش ولم تعد تجمعها أي قيادة مشتركة، ولا خطوط تواصل أو إمداد، وتعاني من التمزق والإجهاد. إلا محاولة أخيرة يائسة قامت بها بعض القوات التركية ـ الألمانية المنسحبة بالقرب من بلدة الكسوة على مشارف دمشق، وتم مهاجمتها من قبل جيش الثورة العربية المتقدم باتجاه دمشق والتغلب عليها وسحقها بسرعة كبيرة.

لقد غضبت درعا وإنتصرت بها حوران، وقد غضبت حوران وإنتصرت بها سوريا والعرب. كانت سرعة التطورات العسكرية في هذه المرة أيضاً مفاجئة ولم يتوقعها لا العدو ولا الصديق. وكما كان الجيش الشعبي في درعا سنداً وعوناً للجيش العربي النظامي والعامل الحاسم في معركة تحرير درعا الحصينة بقيادة الأمير ناصر بن علي، كان الجيش الشعبي الحوراني أيضاً القوة الحاسمة في سير المعارك العسكرية والسياسية الدائرة بين الأطراف المتصارعة في بلاد الشام.

يقول "إدوار ميدايدل " في كتابه " صانعو الاستراتيجية الحديثة " ويشيد بالدور العظيم الذي قامت به حملة الأزرق، والتي تكونت من الجنود العرب المنشقين عن الجيش العثماني وقوات الفلاحين الحوارنة والبدو، وكانت مهمتهم خطيرة وصعبة مؤادها أن تقوم هذه القوات بحملة سريعة

الحركة وبهجوم خاطف من الخلف على درعا ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن بقصد قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبل قيام "اللبني" بالهجوم، ويعترف أنه لولا نجاح هذه الحملة لما نجح هجوم اللنبي". من كتاب تاريخ عشائر السردية، للكاتب: شلاش عمير عيد الدبيس السردية.

على أثر هذه التطورات المتسارعة والمفاجئة في جبهات القتال على أرض حوران إتخذت القيادة العسكرية والسياسية للثورة العربية الكبرى قرارها التاريخي الثاني الصائب، وهو الإسراع في دخول دمشق قبل أن تدخلها القوات الإنجليزية، وترك أشلاء الجيوش العثمانية والجيش الألمانية المتقهقرة للمقاتلين والثوار الحوارنة يتدبرون أمرهم. فقد كان معروف في الكواليس السياسية والعسكرية أن الإنجليز يبذلون كل الجهود لدخول دمشق قبل جيش الثورة العربية لحرمان العرب من أي ميزة عسكرية وسياسية في المرحلة التي ستأتي بعد النصر، ويتقرر على أساسها مصير المنطقة، وترتيب مستقبلها بعد إنتهاء الحرب العالمية الجارية.

وكان قد تسرب من موسكو خبر عقد إتفاقية مشؤومة سرية بين الإنجليز والفرنسيين لتقسيم المناطق العربية المحررة. عرفت هذه الصفقة ـ المؤامرة بإتفاقية سايكس ـ بيكو، التي فضحها قادة البلاشفة الروس، لينين وترتسكي، وكتبتها صحيفة البرافدا الروسية قبل ثلاثة أشهر من تحرير دمشق والبلاد السورية. وقد أصر الأمير فيصل على الإسراع في دخول دمشق لتأكده من قدرة ثوار حوران من سحق الجيش العثماني ولتحقيق هدف سياسي من خلال تحرير دمشق من خلال قوات الثورة العربية، وتفويت الفرصة على الإنجليز والفرنسيين بحمل شرف تحرير دمشق وإستعمالها كورقة ضاغطة على الجانب العربي في الأيام القادمة.

إنتصار الثورة العربية
وتحرير دمشق

في 26. 09. 1918 إنسحب الحاكم العسكري التركي جمال باشا السفاح من دمشق وترك بلاد الشام إلى غير رجعة عندما أيقن أن قواته قد أبيدت في سهل حوران. وفي اليوم التالي أي في 27. 09. 1918 شكلت الحركة الوطنية في دمشق حكومة وطنية قبل وصول الجيش العربي الفاتح بعد أن وصلت إلى أسماعهم أخبار المعارك في سهل حوران، وتشتت وتمزيق الجيش العثماني الرابع، وأقواها على الأطلاق في سهول حوران، وهروب الحاكم العسكري التركي، جمال باشا السفاح، من دمشق.
وقد تشكلت حكومة عربية برئاسة الأمير سعيد الجزائري، شكلّها وجهاء المدينة وأعيانها لضبط الأمن ريثما تصل القوات العربية القادمة من حوران، والتي أصبحت في ضواحي دمشق من الجهة الجنوبية. دامت حكومة الجزائري ثلاثة أيام ومن ثم دخل الجيش العربي الفاتح دمشق الفيحاء منتصراً.

دخل الجيش العربي بقيادة ناصر بن علي، والنوري الشعلان، وعودة أبو تايه، والشيخ مصطفى الخليلي، ومحمد رجا المسالمة، وفواز بركات الزعبي دمشق في صباح يوم 31. 09. 1918، ودخل الأمير فيصل إبن الحسين، القائد العام للثورة العربية في 01. 10. 1918 مدينة دمشق، عاصمة بني أمية، والهدف المنشود للثورة دون أي قتال. وفي صباح يوم 03. 10. 1918 دخلت القوات الإنجليزية والأسترالية الحليفة بقيادة

الجنرال اللنبي مدينة دمشق المحررة. وبعد عدة أيام من تحرير دمشق كانت كامل بلاد الشام قد أخليت من القوات العثمانية، وسقطت أغلب المناطق السورية بدون قتال، أو أي معارك عسكرية تذكر. لقد حسم أشبال حوران المعركة مع الجيوش العثمانية على أرضهم من بلاد الشام. لقد أعفى الحورانة الشعب السوري وأبناء بلاد الشام شر القتال، وقاموا هم بالواجب الكفاحي، إلى جانب جيش الثورة العربية الكبرى. وأنجز الحوارنة المهمة على أكمل وجه، وتم على أيديهم تمزيق الجيش العثماني، وهرب جمال باشا السفاح من الشام إلى غير رجعة. لقد وضع الحوارنة على بطاح ووديان حوران حداً لأسطورة الجيش العثماني الذي لا يقهر، وكانت نهاية هذا الجيش هناك. هذا الجيش الذي أرهب ملايين العرب وغير العرب لأكثر من أربعمائة عاماً ونيف، وأستبد وعاث في بلادهم فساداً ونهباً وخراباً طوال تلك القرون.

أما البريطانيون والفرنسيون الشركاء في الحرب ضد العثمانيين والألمان فقد جن جنونهم عندما علموا أن الجيش العربي والأمير فيصل دخل مدينة دمشق فاتحاً قبل دخول الجيش البريطاني، وبادر في تشكيل حكومة عربية في المدينة بشكل مفاجئ، وغير متوقع. تلك المدينة العربية العريقة الخالدة، دمشق، وهم يعرفون تمام المعرفة بأن الجيش الرابع العثماني واللواء الألماني المكلف بالدفاع عن دمشق وعن بلاد الشام لا زالت متواجدة وحداته العسكرية في سهول حوران. ولم يستوعب الجنرال اللنبي الإنجليزي المعروف حقيقة الموقف العسكري المستجد، وقد تفجر غضباً عندما سمع بوصول فيصل وقواته ودخولهم دمشق. كانت هذه التطورات العسكرية المتسارعة على جبهة بلاد الشام بمثابة صفعة عسكرية وسياسية قد وجهت لكبريائه ولكبرياء بريطانيا الأستعمارية. وخاصة وهي تأتي بعد 13 يوماً فقط من معركة تحرير مدينة درعا الاستراتيجية، وحادث الإشتباك المسلح مع المقاتلين الحوارنة حول رفع

العلم العربي على مبنى السراي في مدينة درعا، وتشكيل الحكومة المحلية في المدينة هناك.

وقعت القيادة البريطانية السياسية والعسكرية في حالة إرباك وتوتر كبيرين. والحال كذلك كان عند الطرف الآخر الإستعماري الحليف الفرنسي، من أصحاب وأطراف مؤامرة وإتفاقية سايكس ـ بيكو السرية، حيث تعهد الإنجليز للفرنسيين بتسليمهم دمشق والشام ولبنان في حال دخولهم إليها بعد طرد العثمانيين منها، وعدم السماح لجيش فيصل وجيش الثورة العربية نيل شرف تحريرها. وعندما علم الإنجليز والفرنسيين أن الحوارنة قد غنموا قرابة تسعة آلاف بندقية من الجيش العثماني المنهزم زادتهم هذه الأخبار حنقاً وعدوانية على العرب وعلى الحوارنة، ولم تزيلها أو تضعفها الايام والسنين.

الأمير فيصل
الحاكم العام لسوريا المحررة

حكم فيصل البلاد السورية منذ دخوله دمشق وشكل حكومة وطنية تدير البلاد. بعد يوم من دخول دمشق عقد إجتماع موسع بين قادة الثورة العربية الكبرى، العسكرية والسياسية، وقد إختير الأمير فيصل الحاكم العام لبلاد الشام المحررة. وحددت دمشق عاصمة الدولة العربية الحديثة.
وقد كلف الأمير فيصل الحاكم العام للبلاد السورية علي رضا الركابي، الشخصية الوطنية الدمشقية بتشكيل أول حكومة عربية في دمشق لإدارة شؤون البلاد والعباد.
شكل علي رضا الركابي في بداية شهر تشرين الأول عام 1918الحكومة العربية الأولى في البلاد العربية المحررة للتو، وأدار البلاد بصفة حاكم عسكري مؤقتاً للبلاد السورية، وكان الأمير فيصل بن الحسين يحكم البلاد كأميراً وحاكماً عاماً في الدولة الجديدة، ولم تك له صفة الملكية بعد.

استمر هذا الشكل من الحكم في البلاد السورية لمدة عام ونصف العام، حتى يوم 08. آذار سنة 1920م. في هذا اليوم نودي بالأمير فيصل قائد جيش الثورة العربية ملكاً على سورية، من قبل المؤتمر السوري العام، الذي عقد في النادي العربي في مدينة دمشق العاصمة. وأصبحت سوريا في ذاك اليوم تعرف بالمملكة العربية السورية.
وقد حدد شكل الحكم بالنظام الديمقراطي المدني الدستوري البرلماني. وتحفظ فيه حقوق الأقليات ويتساوى فيه الناس في الحقوق والواجبات،

وتكفل فية حرية تشكيل الأحزاب وحرية الصحافة. وتم إقرار اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد.

لم تدم هذه المملكية الدستورية السورية العربية طويلاً، فعمر هذه الدولة العربية الوليدة لم يتجاوز الخمسة أشهر. ففي أول شهر تموز من نفس العام 1920 دخلت القوات الفرنسية الأرض السورية بعد معركة ميسلون، تنفيذا لبنود إتفاقية سرية كانت قد عقدت بين الإنجليز والفرنسيين عام 1916، عرفت تلك باتفاقية سايكس ـ بيكو، وقد غلفت هذه الإتفاقية الإستعمارية بغلاف وغطاء دولي، نصت عليه إتفاقيات في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس عام 1918 . وقد تم في هذا المؤتمر التصديق على نقاط إتفاقية سياكس ـ بيكو ، ومن ثم تمت المصادقة على مشروع الانتداب الفرنسي والانجليزي لبلاد العرب في إجتماعات عصبة الأمم المتحدة في بداية عام 1920. لقد عرف هذا بمبدأ حق الانتداب الفرنسي البريطاني على البلاد العربية التي تحررت وخرجت عن سيطرة السلطنة العثمانية، لمساعدة الشعوب والدول الحديثة التشكل في ممارسة الحكم وإدارة الدولة.

كانت مؤامرة إستعمارية غربية قد تمت صياغتها بين أطراف إستعمارية غربية شاركت في الحرب الكونية الاولى، وكان ضحيتها العرب وشعوب أخرى في دول العالم الثالث الفقيرة.
بعد دخول القوات الفرنسية دمشق تم إقصاء الملك فيصل، والطلب منه بمغادرة سوريا إلى أوروبا. وبمغادرة فيصل دمشق انتهت السلطة العربية في سوريا بعد أن دامت قرابة عامين، وإنتهت الملكية الدستورية في سوريا بعد عدة أشهر من تكريسها، ووقعت البلد السورية تحت سلطة قوات الإنتداب الفرنسي والسيطرة الفرنسية المباشرة.

حـوران في ظـل
حكـومة فيصل العربيـة

كان الأمير فيصل، الذي أصبح ملك البلاد السورية بعد إنهزام القوات العثمانية وتحرير بلاد الشام، يكن إحتراماً شديداً لأهل حوران. وكان عدد كبير من قادة جيشه ومستشاريه السياسيين المقربين هم من أبناء حوران. والعلاقة بين فيصل ووالده الشريف حسين مع بعض الشخصيات السياسية والإجتماعية من أبناء حوران ليست جديدة، وهي تعود لسنوات عدة مضت وسبقت حتى إنطلاق الثورة العربية الكبرى. وقد حصلت زيارات شخيصة ولقاءات سياسية بين الشريف حسين وأبنائه من جهة وبين رموز وقيادات الرأي في حوران في مرحلة التحضير للثورة العربية الكبرى من جهة أخرى.

أولى هذه اللقاءات حصلت في عام 1912 في مكة المكرمة. في هذه اللقاءات التي ضمت عدد من زعماء حوران، منهم إسماعيل الحريري، وفواز بركات الزعبي، ومصطفى المقداد، وطلال الحريدي، ومحمد رجا المسالمة، وفاضل المحاميد، وصالح قناة، وغيرهم من قيادات الرأي في هذا السهل الطيب الفسيح. من مواضيع البحث بين المجتمعين دار الحديث حول سياسة السلطنة العثمانية وتضييقها على سكان سهل حوران. وقد كان الرأي أن السلطات العثمانية قد بالغت كثيراً في تلك الأثناء من تشديد قبضتها على سكان السهل الخصيب، وأقدمت على مصادرة أغلب المحاصيل الزراعية من الفلاحين التي يحتاجونها لسد رمق أطفالهم، بحجة دعم المجهود الحربي العثماني، ودعم الجيوش العثمانية التي كانت

تحارب في هذا العام على جبهة طرابلس الغرب، لصد الهجوم الطلياني على ليبيا، وكذلك التي تحارب أيضاً على جبهة البلقان.
لقد نعمت حوران في عهد القيادة الفيصلية و الحكومة الوطنية، وفي عهد تولي فيصل زمام الأمور في الدولة السورية حديثة الإستقلال، بالإستقرار والسلم والهدوء. وقد عمل الحوارنة بكل إخلاص على دعم إستقرار البلاد السورية، وعلى دعم حكومة فيصل، وقدموا له ولحكومة الثورة كل الدعم والمساندة المادية والسياسية والعسكرية. كان الإعتقاد السائد عند أهل حوران وعند قادتهم بأن هذه الحكومة الوطنية هي حكومتهم، وتعبر عن طموحاتهم وطموح أجيالهم المتلاحقة في الحرية والإستقلال عن سلطة الأجنبي.

بكل تأكيد كان فايز زعل الغصين، والشيخ مصطفى الخليلي، وفاضل المحاميد، وفواز بركات الزعبي، من أكثر الشخصيات الحورانية قرباً من الملك فيصل. فقد كانت تلك الشخصيات أعضاء في المنظمة العربية السياسية والعسكرية، منظمة "العربية الفتاة" التي تشكلت مع بداية عام 1912 في البلدان العربية من أجل نيل العرب إستقلالهم وبناء دولتهم المنشودة. ففايز زعل الغصين كان مستشار فيصل السياسي منذ أكثر من 8 أعوام سلفت، وصديق شخصي له.
والشيخ مصطفى الخليلي، كان القائد العسكري الفذ الحوراني المعروف والمحبوب شعبيا في تلك المنطقة، والذي باشر في مقارعة المستعمر العثماني من زمن مبكر، وقاد مجموعات الفدائيين الحوارنة قبل عقد من الزمان على إنطلاق الثورة العربية الكبرى في عام 1916. وكان مصطفى الخليلي، العالم الديني والمدرس في مدرسة الطائي في درعا، وكانت أول مدرسة تفتتح في الجنوب السوري في عام 1910، أحد الرموز في المنطقة الذي ألهبت عملياته العسكرية ضد العثمانيين مشاعر الفلاحين الحوارنة، والتي خلقت بين أوساط الفلاحين في حوران أجواء

مناسبة لتقبل فكرة الثورة العربية، وإحتضان الجيوش العربية الفاتحة، وتقبل التكلفة البشرية والمادية الباهضة لتلك المهمة التاريخية المقدسة.

وكانت تربط كلاً من فواز الزعبي وإسماعيل الحريري علاقات خاصة بالملك فيصل. فالزعبي كان من الشخصيات السياسية الحورانية التي عملت على التمهيد لخلق جبهة عربية مساندة للثورة العربية مكونة من أبناء سهل حوران، وأبناء جبل حوران، الموحدين الدروز، ومن القبائل العربية البدوية في منطقة شرق وجنوب حوران ومنطقة الصفا.

واسماعيل الحريري أحد ممثلي المبعوثين، أي البرلمان العثماني، عن حوران، وكان يجمعه مع الأمير فيصل هدف وطني سامي للحصول على إستقلال العرب عن الحكم العثماني، وكان يجمعهم العمل المشترك في حشد السياسيين العرب لهذه المهمة في قلب الأستانا في أسطمبول.

كان الحوارنة بشكل عام لهم مكانة خاصة في نفس فيصل وفي نفوس أركان حكمه، وكان للحوارنة حضوتهم ومكانتهم المرموقة في دوائر الحكم في دمشق. ودمشق بالنسبة لأهل حوران هي الإمتداد الجغرافي الطبيعي لهذا السهل الطيب الفسيح المعروف بسهل حوران، والإمتداد البشري الطبيعي لسكان هذا السهل.
كثير من سكان دمشق تعود أصولهم العائلية والعشائرية إلى قرى وبلدات سهل حوران. فحي الميدان الدمشقي وحي القدم على سبيل المثال تكاد نسبه العائلات التي تقطن هذين الحيين ذات الأصول الحورانية تتجاوز ال 80% من مجموع عدد سكانهما. وحي الميدان خاصة نشأ من خلال المزارعين والتجار الحوارنية الذين كانوا يجلبون محاصيلهم الزراعية لبيعها في دمشق. كان ميدان الخيل الواقع في جنوب دمشق ملتقى التجار الدمشقين والحوارنة وسوق مفتوح للحبوب وبقية المواد الزراعية القادمة

من حوران. مع مرور الزمن تطور المكان وسكنته عائلات فلاحية وتجارية قادمة من الجنوب السوري، وأصبح يعرف في ما بعد بحي الميدان.

فدمشق وسكانها ليست غريبة عن أهل درعا وعن أهل حوران، وقبل مئة عام من الآن كانت أغلب العائلات الدمشقية ترتبط بعلاقة قرابة أو مصاهرة أو تجارة مع عائلات في حوران.

فالحكم والسياسة في دمشق العاصمة لم تكن بعيدة عن أهل حوران باي شكل من الأشكال. وعندما جاء الحكم العربي إلى دمشق، وتسلمت شخصيات الثورة العربية مسؤوليات رسمية في هرم السلطة كانت حوران وأهل حوران وزعامات حوران السياسية في قلب الحدث وذات نفوذ في صناعة القرار هناك.

وقوع سوريا
تحت الإنتداب الفرنسي

أقدم الفرنسيون على إحتلال الساحل السوري ـ اللبناني في الفترة الواقعة بين 10. 06. 1918 حتى 24. 10. 1918. وإنتظر الفرنسيون عامين حتى تشكلت عصبة الأمم وحصلوا منها على تفويض وصك إنتداب على بقية الأراضي السورية. كانت مؤامرة دولية بإمتياز، وضعت قواعدها إتفاقية سايكس ـ بيكو في عام 1916. وفي منتصف عام 1920 قرر الفرنسيون دخول دمشق وإحتلال بقية الأراضي السورية، وطرد الملك فيصل وحل حكومته. وقد وجه الجنرال الفرنسي هنري غورو من بيروت التي كان يرابط بها في 14 تموز عام 1920 تهديداً للملك فيصل، وطلب منه حل الحكومة السورية، والخروج من دمشق، ومغادرة الاراضي السورية إلى أي بلد آخر.

بعد إنذار الجنرال هنري غورو للملك فيصل، وطلب منه حل الجيش العربي السوري ومغادرة البلاد، تردد فيصل في بادئ الأمر في تنفيذ طلبات غورو، والإنصياع لأوامره، لكنه عاد وإستجاب لهذه الطلبات، وأصدر أمراً بحل الجيش السوري نزولاً عند طلب غورو. وتقدم الجنرال الفرنسي غورو بقواته قادماً من البقاع اللبناني متوجهاً إلى دمشق عاصمة المملكة العربية السورية.

على الرغم من أن الجيش السوري كان قد حل قبل عدة أيام بقرار من الملك فيصل، وبطلب من غورو، قرر وزير الدفاع السوري يوسف العظمة إعادة تجميع ما يمكن تجميعه من جنود وضباط الجيش المنحل، ومن بعض المتطوعين العرب، والخروج بهم لمواجهة الجيش الفرنسي الغازي. كان في جيش يوسف العظمة المئات من الضباط والجنود الحوارنة المتطوعين ممن كانوا في الجيش السوري قبل حله، ومن الجنود الذين حاربو في صفوف جيش الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل قبل عامين من ذاك التاريخ.

إلتقى جيش يوسف العظمة متواضع العدد والعدة بالجيش الفرنسي على أبواب دمشق، في منطقة غرب دمشق تدعى ميسلون. ونشبت الحرب هناك بين جيشين غير متكافئين على أكثر من مستوى. كان تحت إمرة يوسف العظمة قرابة أربعة آلاف مقاتل، مسلحين بعتاد بسيط،، وكان الجنرال غورو يقود جيش فرنسي إستعماري متمرس في فنون الحرب ويملك المدافع والدبابات والطائرات أيضاً.

النتيجة العسكرية لهذه المعركة العسكرية كانت معروفة ومحسومة النتائج قبل بدء المعركةً. حتى أن يوسف العظمة، قائد القوات العربية ووزير الدفاع السوري في حكومة فيصل المنحلة، كان متاكداً من النتيجة هذه. وعندما سؤل لماذا إذاً يقدم على خوض معركة عسكرية وهو يعرف مسبقاً أنها معركة خاسرة. كان رد يوسف العظمة بسيط وبليغ في نفس الوقت: "حتى لا تقول الأجيال القادمة أن غازياً دخل دمشق دون قتال". استشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون في 24. 07. 1920 ولا زالت الأجيال العربية والسورية بعد قرن من الزمان تذكر أننا لم نسلم أرضنا لغازي دون قتال.

بعد دخول دمشق توجه الجنرال الفرنسي غورو المعبأ باحقاده التاريخية على السوريين وعلى العرب، إلى المسجد الأموي الكبير الواقع في وسط دمشق. وهناك بحث هنري غورو عن قبر القائد التاريخي صلاح الدين الأيوبي، الراقد في أحد جوانب الجامع الاموي الكبير، وقال قولته الشهيرة أمام ضريح صلاح الدين: "ها قد عدنا يا صلاح الدين". الجنرال الفرنسي غورو أراد من هذا التصريح اللئيم الرد على القائد المسلم صلاح الدين الايوبي عندما قال في خطبته العصماء الشهيرة بعد إنتهاء غبار المعركة وتحقيق النصر الحاسم على قوات الفرنجة في معركة حطين عام 1187 حيث قال صلاح الدين: " بعد هذا اليوم لن تطأ أقدام الفرنجة بلاد الشرق".

من المؤكد أن في صيرورة أحداث الزمن سلسلة من المحطات تبقى حاضرة ولا تضعف من استمرارية تأثيرها النفسي والسياسي مع تقادم الأيام. ومن هذه الزاوية لابد من تسليط الضوء على جزء من كفاح أهل حوران لما له من أهمية تعزز من ثقة الأجيال القادمة بمستقبل الوطن والوطنية السورية.

الثورات السورية
في الساحل السوري المحتل

من المعروف أن القوات الفرنسية قد أقدمت على إحتلال الساحل السوري قبل دخول دمشق بعامين. وقد وقع لواء اسكندرون ومنطقة اللاذقية ووطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وصور بقبضة القوات الفرنسية في عام 1918. وإلى الجنوب من مدينة صور وقع الساحل السوري الجنوبي في نفس العام، أي فلسطين، تحت قبضة القوات البريطانية. ومنذ أن احتلت فرنسا الساحل السوري شهدت العديد من المناطق السورية المحتلة إنتفاضات مسلحة ضد المستعمر الفرنسي والمستعمر البريطاني ومطالبة في نفس الوقت بإنهاء الوضع الشاذ والإنضمام إلى الدولة السورية وإلى الحكم الفيصلي في دمشق.

وكذلك في شرق سوريا، في الجزيرة السورية فقد قاد رمضان شلاش ثورة مسلحة ضد القوات البريطانية التي إحتلت دير الزور والمنطقة الشرقية في عام 1919. وأجبر رمضان شلاش، الذي شكّل جيشاً من العشائر العربية، من الرقة ودير الزور والحسكة، القوات البريطانية على إخلاء المنطقة والتراجع والعودة إلى منطقة الانبار والموصل في العراق التي أتوا منها. وقد اصبح رمضان شلاش وأبناء القبائل هم القوة الحقيقية المسيطرة على مناطقهم، ومدنهم وقراهم. وقد عين الملك فيصل رمضان شلاش عام 1919 حاكماً لمنطقة الجزيرة السورية، التي كانت تعرف بلواء دير الزور.

وقد إنطلقت انطلقت في لواء اسكندرون بقيادة صبحي بركات ثورة مسلحة ضد قوات الانتداب الفرنسي، واستمرت هذه الثورة حتى نهاية شهر آب عام 1920. كما قامت ثورة مشابهة في تلكلخ عام 1919 إحتجاجًا على رفع العلم الفرنسي في المدينة، وقد اضطر الثوار للنزوح إلى دمشق بعد إشتداد الضغط العسكري الفرنسي على الثوار وعلى عائلاتهم. كما قام الأمير محمود الفاعور بقيادة عمليات ضد الاحتلال الفرنسي في شهر تشرين الأول من عام 1918 وكذلك إنتفاضة أهل الجولان ضد الفرنسيين في عام 1919 ومشاركة أبناء حوران بقيادة فواز بركات الزعبي في هذه الإنتفاضة.

وقد بدأت بعد عام من دخول القوات الفرنسية الساحل السوري، أي في شهر أيار من عام 1919 ثورة صالح العلي في منطقة طرطوس. وأستمرت هذه الثورة حتى عام 1922. وقد كانت ثورة صالح العلي مدعومة ومؤيدة من قبل إبراهيم هنانو في جبل الزاوية، ومصطفى كمال أتاتورك في هضبة الأناضول، ومن الملك فيصل ملك سوريا .

وكانت في شهر كانون الأول عام 1919 إنتفاضة قضاء البقاع وراشيا وبعلبك وحاصبيا رداً على إقدام القوات الفرنسية على إحتلال تلك المناطق. وفي نفس العام، وفي 10. 04. 1919 كانت قبل ذلك ثورة إبراهيم هنانو في منطقة إدلب وجبل الزاوية قد تفجرت في وجه المحتل الفرنسي في تلك المنطقة من البلاد السورية، وقد دامت واستمرت هذه الثورة أيضاً حتى عام 1922 .

لقد كان من نواقص ونقاط ضعف الثورات السورية هو :

- شيوع صفة المحلية والمناطقية في عملها وحدود إنتشارها، وغاب عنها إلى حد كبير عنصر التنسيق بين أطرافها المختلفة.

- ومن نقاط ضعف هذه الحركات الثورية السورية كان قلة وضعف التسليح.
- وكان جانب أساسي من نقاط ضعف هذه الثورات أيضاً هو تدخل العامل الطائفي في تشكيلات هذه الحركات الثورية المناهضة للمستعمر، وضعف، بل غياب العامل الوطني السوري أو العربي الصريح في مجال الحشد والتعبئة الشعبية.

فثورة الشيخ صالح العلي في الساحل السوري على سبيل المثال إنطلقت وتعززت على خلفية صراع كان قائم بين العلويين من جهة والإسماعيلين من جهة أخرى، في مناطق التماس فيما بينهما على أطراف الجبل والسهل إلى الغرب من مدينة حمص. وقد إتخذت الحكومة البريطانية في هذا الصراع المحتدم بين الطرفين منذ عام 1850 بين الطوائف السورية جانب الطائفة العلوية والطائفة الدرزية، في حين تبنت الحكومات الفرنسية المتعاقبة في هذا الصراع جانب الطائفة الإسماعيلية والجانب المسيحي الماروني في الساحل السوري.

وعندما إحتلت القوات الفرنسية منطقة الساحل عام 1918 شعرت الأقلية العلوية في جبال الساحل أن كفة الطائفة الإسماعيلية سترجح في هذا الصراع المزمن، نظراً للعلاقة الطويلة بين الفرنسيين والإسماعيليين، مما شجع العلويين على معاداة وجود القوات الفرنسية في مناطقهم، وساهم مساهمة كبيرة في التوجه إلى حمل السلاح ضد الفرنسيين بقيادة الشيخ صالح العلي، مدفوعاً، وبتحريض صريح من قبل الإنجليز الذين دخلو في تنافس مفتوح على النفوذ في الشرق مع الفرنسيين منذ زمنٍ طويل، وخاصة بعد إنتهاء الحرب العالمية الاولى.

سيتكرر هذا المشهد في الجنوب السوري مع ثورة الدروز في جبل حوران ضد القوات الفرنسية، وقد قبل زعماء الدروز بدخول قوات الإنتداب الفرنسي في مناطق الجبل وإحتلاله دون قتال. لكن بعد سلسلة إستفزازات أقدمت عليها قوات الإحتلال الفرنسية لسكان الجبل، وخاصة إعتقال أحد المجاهدين السوريين ممن شارك في معركة القنيطرة ومحاولة قتل الجنرال غورو، ويدعى "أدهم خنجر" كان بضيافة سلطان باشا الأطرش في بلدة "القرية"، تفجرت الصدامات بين مقاتلي الجبل والقوات الفرنسية. وقد إتخذت السلطات البريطانية المتواجدة في شرق الأردن بالقرب من الحدود السورية وبالقرب من محافظة السويداء موقفاً إيجابياً مع الثوار الدروز لاحقاً، وعملت على تطوير هذه المواجهات ومساعدة المقاتلين الدروز بالسلاح والمشورة والحماية.

كفاح اهل حوران المسلح
ضد المحتل الفرنسي

دخلت القوات الفرنسية مدينة دمشق في 25 تموز 1920 في اليوم التالي لإنتهاء معركة ميسلون، وغادرها الملك فيصل في نفس اليوم متوجهاً إلى درعا ثم حيفا في أوائل شهر آب بعد دخول غورو دمشق وبسط سيطرته عليها. وشكل الملك فيصل قبل مغادرته دمشق حكومة بقيادة علاء الدروبي، وذلك بعد أن إستشار بذلك الجنرال هنري غورو وأبدى رضاه عنها. وقد بدأ غورو بشكل مباشر في بسط سيطرته العسكرية على كامل الأرض السورية من الساحل إلى البادية ومن الشمال إلى الجنوب. لقد تم للجنرال غورو، الحاكم العسكري الفرنسي على سوريا في بسط سيطرته ونفوذه على أغلب الأرض السورية. لكن حوران بقيت خارج السيطرة الفرنسية على الرغم من ملاصقتها جغرافياً للعاصمة دمشق.

كانت حوران لا زالت تعيش حالة التحرر من قيد المستعمر الأجنبي العثماني، ولازالت روح التحدي تسري في عروق أبنائها. في هذه الأثناء وفي هذه الأجواء بعث غوروا إلى حوران بقوات عسكرية لتركيعها. قوات غورة الغازية اصتدمت ف في الساعات الأولى للهجمة العسكرية على حوران بمقاومة شرسة من قبل الحوارنة. فكانت أول معركة عسكرية حقيقية يخوضها السوريون مع قوات الإنتداب الفرنسية بعد معركة ميسلون الشهيرة.

لقد بدأت مرحلة جديدة من الكفاح المسلح في حوران ضد مستعمر وغازي فرنسي ومتغطرس جديد إمتدت ثمانية أعوام (8 أعوام) متواصلة، بدأت من يوم دخول قوات غورو دمشق في شهر تموز عام 1920 وإستمرت حتى نهاية عام 1928 مروراً بالثورة السورية الكبرى عام 1925 والتي إنطلقت هي أيضاً وتم الإعداد لها في حوران وعبر رجالات حوران أيضاً.

قبل بدء المعارك والصدامات بين ثوار حوران والجيش الفرنسي كان مجلس حربي مؤلف من رؤساء عشائر حوران قد عقد في اليوم التالي لدخول الجنرال غورو دمشق وإستشهاد وزير الدفاع السوري يوسف العظمة في معركة ميسلون، وذلك في قرية الشيخ مسكين في يوم 26 تموز من عام 1920. كان زعيم هذا المجلس العسكري شيخ مشايخ حوران إسماعيل الحريري، من قرية الشيخ مسكين. الملفت للإنتباه أن هذا المجلس الحربي قد تم تشكيله منذ اليوم الأول لخروج الملك فيصل من سوريا ووصول القوات الفرنسية الغازية إلى مدينة دمشق بعد معركة ميسلون الشهيرة.

في حين أن البلاد السورية خبت وهمدت فيها جذوة المقاومة بعد خسارة معركة ميسلون وسقوط دمشق كان زعماء حوران وأهل حوران قد ساروا في إتجاه المقاومة والمواجهة العسكرية للغازي الأجنبي. وإنسجاماً مع هذا الموقف حاول زعماء حوران إقناع الملك فيصل عندما وصل إلى درعا وأقام فيها ليلة واحدة، وحل فيها ضيفاً عزيزاً على عبد الرحمن المحاميد، أحد الشخصيات الوطنية المعروفة في المدينة، على العدول عن خروجه من سوريا والبقاء في درعا، وقد تعهد له أهل حوران بحمايته ونصرته عسكرياً في مواجهة المستعمر الفرنسي، والعمل على حشد

القوى العسكرية في حوران من أجل إعادته إلى قيادة الدولة السورية وطرد الغزاة الفرنسيين.

وكاد الملك فيصل أن يقتنع برأي قادة حوران، ويبقى هناك ويبدأ من جديد في حشد القوى الحورانية والسورية وتنظيم المقاومة من هناك ضد الغزاة وطردهم من الأرض السورية. لكن الجنرال غورو عرف بهذه الأفكار ووصلت لمسامعه إقتراحات زعماء حوران للملك فيصل وتجاوب فيصل الأولي مع هذه الإقتراحات التي تدعوا للمقاومة. وشعر الجنرال الفرنسي الغازي غورو بخطورة الموقف، وبعث في نفس اليوم في 25. تموز 1920 ببرقية إلى الملك فيصل في مدينة درعا بضرورة الخروج من حوران وترك سوريا فوراً، وإلا فإنه سيقوم بقصف حوران بالمدفعية والطائرات وتدمير مدنها وقراها على رؤوس ساكنيها.

كان تهديد المستعمر الفرنسي واضح ولا يحتمل التأويل، وقد منح الجنرال هنري غورو الملك فيصل مدة زمنية قدرها 10 ساعات فقط لمغادرة مدينة درعا، وفي حال عدم إستجابة الملك فيصل لتنفيذ هذا الإنذار فإنه سيبدأ في تنفيذ تهديداته فوراً. وقد ألقت الطائرات الفرنسية منشورات فوق مدينة درعا تندد فيها بفيصل وتطالبه بمغادرة البلاد وإلا اضطرت القوات الفرنسية لقصف مناطق وجوده.

بعد هذا التهديد المباشر لفيصل ولأهل حوران عاد الملك فيصل ورضخ للتهديدات الفرنسية، وتابع طريقه وخرج من سوريا على متن قطار إنطلق من درعا متوجهاً إلى حيفا في فلسطين. ومن هناك سافر الملك فيصل إلى منفاه في روما بإيطاليا خوفاً على حوران من الدمار والخراب الذي يهدد به الجنرال الفرنسي غورو المتغطرس.

خرج الملك فيصل من سوريا ودخلها الجنرال هنري غورو على دماء السوريين في ميسلون. وعرف السوريون أن مرحلة جديدة صعبة ومريرة قد بدأت في بلادهم. وكان أحرار حوران من أكثر أبناء سوريا حساسية واستشعاراً للخطر المحدق ببلادهم نظراً لتجربتهم المتصلة والمستمرة مع جيوش الغزاة المحيطة بهم من عثمانيين وإنجليز وفرنسيين. وكان حدس الحوارنة في محله حيث كانت أول تصريحات الجنرال الفرنسي المغمور غورو هو تدمير حوران وقصفها بالطائرات والمدفعية. لم يخضع أهل حوران ولم ترهبهم تهديدات غوروا وقرروا المواجهة على الرغم من عدم وجود أي نوع من أنواع تكافؤ للقوى بين الطرفين، بأي شكل من الأشكال.

مع بداية دخول الفرنسيين دمشق بدأت معها مرحلة جديدة من المواجهات الدامية بين السوريين بشكل عام والحوارنة بشكل خاص مع الغزاة الفرنسيين. لقد دارت على أرض حوران سلسلة من المعارك الطاحنة مع الفرنسيين استمرت مدة شهرين قبل أن يتمكن الفرنسيون من دخول سهل حوران وإحتلاله، واضطرت فيها القوات الفرنسية إلى استخدام الطائرات والرشاشات والمدفعية والدبابات لمواجهة الثوار الذين كان سلاحهم البندقية والسكين وبعض الأسلحة الخفيفة التي غنموها من المستعمر التركي قبل عامين.

قرابة شهرين كاملين صمدت حوران في وجه الجيوش الإستعمارية الفرنسية وحيدة، وسطر أهل حوران في هذه الملحمة التاريخية صفحة ناصعة من كفاح هذا الجزء من الأمة العربية. قبل أن يتمكن الفرنسيون من دخول حوران تكبدت قواتهم الغازية خسائر فادحة تجاوزت في حجمها مجمل الخسائر الفرنسية التي تكبدوها في معاركهم لإحتلال بقية مناطق بلاد الشام مجتمعة. وكانت حوران أخر منطقة في سوريا وبلاد

الشام يستطيع المستعمر الفرنسي دخولها وإحتلالها. وكانت حوران أيضاً أول منطقة من سوريا يتم تحريرها من المستعمر الفرنسي بعد 25 عام من هذا التاريخ بعد ثورة "المذخر" الخالدة في درعا عام 1945 .

لم يتوقف كفاح وجهاد أبناء حوران مع دخول قوات الغزو الفرنسية وإحتلال سهل حوران. لقد إضطرت القيادة السياسية والعسكرية لأهل حوران للإستسلام أمام جيوش المستعمر الفرنسي مؤقتاً، لم تدم هذه الهدنة إلا عدة أشهر، حيث تابع أهل حوران كفاحهم ومحاربة جيوش الغزاة من جديد. بعد سبعة أشهر فقط من إعلان الهدنة بين قوات المستعمر والحوارنة، تجددت المعارك من جديد، وكانت مرحلة جديدة من المواجهات العسكرية والسياسية قد بدأت في حوران خاصة وفي عموم الأرض السورية.

لم تدم الهدنة العسكرية بين الحوارنة وسلطات الإنتداب الفرنسي طويلاً وقد باشر الحوارنة كفاحهم من جديد بعد أن لملموا جراحهم التي إصيبوا بها في الأشهر الأولى من المواجهات العسكرية الدامية. فبعد هدنة دامت أقل من عام مع قوات الإحتلال بدأ فصل جديد من كفاح أهل حوران ضد المستعمر الفرنسي يتشكل، ولم ينتهي شهر تشرين الأول من عام 1921 حتى حصلت المعركة الأولى بعد الهدنة مع قوات المحتل الفرنسي على أرض حوران.

استمرت المقاومة وكفاح أهل حوران مع القوات الفرنسية بشكل متواصل 7 أعوام وإستمر كفاح الحوارنة مع بقية الشعب السوري بجميع أنواع الكفاح والمقاومة مدة 25 عاماً متواصلاً ولم يتوقف هذا الكفاح وهذه المقاومة الباسلة إلا بخروج المحتل الفرنسي من حوران ومن أرض سوريا.

لقد تجاوز عدد المعارك التي خاضها رجال حوران ضد المستعمر الفرنسي خلال فترة المستعمر الفرنسي أكثر من مئتي معركة ومواجهة عسكرية.
وسقط من أهل حوران في معارك التحرير ومقارعة المستعمر الفرنسي أكثر من 10 آلاف شهيد، واصيب ضعف هذا الرقم من الجرحى. ودمرت في فترة الكفاح الوطني لأهل حوران مع قوات الإنتداب الفرنسي، والتي دامت فترة 25 عاماً، أحياءاً كاملة في العديد من القرى والمدن الحورانية. وحوصرت مدن وقرى كاملة لأشهر عدة، وجوع أهلها وحرموا من أبسط متطلبات الحياة. لكنهم صبروا وصمدوا في وجه المستعمر، حتى خرج المستعمر وإنهزم.

لقد استعمل الغازي الفرنسي في معاركه على أرض حوران أساليب الأرض المحروقة لكسر شوكة الحوارنة لكن دون جدوى. وفي حوران عمل المستعمر الفرنسي على تجويع السكان، وحرق محاصيلهم الزراعية، لإجبار السكان على الخضوع لإرادته ولم يفلح بذلك. لقد عاش أهل حوران أثناء مرحلة الصراع مع الغزاة أعوام فقر وعوز متكررة.

في هذه المنطقة الخصبة الغنية تشرد الآلاف من سكانها إلى مناطق الجوار، إما هروباً من الملاحقة والإعتقال أو لسبب طلب الرزق والعيش الذي أصبح في بعض اعوام كفاح أهل حوران متعذر وصعب المنال. كل ذلك وبقيت حوران شامخة عصية على الكسر، وبقي أهل حوران أباة لا تثنيهم العواصف الهوجاء عن نيل حريتهم، وتحرير بلدهم سوريا من براثن الغزاة.

من المفيد في هذا المقام تسليط الأضواء على سير بعض المعارك والمواجهات العسكرية بين ثوار حوران والمستعمر الفرنسي على أرض

حوران. ومن المفيد أيضاً تذكير أبناء الأمة العربية، وأبناء الشعب السوري، بكفاح آباء وأجداد من فجر ثورة الحرية والكرامة السورية الباسلة في 18. 03. 2011 في وجه الطغاة من عصابات الأسد والشبيحة. ومن المفيد أيضاً تسليط الأضواء على بعض صبر وجلد سكان هذه المنطقة من أرض العرب لتكون مدرسة ورافداً يعزز ثقة الأجيال القادمة بالنصر، والمستقبل الواعد. فتجربة الأباء والأجداد هي ملك للأجيال القادمة تشد من أزرهم وتنير دربهم.

في الفصل التالي سيتم التطرق لبعض المعارك والمواجهات العسكرية بين ثوار حوران وجيوش المستعمر الفرنسي الغازي، والتي تركت لها أثر سياسي وعسكري على مجمل المنطقة وعلى سوريا، وتلك التي يعرفها أو سمع بها أبناء المنطقة، ولا زال الأبناء والآباء يذكرون شيئاً منها في أحاديثهم عن الماضي، وعن صور الكفاح المشرف لأبناء حوران الأباة. وتنعكس بطولات هذا السهل الفسيح في الثقافة السائدة بين السكان وتجد صداها وتعبيراتها في الأشعار والأهازيج والأغاني الشعبية والتراثية المنتشرة بين أوساط سكان سهل حوران .

مقتل رئيس وأعضاء حكومة الانتداب
في خربة غزالة

بلدة خربة غزالة في حوران، تبعد عن مدينة درعا 12 كيلو متر، ويمربها الخط الحديدي الحجازي المتجه من دمشق إلى المدينة المنورة بأرض الحجاز عبر درعا وعمان. وكان فيها في بداية القرن العشرين مركز متصرفية المنطقة. بعد 27 يوماً من دخول القوات الفرنسية دمشق في 25. 07. 1920 حدث الصدام المزلزل بين اهل حوران وسلطات الغزاة الفرنسيين في بلدة خربة غزالة. أحداث هذه الواقعة جرت في 21. 08. 1920 بعد عدة أيام من خروج الملك فيصل من سوريا متوجهاً إلى درعا ومن هناك إلى حيفا.

كان الجنرال هنري غورو، الحاكم العسكري الفرنسي الجديد لسوريا، متوجساً من أهل حوران لما عرفه عنهم من صلابة وشدة بأس في معاركهم مع القوات التركية، ومع الجيش الرابع العثماني أثناء أحداث الحرب العالمية الأولى. وقد إطلع غورو على ملحمة تحطيم قدرات الجيش العثماني الرابع بفترة قياسية وجيزة على أرض حوران وعلى أيادي المقاتلين الحوارنة. وقد أشار عليه بعضهم على عدم التورط في مواجهات عسكرية مع أهل هذه المنطقة.

كان لدى الجنرال غورو فكرة عن هذه المنطقة وعن أبنائها، ويعرف شيئاً عن القدرة التعبوية العسكرية الكبيرة والتضامن الإجتماعي عند سكان هذه المنطقة التي حطمت قدرات الجيش العثماني الرابع والسابع المكلف

بالسيطرة على بلاد الشام. وكان غورو يعلم أيضاً أن كمية من الأسلحة قد غنمها الحوارنة من الجيش العثماني الرابع ومن بقايا الكتائب العسكرية الألمانية المتحالفة مع العثمانيين، والتي تحطمت وإنهزمت قبل عامين فقط على أرض حوران. كان هنري غورو أحد الضباط الفرنسيين القادة المتحالف مع الإنجليز ومع الجنرال اللنبي، وكانت تصله كل التقارير العسكرية الجارية في بلاد الشام مع دول المحور، العثمانيين والألمان، وكذلك كانت تصله تقارير عن أداء وحدات جيش الثورة العربية، التي يقودها الأمير فيصل، ولديه فكرة ومعرفة كاملة ومفصلة عن سير المعارك التي جرت على أرض حوران قبل ذلك بعامين.

في شهر أب من عام 1920 كانت تصل إلى الجنرال هنري غورو الأخبار بأن الحوارنة غاضبون على الفرنسيين، وأن الناس في هذا السهل الفسيح يظهرون أستعداداً كبيراً للمواجهة مع قوات الإحتلال الفرنسي، وغير مذعورين من هزيمة الجيش العربي في معركة ميسلون. أوعز الجنرال غورو، ولهذا السبب، إلى رئيس وزراء الحكومة التي شكلها الملك فيصل بيوم واحد قبل مغادرته سوريا، علاء الدروبي، بزيارة حوران من أجل تهدأة الناس، والإجتماع والتحدث مع زعماء ووجهاء أبناء هذه المنطقة، وحضهم ودفعهم على عدم الثورة والمواجهة مع القوات الفرنسية، والتسليم بالأمر الواقع.

على الرغم من أن علاء الدروبي ووزراء حكومته كانوا من الشخصيات الوطنية السورية، والتي تم تكليفها بالمناصب الوزارية من قبل الملك فيصل قبل مغادرته دمشق متوجهاً إلى درعا ومن ثم إلى روما، إلا أن هذه الوزارة كان مرضي عنها وعن شخصياتها من قبل الجنرال هنري غورو أيضاً، ومن قبل سلطات الإحتلال الفرنسي. وقد تم تعيين وتسمية

هؤلاء الوزراء بعد إستشارة القوات الفرنسية، وإستشارة الجنرال غورو نفسه.
استقل رئيس الوزراء السوري المعين علاء الدروبي والوفد المرافق له القطار المتوجه إلى درعا، والذي كان يضم أيضاً رئيس مجلس الشورى السوري عبد الرحمن اليوسف، ، ووزير الداخلية السوري عطا الأيوبي، وعضوية الشيخ عبد القادر الخطيب, والسيد أحمد الخاني مرافق ومستشار رئيس الدولة، والسيد منير بدر خان، وذلك في صباح يوم 21. 08. 1920.

وبعد ركوبهم القطار بدقائق قليلة بعث متصرف حوران أبي الخير الجندي، والذي عينه أيضاً الملك فيصل في منصبه قبل شهور من هذه الحادثة، ينصح فيها رئيس الوزراء والوفد الحكومي المرافق له بالتريث ويطلب منهم عدم الحضور إلى حوران في هذه الأيام، لأن الأجواء كما يراها أبي الخير الجندي متوترة، وغير مناسبة لذلك، ولا يوجد قبول بالاوساط السياسية والعشائرية الحورانية بالتفاهم مع سلطات الإحتلال الفرنسية في هذه الأيام. لقد جاءت البرقية إلى دمشق ووصلت إلى مكتب رئاسة الوزراء متأخرة بعض الشيئ، وفي حين كان الوفد الحكومي رفيع المستوى في طريقه إلى حوران على متن القطار المتوجه إلى خربة غزالة في وسط سهل حوران.

وصل وفد الحكومة برئاسة رئيس مجلس الوزراء علاء الدين الدروبي إلى محطة قطار خربة غزالة، وكان في إستقباله رئيس متصرفية حوران، أبي الخير الجندي، والتي تعادل وظيفته الرسمية منصب المحافظ في هذه الأيام. وحدث عند وصول الوفد محطة قطار خربة غزالة هرج ومرج، وتعالت الصيحات والهتافات المعادية للوفد الحكومي وللفرنسيين بين الجموع المحتشدة في محطة القطار، وكذلك في الساحة

المجاورة للمحطة. وتناقلت الأخبار بين الجموع بأن الوفد جاء ينقل تهديدات الجنرال هنري غورو الفرنسي للحوارنة، وإرغامهم أيضاً على دفع غرامات للفرنسيين، كما كانوا يدفعونها للعثمانيين من قبل. وكانت تزداد حدة الغضب والتحدي بين صفوف الجماهير المحتشدة كلما تأكد ووصل إلى أسماع المحتشدين، بأن الجنرال غورو يهدد الحوارنة بالقوة العسكرية، إذا لم يستجيبوا لمطالب الوفد الحكومي برئاسة علاء الدين الدروبي.

لم تدم حالة الهرج والمرج هذه، والغضب والتوتر، بين الجموع المحتشدة طويلاً حتى تم تبادل لإطلاق النار بين المواطنين الغاضبين من جهة والحامية العسكرية الفرنسية والجنود الفرنسيين المرافقين للوفد الحكومي رفيع المستوى القادم من العاصمة دمشق، من جهة أخرى. في هذه المواجهة المباشرة سقط على الفور رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي صريعاً، وتبعه بعد دقائق من ذلك كل من وزير الداخلية عطا الأيوبي، ولحق بهم صريعاً بعد عدة دقائق أخرى عبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى المعين.
وفي هذه المواجهة الدامية المباشرة سقط عدد من الجنود الفرنسيين صرعا أيضاً، وإستشهد في هذه المواجهة عدد من الثوار والمواطنين الحوارنة، إثنان منهم من عشيرة الزعبي.
وقد إنتهت مهمة هذا الوفد الرسمي رفيع المستوى بشكل مأساوي قبل أن تبدأ، هناك في محطة قطار بلدة خربة غزالة في سهل حوران. وقد كانت هذه المواجهة المباشرة بين الحوارنة وسلطة الاحتلال الفرنسية فاتحة لسلسلة من المعارك والمواجهات غير المنتهية بين أهل حوران من جهة وقوات الغزو الفرنسية من جهة أخرى.

بعد هذه الحادثة المأساوية توترت العلاقة بين الحوارنة وسلطات الإحتلال الفرنسي وزاد سعارها، ولم يعد مكان للتهدأة والتسوية بين الطرفين. وكانت بداية المواجهات العسكرية والسياسية مع الفرنسيين قد بدأت ولم تنتهي إلا بعد 26 عاماً وبرحيل الغزاة الفرنسيين عن حوران وعن أرض سوريا في 17 أبريل من عام 1946، وهو يوم جلاء القوات الأجنبية عن أرض سوريا التي يحتفل به السوريون من كل عام. لم يهادن الحوارنة الاحتلال الفرنسي قط.

محطة قطار الخط الحديدي الحجازي في بلدة خربة غزالة

معركة غباغب

وقعت معركة غباغب ضد قوات الغزو الفرنسية في تاريخ 23. 08. 1920 م، وذلك بعد حاثة خربة غزالة الماساوية بيومين فقط.
في الطرف الشمالي من سهل حوران وبالقرب من دمشق العاصمة تقع قرية غباغب، ولا تبعد هذه البلدة الحورانية عن مدينة دمشق أكثر من 25 كيلو متر. بعد يومين فقط من حادثة الصدام الذي وقع في بلدة خربة غزالة ومقتل رئيس الحكومة ووزير الداخلية ورئيس مجلس الشورى في حكومة الانتداب الفرنسي الاولى تقدمت القوات الفرنسية قادمة من دمشق إلى سهل حوران.
كانت قوات الجنرال غورو مزهوة بنصر ميسلون على السوريين قبل شهر من ذاك التاريخ، وتعيش غطرسة المستعمر المتعجرف، وتتوعد الحوارنة بالإنتقام لكرامة فرنسا المهانة على يد الحوارنة في بلدة خربة غزالة قبل يومين فقط من معركة غباغب.
وصلت قوات المستعمر الفرنسي أطراف بلدة غباغب وهناك كان ثوار حوران ينتظرون قدومهم، وكلهم عزم وتصميم على المواجهة العسكرية.

جاء فتيان حوران من كل القرى المحيطة ببلدة غباغب، ومنهم كانت خطوته بعيدة قادم من بلدات وقرى منتشره في هذا السهل الرحب الفسيح. من الصنمين وجباب، من دير البخت والحارة والقنيطرة، ومن نمر وإنخل والقنية ونوى ومن درعا والطيبة وبصرى الشام والحراك والغرية وبصر الحرير. لم يميز الثوار من أي القرى هم قادمون كان الخطاب المتبادل

بين النشامى عندما لم تعرف هوية المقاتل "كيفك يا قرابة أو شلونك يا خال".

بالمناسبة هذه التعابير في المخاطبة والتعارف هي من أكثر التعابير المستعملة بين أبناء حوران. وهناك شعور شائع بين الحوارنه أن علاقة قرابات دموية تربطهم ببعضهم البعض. وربما هذا الإعتقاد الشائع بالقربى من أهم عوامل التضامن والتأزر الشديدين التي تسود بين أهل حوران. ويمكن تلخيصها بمفهوم "الفزعة" الشائع عبر القرون بين سكان حوران.

هناك في الطرف الشمالي من حوران بالقرب من دمشق كانت بواكير المعارك العسكرية السورية مع سلطات الإنتداب الفرنسي بعد معركة ميسلون، حيث وقعت معركة غباغب في 23. 08. 1920م، بين الجيوش الفرنسية وأهل حوران.
مع أول خيوط الفجر أغار فتيان حوران على القوات الفرنسية الزاحفة، وقد بوغتت القوات الفرنسية وأخذت على حين غرة. ولم يتوقع الفرنسيون هذه المباغتة وهذه الجسارة المتميزة التي أظهراها أشبال حوران. ودمرت في هذا الهجوم الصاعق على القوات الفرنسية أربعة عربات محملة بالجنود، وأحرقت عدة عربات محملة بالمأونة، مما اضطرت القوات الفرنسية إلى التراجع وإعادة ترتيب صفوفها من جديد. وقد زاد المقاتلين الحوارنة بهجمات شديدة سريعة متتالية حتى أجبرت القوات الفرنسية على الإنسحاب من أرض المعركة، والإبتعاد مسافة 15 كيلو متراً، والعودة إلى المواقع المحصنة بالقرب من بلدة الكسوة على أطراف مدينة دمشق العاصمة.

لقد ارتبكت القيادة العسكرية الفرنسية التي واجهت مقاومة عنيفة في تلك المعركة. وأعجزهم سرعة إنقضاض المقاتلين الحوارنة على أهدافهم المنتقاة، وسرعة الحركة في إخلاء المكان والتخفي والتمويه في سهل منبسط مكشوف غير مناسب للقتال من الناحية العسكرية.

خسر الفرنسيون المعركة في المواجهة التي دارت بالقرب من بلدة غباغب. ولم يحسب الجنرال غورو المتغطرس والمنتشي بالنصر الذي حققه في معركة ميسلون لهذه الخسارة أي حساب. شاط غضباً وأزبد وأرعد وتوعد الحوارنة بالعقاب الشديد على هذه الجرأة في تحدي قوات فرنسا العظمى المنتصرة على الجيوش الجرارة في الحرب العالمية الأولى. لم ينتظر غورو طويلاً وقرر الزحف من جديد على درعا وإحتلالها، وقد جهز قوات أكثر عدداً وعدة لمواجهة مجموعات مقاتلة غير منظمة تنظيماً حديثاً وغير مسلحة تسليحاً حديثاً.

معركة "دير علي"

بعد خمسة أيام من الخسارة التي مني بها غورو في معركة غباغب تقدمت قوات فرنسية قادمة من دمشق متوجهة إلى درعا على الطريق الدولي الذي يربط دمشق بعمان. وقد أنتشر خبر الحملة الفرنسية هذه في جنبات حوران، وكانت هذه المواجهة العسكرية الثالثة بين الحوارنة والجيش الفرنسي الغازي على أرض سهل حوران الطيبب خلال أيام معدودات.

هذه المعركة حدثت في يوم 27. 08. 1920. وبعدما عرف الثوار الحوارنة أن تعزيزات عسكرية فرنسية تتوالى ويدفع بها إلى حوران بالقرب من مدخل دمشق الجنوبي قرروا إغتنام عنصر المفاجئة والمباغتة من جديد، ومهاجمة العدو أثناء تحركه في المناطق المفتوحة ومن حيث لا يحتسب. وقد رصد الثور تحرك القوات الفرنسية، وتأكد رجالهم أن أحد قطارات السكة الحديدية تنقل معدات وذخائر إلى داخل سهل حوران. فكان الرأي بمهاجمة هذا القطار وضرب حراسته في منطقة في شمال سهل حوران تقع بين بلدة الكسوة بالقرب من دمشق وبلدة غباغب في بداية سهل حوران، وتعرف هذه المنطقة "بدير علي"، وهي واقعة على خط سكة الحديد الحجازي المتجه من دمشق إلى مدينة درعا. وقد تطوع للمشاركة بهذه المواجهة عدد من الضباط العرب غير السوريين، رفاق درب الحوارنة وزملائهم في جيش الثورة العربية الكبرى، وممن لهم خبرة عسكرية قتالية سابقة.

قرر مجلس قيادة الثورة في حوران الهجوم على دير على. وقد وضعت الخطة العسكرية بمهاجمة القطار المتحرك من الجانب الشرقي ومهاجمة الموقع بشكل مباغت وصاعق لتلافي خطر نيران رشاشات العدو الفرنسي المنصوبة على عربات القطار المرافقة له لحمياته، وكذلك لتجنب نيران الدبابات والمدافع الفرنسية المتمركزة على جانبي الطريق، وحول محطة سكة الحديد في بلدة دير على. وكان هذا التكتيك العسكري الصائب والناجح في هذه المعركة من أهم عناصر الخطة بالإضافة لإختيار الشباب المناسبين البواسل لهذه المهمة.

هاجم المجاهدون القطار في موقع "دير علي", وأبادوا الحامية التي كانت ترافق القطار إبادة تامة، ولم يخرج من الجنود الفرنسيين أحداً سالماً. وقد وجهت للقوات الفرنسية وللجنرال غورو صفعة عسكرية أخرى جديدة هزت كيانه، حيث عبر عنها فيما بعد بإظهار إعجابه الشديد بشجاعة المقاتلين الحوارنة، وفطنتهم العسكرية، التي لمسها منهم في أثناء تلك المواجهات عن قرب.

نجح المجاهدون في الإستيلاء على القطار ومصادرة جميع محتوياته من السلاح والذخيرة، وغيرها من المؤن، وكان المقاتلون الحوارنة في تلك الفترة بأمس الحاجة للسلاح وللذخيرة. كانت معركة "دير علي" إنتصاراً باهراً للثورا وهزيمة كبيرة للقوات الفرنسية. وخاصة عندما أدرك الفرنسيون أن المقاتلين الحورانة يتمتعون بقدرة كبيرة من التكتيك والمناورة، وشن الهجمات الصاعقة المركزة على نقاط ومواقع عسكرية محصنة ومحمية من قبل قوات مدرعة ومدافع ثقيلة.

أصبحت قيادة الجيش الفرنسي تدرك أن معركتهم مع الحوارنة ستكون صعبة ودامية، ولا بد من حشد قوات إضافية جديدة وإستعمال أساليب

جديدة في الحرب ضد سكان حوران. لقد أستغرب وتعجب الجنرال هنري غورو من قدرة المقاتلين الحوارن على إستعمال الألغام والقنابل اليدوية بمهارة في شن الهجمات العسكرية المباغتة. وإطلع على تفاصيل الكارثة العسكرية التي وقعت في القطار والقوات الفرنسية المرافقة للقطار في معركة "دير علي". وتوعد هنري غورو الحوارنة. وكان في كل معركة يخسر فيها أمام الحوارنة يزداد إعجابه بهم وحنقه وحقدة الشخصي والمهني عليهم في نفس الوقت، وهو أحد الجنرات الفرنسيين البارزين في الحرب العالمية الأولى، وفي جسده عدد من الاصابات والعاهات والتشوهات التي أصيب بها جراء وأثناء معارك الحرب العالمية الاولى.

واستغرب الجنرال غورو كيف قام هؤلاء الحوارنة بهجوم صاعق وبخطة محكمة، استعملوا فيها القنابل اليدوية بشكل رهيب، واستولوا على القطار وأبادوا حاميته العسكرية المرافقة له بهذه الدقة والسرعة، في أرض مكشوفة غير مغطاة بملاذات طبيعية أو حرجية. فهذا العمل العسكري غير مألوف من قوات غير نظامية، وغير مدربة حسب نظم عسكرية عصرية، كما كان هو واقع حال المقاتلين السوريين في جنوب بلاد الشام.

معركة الكسوة
وجبل المانع

خشي الجنرال غورو من توسع دائرة المقاومة في البلاد السورية، وإمكانية تجاوز الشعب السوري صدمة خسارة معركة ميسلون، والنهوض من جديد والإقتداء بمقاومة أهل حوران. وجه غورو حملة عسكرية كبيرة من جديد لإخضاع حوران وفرض سيطرة سلطته وسلطة قوات الإحتلال على المنطقة وبالتالي على سوريا.
وإنتشر الخبر في حوران بأن الفرنسيين متجهين وفي طريقهم إلى سهل حوران، وتم تحديد سير القوات الفرنسية، وكانت عيون المقاتلين الحوارنة ترقب تحركاتهم وتتابع مسيرهم، وتقدر أعدادهم وقدراتهم العسكرية. فالمجلس العسكري الذي تشكل بقيادة الشيخ إسماعيل الحريري قد كلف بعض السرايا المدربه وذات الخبرة العسكرية في رصد قوات العدو على أطراف دمشق. وكان سكان القرى والارياف خير معين لتلك السرايا في جمع المعلومات عن العدو الفرنسي المتجه إلى الجنوب.

كانت معركة الكسوة وجبل المانع تعتبرمن أهم مسلسل معارك الحوارنة مع القوات الفرنسية الغازية. لقد أخذت هذه المواجهة العسكرية لأول مرة طابع جيش مقابل جيش. في حين جيش الحوارنة كان يتألف من شباب ورجال متطوعين بلا أي مقابل، ولا تحكم بينهم أي قواعد تنظيم عسكري. بل أن أغلبهم أبناء عشائر وعائلات فلاحية غير متمرسة بفنون الحرب والتكتيك والتسليح الحديث، إلا من بعض الضباط والعسكريين

الحوارنة والسوريين والعرب ممن شارك في الثورة العربية الكبرى، أو من المنشقين عن الجيش العثماني قبل عامين أو ثلاثة.
كان أغلبهم لا يملك أكثر من بندقية قديمة، أو مسدس متواضع القدرات. على الرغم من ذلك أبدى هؤلاء الرجال النشامى قدرة عالية على المواجهة والإقدام، والإيمان بعدالة القضية التي يدافعون عنها ومن أجلها. فهم يدافعون عن الأرض والأهل والوطن، ولديهم إيمان عميق بالنصر مهما كانت الخسائر ومهما طال الزمن أيضاً.

موقع المعركة كان بين بلدة الكسوة وجبل المانع، وهي منطقة سهلية يبدأ بها سهل حوران من ناحية الشمال وهي لا تبعد كثيراً عن أطراف مدينة دمشق العاصمة. ولا تبعد كثيراً على مواقع المعارك الأخرى التي سبقت في غباغب و"دير علي". كانت فكرة قائد قوات الحوارنة المجاهد حسن المقداد هو مباغتة القوات الفرنسية في ذاك المكان في منطقة مكشوفة وقبل تمكن هذه القوات من عمل تحصينات منيعة وشديدة. وخاصة أن الفرنسيين لن يخطر ببالهم أن قوات المجاهدين الحوارنة ستتقدم وتقترب كثيراً من معاقل القوات الفرنسية المحتشدة على أطراف العاصمة دمشق. وكان توقع الفرنسيين أن الحوارنة سيعملون على مواجهة الفرنسيين في وسط سهل حوران، ولن يكرروا مرة أخرى إسلوب المباغتة والمواجهة المفتوحة لأن الفرنسيين قد خبروها.

تماما كما فكر الفرنسيون عمل قادة الحوارن العسكريين على عمل غير المتوقع، وكان لهم تماماً ما أرادوا وقصدوا. وقد سلمت قيادة الوحدات العسكرية الحورانية المهاجمة للنائب سعد الدين المقداد. وقد شارك سعد الدين المقداد في معارك التحرير في صفوف الثورة العربية الكبرى قبل عدة سنوات، وكان صديق وأحد القثاة للملك فيصل، وعضواً في جمعية "العربية الفتاة" القومية. وإكتسب سعد الدين المقداد خبرة قتالية ومهارة

في التكتيك العسكريين، وهو من مدينة بصرى الشام في جنوب شرق حوران، وأحد شيوخ عشائرها، وأحد نواب حوران في مجلس المبعوثين، أي البرلمان العثماني. كان هذا القائد يحضى بثقة وإحترام المقاتلين الحوارنة ويتمتع بشجاعة وحنكة عسكرية لافته.

هاجمت قوات الطليعة الحوارنية في يوم 01. 09. 1920 ، بقيادة سعد الدين المقداد حشود القوات الفرنسية بشكل رأسي ومباشر ومباغت، وشقت قوات الطليعة الخيالة الحوارنية صفوف القوات الفرنسية، وقسمت تلك القوات إلى قسمين. وتبعتهم بسرعة فائقة وحدات أخرى من الخيالة والقناصة المشاة بمهاجمة جناحي القوات الفرنسية المنقسمة وتضربهم بقوة.
لقد تخلخلت صفوف القوات الفرنسية من الضربة الأولى المباغتة، وأربكت قيادة القوات الفرنسية الميدانية، ولم تستطع تلك القيادات من التمكن من السيطرة على القوات المنقسمة والمشتتة في ساحة المعركة.
حاول الفرنسي تدارك الموقف والمناورة ومحاولة تجميع القوات المهزوزة والمشتتة لكنه لم يستطع تحت زخم ضربات الثوار السريعة والمتلاحقة، والتي صارت تنهال عليهم من ثلاثة جهات.
أضطرت القوات الفرنسية من الانسحاب إلى داخل بلدة الكسوة والتحصن بها. وأضطر الجنرال غورة مرة أخرى تجرع طعم الهزيمة من جديد وسحب قواته مهزوماً والتراجع بإتجاه الشمال بالقرب من أطراف العاصمة دمشق لكن إلى حين.

يقول القائد حسن المقداد في مذكراته "حين علمت حوران بزحف القوات الفرنسية من دمشق إلى درعا في صبيحة أول يوم من شهر أيلول 1920 انطلق الثوار من مختلف مدن وقرى المحافظة بقيادة النائب سعد الدين المقداد يحملون السلاح إلى أرض المعركة بين جبلي الكسوة والمانع.

كان عدد الثوار الذين شاركوا في تلك المعركة بلغ 4 آلاف مقاتل، استشهد منهم 700 ثائر بينما عدد القوات الفرنسية يزيد عن هذا العدد بكثير، وقد كان قتلاهم بالمئات فضلاً من تمكن الثوار من منع الفرنسيين من دخول حوران."

كانت معركة الكسوة وجبل المانع هي الدرس الجديد بعد معركة غباغب التي سبقتها بمدة لا تتجاوز العدة أيام. ذلك الدرس المر المتكرر الذي تلقاه الغزاة الفرنسيين على الأرض السورية ستحفظه الأجيال القادمة وسيتغنى بها الشعراء والأدباء. في هذه المعركة منيت قوات الغزو الفرنسية بهزيمة نكراء، واضطرت بقية القوات المنهزمة من العودة إلى معسكراتها في دمشق العاصمة من جديد، وأخليت حوران كل حوران من القوات الفرنسية.

لم يستطع الجنرال غورو وحكومة فرنسا من بلع هذه الهزيمة العسكرية الجديدة المفاجئة. وعلى الرغم من معرفة غورو المسبقة عن كفاح أهل حوران ضد جيوش السلطنة العثمانية إلا أنه قد تفاجأ من جديد ببسالة هؤلاء القوم وشدة إيمانهم بالنصر.

عندما علمت الحكومة الفرنسية آنذاك بخبر تصدي أهل حوران للقوات الفرنسية الغازية ومنعها من دخول حوران في عدد من المعارك الدامية أوعزت للجنرال هنري غورو بتجهيز حملة عسكرية كبرى، والزحف إلى حوران، وفرض السيطرة العسكرية على الإقليم بأي ثمن وبأي شكل، حتى لا تتفشى حركة المقاومة الشعبية في بقية المناطق السورية من جديد. وحتى لا يتجاوز السوريون هزيمة معركة ميسلون من خلال شيوع إنتصارتهم في سهل حوران، وبالتالي يتم تهديد مشروع فرنسا الإستعماري برمته في سوريا وفي الشرق العربي.

وبالفعل قام غورو بتنفيذ المهمة المكلة إليه وأمر الجنرال غوابيه بالتوجه نحو حوران على رأس جيش جرار واحتلالها. ولكن هذه الحملة وهذا الجيش الفرنسي الجرار واجه مقاومة باسلة وصموداً منقطع النظير. حيث دارت بين القوات الفرنسية وثوار حوران معارك حامية الوطيس في كل قرية وموقع، أظهر خلالها رجال الثورة شجاعة وبسالة قل نظيرها.

معركة الدلي الأولى

قرية الدلي تقع على الطريق الدولي الرئيسي الذي يربط دمشق بمدينة درعا. وهي تبعد عن مدينة درعا ب 30 كيلومتراً شمالاً. ويمر بجانبها نهر الهرير. وقعت هذه المعركة بين ثوار حوران والجيش الفرنسي في أوائل شهر أكتوبر من عام 1920 .أي بعد سلسلة المعارك التي إنتصر بها ثوار حوران على قوات الجنرال غورو الفرنسية، وأضطر غورو لسحب قواته من أرض المعارك مهزوماً، متكبداً خسائر فادحة بالرجال والعتاد. وقد حشدت الحكومة الفرنسية لهذه المعركة الجيوش الجرارة، لأن الحكومة الفرنسية في باريس وقعت في حرج دولي كبير، وانتقصت من هيبة فرنسا دولياً جراء عجزها في الدخول إلى سهل حوران والسيطرة على مجموعات فدائية مقاتلة لا يجمعها أي تنظيم عسكري أو سياسي محترف، ولا تمتلك أي نوع من الأسلحة الثقيلة أو حتى المتوسطة.

لقد خشي الحاكم العسكري الفرنسي هنري غورو والقادة الفرنسيون من إمكانية توسع حالة المقاومة الحورانية الشرسة وتعم الأرض السورية واللبنانية التي للتوا دخلتها القوات الفرنسية وأحكمت سيطرتها عليها. وخاصة أن الشيخ صالح العلي وثوار الساحل قد اضطروا للتسليم للقوات الفرنسية وإنهاء حالة المقاومة هناك قبل فترة وجيزة. وكذلك فعلوا الثوار في غوطة الشام وسهول حماة. ولم يتبقى من مقاومة تذكر على الأرض السورية حتى ذاك الوقت إلا مقاومة إبراهيم هنانو في شمال البلاد

السورية في جبل الزاوية، وهي بعيدة عن دمشق، وتأثيرها السياسي محدود نسبياً على الاوضاع العامة في سوريا بسبب البعد الجغرافي عن مركز القرار السياسي في العاصمة دمشق. أما حوران والمقاومة في حوران لها دلالات أخرى وتأثيرات سياسية وعسكرية هائلة إن إستمرت وتطورت، وهي المنطقة الملاصقة لدمشق العاصمة، والمنفتحة عليها، وتربط سكانها بسكان دمشق أوصر القربى وحسن الجوار، وتداخل وتواصل القوى والقيادات السياسية والاجتماعية بين دمشق وحوران. فهي تهدد بإنفلاتها وعدم السيطرة عليها سيطرة القوات الفرنسية على العاصمة السورية نفسها، ومن ثم ربما عدم السيطرة على البلاد السورية بمجملها.

بعد هزيمة الجيش الفرنسي في معركة الكسوة وجبل المانع بالقرب من دمشق العاصمة على يد المقاتلين الحوارنة، وكذلك بعد هزيمة الجيش الفرنسي في معركة غباغب ومعركة "دير علي" غير البعيدة عن دمشق أيضاً حشد غوروا كل قواته المتواجدة في سوريا واستجلبت الحكومة الفرنسية قوات إضافية فرنسية من خارج البلاد السورية، قدرت ب 17000 عسكري، من أجل تحقيق مهمته الجديدة والقديمة في إحتلال حوران لإتمام السيطرة العسكرية على البلاد السورية. فحوران هي المنطقة الوحيدة المتبقية خارج سيطرة الجيوش الفرنسية.

بالفعل سارت في 03. 10 1920 قوات فرنسية جبارة مدججة باحدث الأسلحة من دبابات ومدافع متجهة إلى سهل حوران، وكذلك تدخلت الطائرات الفرنسية في سير المعارك ضد القوات العربية المدافعة عن أرض حوران. وكان جنون الفرنسيين مضاعف وحانق على أهل حوران، لمعرفتهم المطلقة بأن هؤلاء الثوار يقاتلون في أرض مفتوحة منبسطة لا يوجد فيها أي غطاء أو تضاريس تسمح بهكذا نوع من القتال

والمواجهات المفتوحة مع جيوش قوية وذات خبرة في فنون القتال كالجيش الفرنسي.

في أول شهر تشرين الاول من عام 1920 إقتربت القوات الفرنسية من قرية غباغب مرة أخرى فإشتبكت معهم وحدات من المقاتلين الحوارنة بضربات سريعة وصاعقة لكن القوات الفرنسية كانت تتقدم بإتجاه الجنوب والمقاتلين الحوارنة يتعاملون مع تلك القوات الجرارة بأساليب حربية تكتيكية أقرب إلى حرب الإستنزاف وحرب الكر والفر منها إلى المواجهة المباشرة.

لقد خلق واقع جديد في ميازين القوى على الأرض بعد الحشود الفرنسية الهائلة من القوات أمام قوات من المقاتلين محدودي العدد والعدة من أبناء الفلاحين غير محترفي مهنة الحرب والجندية. استمر هذا الأسلوب من القتال ثلاثة أيام متواصلة حتى وصلت طلائع القوات الفرنسية في تاريخ 03. 10. 1920 إلى بلدة الكتيبة القريبة من بلدة داعل وبلدة خربة غزالة، وهناك أستجمع المقاتلون الحوارنة قواتهم العسكرية وحملوا على القوات الفرنسية حملة صاعقة أربكت القوات الفرنسية وشتت صفوفهم، مما اضطر القوات الفرنسية للتراجع للخلف مسافة عشرين كيلو متر شمالاً، وتم حصرها بالقرب من قرية "الدلي" الواقعة إلى الشمال من بلدة الشيخ مسكين وتبعد عن مدينة درعا بحوالي 30 كيلو متر شمالاً.

وكادت القوات الفرنسية أن تقع بكارثة عسكرية ماحقة لولا تدخل الطائرات التي أوقعت خسائر فادحة بالقوات العربية المقاتلة وبالسكان المدنيين من أهل حوران. وقد قصفت الطائرات الفرنسية والمدفعية الفرنسية أكثر من خمسة عشر بلدة وقرية حورانية تقع في مجال

المواجهات العسكرية قصفاً مركزاً، أصابت هذه البلدات بدمار وخراب كبير وإشتعلت بأحيائها النيران.

لقد قصفت في هذا اليوم من المعركة مدينة درعا، وطفس، وداعل، وخربة غزالة، وعتمان، والشيخ مسكين، وإزرع ،والكتيبة، وبلدة إبطع، وقرية الدلي، وبلدة القنية، والغرية الغربية، والغرية الشرقية، وغيرها من البلدات القريبة من ساحة المعارك. وكانت مبررات العسكريين الفرنسيين لشدة هذا الإجرام وهذا الدمار الذي أحدثوه في مدن وبلدات حوران أنها كانت معاقل للمتمردين، وأن أهلها مساندين وداعمين لهؤلاء "الخارجين عن القانون"، حسب لغة وتعبير السلطات الفرنسية في تلك الأيام، لوصف ثوار ومقاتلي حوران.

في معركة "الدلي" الأولى كانت فرنسا توشك على كارثة عسكرية، لكن في نفس الوقت مني المقاتلون الحوارنة والسكان في مدن وقرى حوران أيضاً بخسائر بشرية ومادية فادحة في هذه المعركة، مما أضطر قيادة حوران السياسية والعسكرية للقبول في فكرة التوقف عن القتال، وعقد الصلح مع الجنرال غورو. وقد فقد الثوار في تلك المعركة التي قادها الشيخ مصطفى الخليلي، القائد العسكري المرموق في حوران، 200 من الشهداء من المقاتلين، وأعداد كبيرة من الشهداء والجرحى من المدنيين في القرى البلدات المجاورة لمسارح القتال. ودمرت أعداد من المدافع الرشاشة، وأوشكت ذخيرتهم على النفاذ لطول المعركة التي استمرت لمدة ثلاثة أيام وثلاثة ليالي متواصلة على جبهة عسكرية أمتد طولها حوالي 30 كيلو متر، وذلك من أطراف مدينة درعا حتى بلدة القنية في وسط وشمال حوران.

سارت في اليوم الأخير لمعركة الدلي الأولى لصالح القوات الفرنسية ومني الثوار الحوارنة بخسائر فادحة. وعلى أساس هذه النتيجة العسكرية عقدت أول هدنة بين الفرنسيين والحوارنة.

عقد الهدنة
مع قوات الجنرال غورو

دامت المعارك بين الثوار الحوارنة والقوات الفرنسية قرابة شهرين متواصلين منذ توجه غورو لإحتلال حوران في 26. 07. 1920 . وقد بدأت عمليا مع معركة ميسلون التي كان بين صفوف ثوارها مقاتلين متطوعين من حوران. وكانت خلال هذين الشهرين تقع المعارك والصدامات بين القوات الفرنسية والمقاتلين الحوارنة بصدام شبه يومي مستمر في مكان ما على أرض حوران. لقد أمعنت القوات الفرنسية في أثناء تواجدها على أرض حوران وأثناء سير المعارك مع القوات العربية المدافعة عن الأرض والأهل في تدمير عدد كبير من قرى وبلدات ومدن حوران، وعم الجوع والفقر والخراب هذه المنطقة.

وقد تسبب العدو الفرنسي في خراب المحاصيل الزراعية وتهديم أبار المياه وحرق الحقول الزراعية والبيادر. ومن المعروف أن موسم الحصاد في حوران قد بدأ مع بداية الحملة العسكرية على السهل الزراعي في شهر تموز من عام 1920. وكان هذا هو بداية موسم الحصاد في سهل حوران. ومن المعروف أن حياة المواطنين في هذا السهل الخصيب مرتبطة إرتباطاً عضوياً بالزراعة والفلاحة وجني المحاصيل. وقد عرف غورو كيف يعاقب الحوارنة على صمودهم في كفاحهم المجيد بشكل مؤثر وقاسي، وذلك من خلال تدمير كل مقومات الحياة لسكان هذا الإقليم السوري. فسياسة تدمير مصادر المياه وحرق الحقول والبيادر من خلال

قصفها بالمدفعية والطيران كانت سياسة إستعمارية غادرة منهجية أصابت سكان حوران في تلك الأيام إصابة بالغة. وكانت الحرائق تنتشر في سهول حوران من شرقه إلى غربه ومن شماله غلى جنوبه، وقد عمل غورو وجنوده على تطبيق سياسة الأرض المحروقة بأبشع صورها في حوران الثائرة.

بعد هذه التطورات الحياتية والميدانية اتفق قادة حوران على ضوء ما حل بمدنهم وقراهم من دمار وخراب على وقف القتال من أجل إلتقاط الأنفاس وتجميع الصفوف من جديد وكان لهم رأي في ذلك. وهو كسب الوقت ولملمة الجراح. ولهذا قرروا الدخول بمفاوضات مع الفرنسيين واللقاء بالجنرال غورو. وكانت أحد شروط غورو لوقف القتال تسليم قادة الثورة أنفسهم. وافق القادة الحوارنة على هذا الشرط، لكن بعد أن إتفقوا فيما بينهم على أن لا تسلم كل القيادة الإجتماعية والسياسية والعسكرية نفسها لسلطات الإنتداب، وإنما فقط قسم منها، والقسم الآخر يبقى طليقاً ويبحث عن أماكن أخرى مناسبة للإقامة بعيداً عن أعين الفرنسيين لتولي قيادة المنطقة والأهل في الأيام القادمة.

وهكذا حصل بعد معركة الدلي الأولى استسلم للفرنسيين شيخ مشايخ حوران والقائد العام للمحاربين الحوارنة أسماعيل الحريري من قرية الشيخ مسكين، والشيخ فارس الأحمد الزعبي من قرية دير البخت، وإبراهيم السليم من المسيفرة، والشيخ زعل الرفاعي من بصر الحرير، وطلعت الأحمد من اللجاة، وموسى العقلة من قرية الغارية، وزعل عبد الغني من قرية ابطع، وطلال أبو سليمان من اللجاة، ومنصور الحلقي من بلدة جاسم. والقسم الآخر من زعماء حوران، وخاصة القيادات العسكرية الميدانية منهم ذهبت إلى منطقة اللجاة الوعرة في حوران، وإلى منطقة الصفا في شرق جبل حوران وأقامت بين قبائل السرحان والسردية

البدوية، وكان آخرون من هؤلاء القادة قد ذهب مع مجموعات مقاتلة إلى شمال الأردن وأقام في قرى ومدن حوران الأردنية الواقعة تحت السيطرة البريطانية. من بين هؤلاء القادة كان مصطفى المقداد من بصر الحرير، وفاضل المحاميد ومحمد رجا المسالمة من درعا، وفواز بركات الزعبي من الرمثا، وشيخ الثوار الحوارنة مصطفى الخليلي من درعا.
لقد أقام هؤلاء في قرى وبلدات محافظة إربد الأردنية، ومن هناك أعادوا تجميع قواتهم من جديد وأعادوا الكرة الكفاحية، وجددوا المعارك مع الفرنسيين من خلال تسللهم إلى الأراضي السورية من جديد.

دامت هدنة الثوار الحوارنة مع القوات الفرنسية سبعة أشهر فقط،، فقد تجددت المواجهات العسكرية مع قوات الإحتلال الفرنسي على أرض حوران في شهر أيار عام 1921 . على الرغم من إعتقال عدد كبير من زعماء وقيادات حوران التاريخية وزجهم في السجن. فقد تشكلت قيادة جديدة شابة تقود العمل الوطني في سهل حوران، وتسلم قيادة مجلس زعماء حوران، أو القيادة العسكرية والسياسية في لغة عصرنا اليوم، محمد خير الحريري، الإبن الأكبر لشيخ مشايخ حوران أسماعيل الحريري الموجود مع رفاقه في السجون الفرنسية. لقد خرج محمد خير إلى الأردن وأقام في بلدة الرمثا وفي مدينة إربد بالقرب من الحدود السورية ، وبالقرب من مدينة درعا، مركز منطقة حوران ومركز العمل العسكري القادم. ومن هناك إديرت المعارك والمواجهات العسكرية مع جيوش المحتل الفرنسي من جديد، وتابع الحوارنة كفاحهم على درب الحرية والإستقلال الوطني السوري.

إنطلاقة جديدة
لثورة حوران الباسلة

بعد معركة ميسلون في سنة 1920 واحتلال دمشق وبقية مناطق سوريا، وخاصة بعد تمكن قوات الإحتلال الفرنسي من الدخول إلى حوران وإحتلال أخر منطقة من سوريا في شهر تشرين الثاني من عام 1920 ، وتمكن الفرنسيين من فرض هدنة على ثوار حوران، وسجن عدد من قياداتهم السياسية والعسكرية والإجتماعية. شعر المحتل الفرنسي أن البلاد خضعت وسادت له، وأخذ كعادته يجول ويصول في البلاد السورية. لكن ثوار حوران الذين إنكفأوا وتواروا عن الأنظار لعدة أشهر نغصوا على الغزاة من جديد زهوهم وصلفهم المفرط، وأعادوهم إلى الواقع، وتذكيرهم بورطتهم بأهل سوريا وأهل حوران. عاد أشبال حوران من جديد لمتابعة كفاحهم ضد المستعمر الأجنبي، لكن هذه المرة بأساليب حرب العصابات والكر والفر التي يجيدونها بشكل أساسي.

وقد إنضم إليهم في كفاحهم عدد من مناضلي ومجاهدي سوريا كالبطل الدمشقي محمد الأشمر، حيث عاد مع ثوار حوران من الأردن وشارك مع رفاقه الشوام بالمعارك البطولية في سهل حوران. ومن ثم دخل محمد الأشمر مع عدد من ثوار دمشق وثوار حوران إلى الغوطة الشرقية في زملكا وإبلا، وبدأو بتنظيم وحدات الفدائيين وحرب العصابات ضد المستعمر الفرنسي في غوطة الشام الشرقية.

لم تدم الهدنة مع الفرنسيين طويلاً بعد قمع الثورة في حوران بنهاية عام 1920، على الرغم من إحتجاز شيخ مشايخ حوران ورفاقة في السجن لدى قوات الإحتلال والحكم عليهم بالإعدام، والذين وثقوا بوعود الصلح التي أطلقها الجنرال غورو المتغطرس قبيل أستسلامهم. عاد المقاتلين الحوارنة إلى ساحات القتال ودخلوا مدنهم وقراهم وأخذوا يشنون الهجمات على القوات الفرنسية المنتشرة في سهل حوران. ربما لم يمر أسبوع واحد ولم تقع فيه مواجهة أو معركة مع قوات الإحتلال الفرنسي في مكانٍ ما في ربوع سهل حوران.

في الأشهر الأولى من عام 1921 بدأت مجموعات المقاتلين الحوارنة تتسلل بشكل سري من الحدود الأردنية إلى داخل القرى والمدن الحورانية السورية، وأخذت هذه المجموعات تشن الهجمات على مواقع قوات الإحتلال الفرنسي، وتشتبك معها في معارك مواجهات عسكرية مختلفة القوة والأهمية، الصغيرة المحدودة والكبيرة المؤثرة. كانت أهم هذه المعارك في الأشهر الأولى من الإنطلاقة الجديدية للثورة تتجسد في معركة الجمرك جنوب مدينة درعا, ومعركة زيزون, ومعركة وادي اليرموك, ومعركة الشجرة, ومعركة المزيريب, القريبة من الحدود الاردنية. ومن ثم توسعت ودخلت عمق الاراضي السورية في سهل حوران كمعركة تل عرار (المعروف بتل الخضر), ومعركة الزوية والبطيحة في الجولان، ومعركة الرفيد أيضاً في الجولان، وغيرها من المواجهات العسكرية المتعددة.

وقد شكلت هذه المعارك وهذه المواجهات بداية إنطلاقة جديدة لثورة الحوارنة في وجه المستعمر الفرنسي، تلك المقاومة التي لن تتوقف إلا بخروج المستعمر من البلاد السورية عام 1946 . لقد اربكت هذه المناوشات العسكرية المتناثرة مع الحاميات الفرنسية في سهول حوران

السلطات الفرنسية وصارت الصدامات العسكرية تأخذ طابع حرب إستنزاف وحرب غوار، أرهقت كثيراً الجيوش الغازية.
في الفصل التالي سيتم التطرق إلى بعض المعارك العسكرية الاساسية والواسعة في سهل حوران، والتي كان لها تأثير على مجرى الأحداث في حوران وفي الديار السورية، وليس جميع المعارك والمواجهات التي جرت، لأنها كثيرة وتحتاج لمساحة واسعة لحصرها وتدوينها، والتي بلغ تعدادها أكثر من 75 معركة ومواجهة.

معركة القنيطره

في الأردن تلقى ثوار حوران سوريا الخاضعة لسلطة المحتل الفرنسي، الذين أضطروا لترك مدنهم وقراهم، كل الدعم والتأيد والمآزرة من أهلهم من ابناء حوران على الجانب الاردني في لواء الرمثا وأربد والطيبة وقرى أم قيس، المطلة على سهل حوران السوري، والمقابلة لهضبة الجولان. وكثير من الأحيان كان شباب ورجال حوران الأردن يشاركون في القتال إلى جانب أهلهم في سوريا. وأصبحت قرى ومدن الأردن الشمالية تشكل القواعد الخلفية لعمل مجاهدي حوران سوريا أو القطاع الفرنسي من سوريا.

وفي أحد الإجتماعات في بلدة إربد الأردنية قرر قادة حوران بزعامة مصطفى الخليلي وفواز بركات الزعبي ومصطفى المقداد وغيرهم المتواجدون في هذا الإجتماع معاقبة غورو على ما ارتكبه من جرائم بحق الحوارنة وحق الشعب السوري. وخاصة معاقبته هذا المستعمر على الدمار الذي صنعه هذا المتغطرس في قرى وبلدات حوران قبل عدة أشهر. وقد ترصد الثوار أخبار وتحركات الجنرال هنري غورو، الحاكم العسكري لسوريا.
في أحد الأيام وصلتهم معلومات مفادها أن الجنرال غورو سيقوم بزيارة إلى بلدة القنيطرة في المنطقة الغربية من حوران. وأن تاريخ هذه الزيارة سيكون في صبيحة يوم 23 حزيران من عام 1921.

في صباح هذا اليوم 23 حزيران من عام 1921 كان كل من الشيخ مصطفى الخليلي، وأحمد مريود، وسلطان الطيار، وضيف الله الصالح ، وسالم العبد، ومحمد رجا المسالمة، وصادق حمزة، وأدهم خنجر قد وصلوا إلى المكان المحدد، ونصبوا كمين لقافلة الجنرال بالقرب من بلدة القنيطرة على طريق دمشق ـ القنيطرة. وبالفعل تحرك موكب الجنرال غورو برفقة رئيس أركانه وحاكم دولة دمشق حقي العظم، وذلك في صباح 23. 06. 1921 متوجهاً إلى القنيطرة.
ولما وصل موكب الجنرال غورو إلى مدخل بلدة القنيطرة، فاجأته مجموعة الثوار التي كان عددها أربعة عشر مسلحاً، فأطلقت النار باتجاه الجنرال فأصابه طلق في كم ذراعه الاصطناعي الخشبي، وأصيب حقي العظم بعدة طلقات، وقتل ضابط فرنسي كان يجلس في المقعد الامامي في نفس السيارة التي تقل الجنرال هنري غورو. لقد إعتقد الثوار أن الضابط الذي قتل هو الجنرال غورو، ولذلك أسرعوا إلى الانسحاب ومغادرة المكان، وأعتبروا أن هدفهم الذي جاءوا من أجله قد تحقق، وهو قتل الجنرال غورو.

لقد نجا غورو بإعجوبة من هذا الكمين المحكم، وقتل ضابط آخر غيره كان في نفس السيارة. وعلى إثر هذه المحاولة الفاشلة، بعثت السلطات الفرنسية بحملة كبيرة للانتقام من المواطنين في القرى المجاورة لمكان الحادث. فدمرت القرى والمزارع في جبات الخشب، والمنشية، وطرنجة، والأحمر، وتل الشيخة، وغيرها من القرى. كما دمرت سبع عشرة مزرعة في أرطانيا، وترانك، ومجدل شمس، وجبات الزيت، وحكم على سكان القرى بغرامات مالية باهظة.

لقد توارت مجموعة الثوار عن الأنظار وأقامت بين بيوت ومضارب عشيرة "ولد علي" البدوية، المنتشرة في المنطقة والممتدة بين الجولان

وأطراف مدينة دمشق. وخاصة أن أحد أفراد هذه المجموعة الفدائية المجاهدة كان ليس أقل من سلطان الطيار، شيخ مشايخ قبائل "ولد علي".

بعد عدة أسابيع من إختفاء الثوار، والبحث والتحري الفرنسي عن الثوار علمت السلطات الفرنسية بمكان وجود الثوار، وأقدمت على محاصرة المكان، وطلبت من الشيخ سلطان الطيار ورفاقه المحاصرين الإستسلام. لم يستسلم المحاصرين، لكن القوات الفرنسية المحاصرة بدأت بقصف مضارب عشيرة "ولد علي"، وحرق الخيام وقتل الناس. دامت المعركة والقصف الفرنسي الهمجي لليوم الثاني، حيث قرر الثوار المحصارين الإستسلام للقوات الفرنسية، حتى لا تحدث كارثة محققة لعشائر "ولد علي" المحاصرين هم أيضاً، وتقع بينهم خسائر مادية وبشرية كبيرة أكثر مما حصل. وقد سلم الثوار أنفسهم للقوات الفرنسية.

أثناء التحقيق مع الأسرى في السجن العسكري بدمشق، فقد تبين أن قاتل رامي المدفع الفرنسي المنصوب فوق تلة المانع هو شيخ النزل سلطان الطيار. وقد أصيب سلطان الطيار بساقه بثلاثة رصاصات أثناء هجومه وهوعلى ظهر فرسه على رامي المدفع. وأثبت التحقيق بأن قاتل الضابط الفرنسي برصاصة في صدره هو محمد رجا المسالمة. لقد حكم على عدد من الموقوفين بالإعدام، وكان من بينهم شيخ المجاهدين مصطفى الخليلي، الذي تم تهريبه مع رفاقه بعد ذلك من سجن القلعة في دمشق، من خلال تواطوء أحد الحراس المغاربة في الجيش الفرنسي في هذا السجن. وقد حكم على الآخرين المشتركين بمحاولة إغتيال الجنرال غورو بالسجن بأحكام مختلفة.

إن محاولة اغتيال الجنرال غورو علي طريق القنيطرة التي اشترك فيها أدهم خنجر، من جنوب لبنان، إلى جانب جماعة أحمد مريود، مع

مصطفى الخليلي ومحمد رجا المسالمة من حوران كانت السبب المباشر لإنطلاقة ثورة جبل حوران (جبل العرب) عام 1922. فقد هرب أدهم خنجر بعد عملية إغتيال غورو الفاشلة إلى جبل العرب إلى مكان إقامة سلطان الاطرش في بلدة القريا، وأقام في ضيافة وحماية سلطان الأطرش. وبغياب المضيف سلطان الأطرش أقدمت القوات الفرنسية على إعتقال أدهم خنجر الدخيل على عائلة الأطرش، والقيام بالتعدي على حرمة البيت والضيافة، بغياب صاحب البيت، مما نتج عنه نشوب أول تمرد مسلح لسلطان الأطرش علي الفرنسيين في عام 1922، وكانت هذه الحادثة الشرارة التي فجرت عدد من المواجهات بين سكان الجبل بقيادة سلطان الاطرش والقوات الفرنسية الغازية. وقد وقعت عدة مواجهات ومعارك بين الفرنسيين والمناضلين السوريين في جبل العرب بقيادة سلطان باشا الاطرش في قرية المزرعة، وفي قرية الكفر وفي مناطق إخرى في جبل العرب.

التحضير لإنطلاقة
الثورة السورية الكبرى

لقد خاض الحوارنة سلسلة من المعارك لا تنتهي مع الفرنسيين على مساحة سهل حوران خلال الخمسة أعوام الماضية التي سبقت إنطلاقة الثورة السورية الكبرى في عام 1925. وقد وقعت خسائر كبيرة في صفوف السكان الحوارنة وأصبح مجال المناورة والتكتيك في السهل صعب على الثوار، نظراً للمعطيات الجغرافية وكثافة تواجد القوات الفرنسية في سهل حوران. تدارس زعماء حوران الوضع العسكري وصعوباته وقرروا فتح مجال حيوي جديد لمقاتليهم من خلال فتح مناطق جبل حوران ذو التضاريس الصعبة والمناسبة لحرب العصابات أمام مقاتليهم. وكذلك تدارسوا إمكانية إشراك سكان جبل حوران في الجهد العسكري في جبهة مشتركة ضد العدو الفرنسي.

وقدعقد لقاء سري في تاريخ 13 حتى 15. 08. 1925 بين زعماء حوران لهذا الخصوص في قرية المسيفرة في شرق سهل حوران. للمفارقة أنه وفي هذه القرية، قرية المسيفرة، عقد أول لقاء بين زعماء سهل حوران وزعماء جبل حوران والقبائل البدوية في الجنوب السوري من أجل المشاركة في الثورة العربية الكبرى عام 1916 .

تم لقاء بين زعماء حوران في بلدة المسيفرة في شرق حوران، وكان اللقاء مخصص لكيفية التواصل مع زعماء جبل حوران في المنطقة الشرقية. وفي هذا اللقاء السري الذي عقد في قرية المسيفرة ضم كلٍ من فواز بركات الزعبي شيخ مشايخ الزعبية من قرية الرمثا الأردنية حاليا والمناضل المعروف لأهل حوران وسوريا، ومشاركة كل من شيخ مشايخ حوران اسماعيل الحريري من بلدة الشيخ مسكين، والنائب مصطفى المقداد من بصرى الشام، وفاضل المحاميد من درعا وصالح قناة من درعا، وعدد أخر من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وتم التوافق في هذا اللقاء على توجيه دعوة لسلطان باشا الأطرش مع عدد من زعماء الجبل للتباحث في هذا الشان.

وبعد توجيه الدعوة لسلطان الاطرش في بلدة القريا لحضور اللقاء السري هذا، والتي تبعد 20 كيلو متر فقط عن بلدة المسيفرة، مكان اللقاء السري، إستجاب سلطان الأطرش وحضر مع عدد من زعماء جبل العرب هذا اللقاء الموسع في بلدة المسيفرة. في اللقاء السري المشترك بين زعماء حوران السهل والجبل قدم زعماء حوران إقتراح محدد ينص على توحيد العمل العسكري بين السهل والجبل، وتعيين وتكليف سلطان الأطرش بقيادة القوات المسلحة المشتركة في الجنوب السوري في الكفاح ضد المستعمر الفرنسي. وفي هذا اللقاء تمت الموافقة إقتراح زعماء حوران وتم تكليف سلطان باشا الأطرش بقيادة جيوش الثورة في المناطق السورية الجنوبية.

ومن ثم بدأ العمل على توسيع دائرة الاطراف المشاركة في هذه الثورة، وتم التواصل مع الجهات السياسية والعسكرية الاخرى في دمشق والجنوب السوري. وقد عرفت لاحقاً بالثورة السورية الكبرى، وذلك بعد مباركة وإنضمام أطراف الحركة الجهادية والسياسية في مدينة دمشق

وريف دمشق إلى صفوف الثورة، من أمثال الدكتور عبد الرحمن شهبندر، ونسيب البكري، وحسن الخراط ،ومحمد الأشمر. وكان التنسيق والعمل والتحضير يجري على قدم وساق بين الاطراف المشاركة في هذا الحلف السوري.

توسعت المباحثات بين هذا الحلف المنعقد في جنوب سوريا وشملت العشائر البدوية في منطقة الصفا الواقعة إلى الشرق من جبل العرب (جبل حوران)، وإنضمت قبائل منطقة الازرق في الاراضي الاردنية إلى هذا الحلف العربي السوري الجديد. وضمت أيضاً في صفوفها المجموعات السورية المقاتلة في ريف دمشق، ومجاهدي حي الميدان بدمشق بقيادة كل من المجاهد محمد الأشمر، والمجاهد حسن الخراط. وكانت أطراف الحركة السياسية الوطنية في دمشق بقيادة المناضل عبد الرحمن شهبندر ونسيب البكري منذ البداية منخرطة في هذا التوجه الوحدوي للثورة السورية المسلحة. وقدم قادة الأحزاب السياسية في المدن السورية الاخرى أنفسهم كممثلين ومستشارين سياسيين، ومتحدثين بإسم الثورة السورية الكبرى المسلحة، التي إنطلقت شرارتها من قرية المسيفرة في سهل حوران في تاريخ 16. 09. 1925 .

وقد تبادل الثوار السوريون الرسائل واللقاءات والإتصالات والتشاور، وتم التنسيق بين الأطراف السورية لمواجهة المحتل الفرنسي. ووصل التواصل والتنسيق مع أطراف الحركة الوطنية السياسية والمسلحة في منطقة الجزيرة السورية في دير الزور والرقة، وأيضاً في جبل الزاوية وحماه.

معركة المسيفرة كانت إذاً أول المعارك السورية الوطنية بقيادة سورية موحدة ومشتركة، يقف على رأس قيادتها المناضل سلطان باشا الاطرش

من بلدة القريا في محافظة السويداء لاحقاً. ولهذا السبب سميت الثورة السورية بالكبرى، والتي امتدت من عام 1925 حتى عام 1927 بقيادة سلطان باشا الأطرش، وكانت باكورة معاركها، هي معركة المسيفرة على أرض حوران.

معركة المسيفرة
إنطلاقة الثورة السورية الكبرى

وكانت معركة المسيفرة هي أحد أهم هذه المعارك. وقعت المعركة في 16. 09. 1925على أرض قرية المسيفرة في المنطقة الشرقية من سهل حوران، وتوسعت ساحة المعركة وطالت القرى المحيطة بهذه القرية من أرض حوران. تبعد القرية عن مدينة درعا قرابة 30 كيلو متر شرقاً. وهذه القرية تتوسط عدد من القرى الحورانية، وسكانها لهم إمتدادات عائلية وعشائرية بعدد من القرى والبلدات الحورانية الأخرىن القريبة منها والبعيدة عن المكان. أكبر العشائر في هذه القرية هي عشرية الزعبية المعروفة في حوران وفي بلاد الشام. وفي هذه القرية، كما أصبح معروفاً، قد عقد إلاجتماع السري لبعض زعماء حوران للتحضير لمواجهة القوات الفرنسية التي تتحرك بالقرب من منطقة اللجاة الوعرة قبل حدوث معركة المسيفرة تلك بشهر واحد.

لقد بدات المعركة في المسيفرة، وبدات معها حرب الثورة السورية الكبرى ضد المستعمر الفرنسي. مع خيوط الفجر الاولى من ذاك اليوم بدأت معركة المسيفرة.
يقول سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية الكبرى في مذكراته عن تلك المعركة: " أن من مجريات الأحداث التي مهدت لثورة عام 1925م كان أن أرسلت حملة ميشو إلى الحوارنة الذين أثبتوا للجنرال غورو أن ثأرهم لمعركة ميسلون لم يستمهلوا به طويلاً أحفاد الصليبيين، وإن جوابهم على مقولته المشهورة أمام ضريح صلاح الدين قد كان حاسماً

في ذلك اليوم العظيم، فلقد اندحرت الحملة الفرنسية اندحاراً كاملاً، وتبعثرت جثث قتلاها وهياكل مدرعاتها وآلياتها المختلفة وأسلحتها الثقيلة بين السهول الممتدة من المزرعة شرقاً حتى قرية الدور، ومشارف بصرى الحرير غرباً، واستطاع العديد من ضباطها وجنودها أن يفلتوا من الأسر على الرغم من ملاحقة خيالتنا لهم فوصلت آخر أفواجهم إلى محطة أزرع مساء ذلك اليوم."

كانت معركة المسيفرة هي إستمراراً لسلسلة من المعارك والمواجهات العسكرية التي سبقتها بين الوطنيين السوريين وقوات الإنتداب الفرنسي على مساحة القطر السوري. وعلى وجه الخصوص في حوران. عدد كبير من المواجهات حدثت فوق سهل حوران وفي جنبات جبل حوران الذي يعرف الآن بجبل العرب. وقد سبقت معركة المسيفرة تحضيرات وترتيبات سياسية وعسكرية بين أطراف الحركة الوطنية السورية، تلك الحركة التي كان يطغى على أعمالها صفة المناطقية، على الرغم من حالة التضامن والتعاضد الشائعة بين أطرافها المختلفة في أيام الشدة والأزمات.

ففي دمشق كانت قوات المجاهدين تعمل في ريف دمشق في الغوطة الشرقية في دوما وجوارها والغوطة الغربية في الكسوة والمعضمية وكناكر وما جاورها تحت قيادة حسن الخراط والمجاهد محمد الأشمر. وفي جبل حوران كان ثوار الجبل يكاد ينحسر مجال عملياتهم الحربية في إمتداد رقعة قرى وبلدات جبل حوران بقيادة سلطان باشا الأطرش. وإلى الشرق من الجبل كانت القبائل البدوية مثل قبائل السرحان وقبائل السردية وبني خالد، وغيرها من القبائل الممتد مجال حركتها إلى داخل الأراضي الإردنية وحتى داخل الاراضي السعودية تمارس معارضتها للوجود الأجنبي على طريقتها الخاصة، وحسب الظروف الخاصة بها.

وكان هذا الحال في حلب وإدلب من منطقة جبل الزاوية بقيادة إبراهيم هنانو، وفي جبال الساحل كانت المجموعات التابعة للمجاهد صالح العلي تواجه القوات الفرنسية هناك في نطاق ضيق يشمل عدة قرى في منطقة طرطوس بعد ما فرض عليه الإستسلام عام 1920. وفي الجزيرة السورية، الحسكة ودير الزور والرقة، كانت القبائل بقيادة عياش وإبن مهيد تخوض حربها ضد المستعمر الانجليزي أولاً ومن ثم الافرنسي لاحقا، لوحدها ودون تنسيق مع بقية الحركات الثورية في المناطق السورية الاخرى. كذلك كان الحال في سهل حوران ومنطقة الجولان التي كانتا تعتبران مجال حيوي جغرافي وإجتماعي واحد، حيث كانت تسير المواجهات وتخاض المعارك مع قوات الإنتداب بقيادة الشيخ مصطفى الخليلي وفواز الزعبي وإسماعيل الحريري بشكل منفرد وتكاد تكون محصورة في سهل حوران والجولان.

قبيل معركة المسيفرة كانت هذه هي حالة الحركة الوطنية السورية المسلحة، وكانت الحركة السياسية المدنية السورية في المدينة لا تختلف كثيراً عن حال الحركة السياسية المسلحة. فالأحزاب المنتشرة بشكل أساسي في المدن الكبرى، دمشق وحمص وحلب كان لها طابع محلي، ولم ينتشر نفوذها وأنصارها إلى المدن والأرياف الأخرى، وبقيت حبيسة النظرة المحلية والعشائرية في أغلب الأحيان.

لكن معركة المسيفرة فقد تميزت بشكل كمي ونوعي وأخذت طابعاً وطنياً شاملاً، حيث إقترح زعماء حوران على سلطان باشا الأطرش قيادة المعركة المرتقبة مع الفرنسيين كتأكيد من طرفهم على إفشال مشروع السلطات الفرنسية التي كانت تسعى بشكل مستمر من خلاله على إثارة النعرات الطائفية بين الدروز في جبل حوران والمسلمين السنة في سهل

حوران، وتشيع سياسة فرق تسد بين جل الطوائف والأقليات العرقية في عموم سوريا، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن زعماء حوارن وجدوا أن في طبيعة جبل حوران الجغرافية الصعبة تتوفر شروط عسكرية أفضل لمجابهة قوات عسكرية فرنسية جرارة ومتطورة. فظروف الجبل تسمح بخوض معارك ومواجهات عسكرية بشروط تكتيكية أفضل من تلك المتوفرة في سهل حوران.

في إجتماع المسيفرة رسمت ملامح الكفاح الوطني السوري الشامل، وصعود الحس الوطني السورية والرابطة الوطنية السورية من خلال مشاركة عدد من الأطراف والمناطق السورية المختلفة في إستراتيجية سياسية وعسكرية مشتركة لمواجهة المحتل الأجنبي الفرنسي لبلادهم. بعد إجتماع المسيفرة توسعت أطراف الثورة وحوت في صفوفها مجاهدين سوريين وعرب من أكثر من منطقة.
لقد عرفت هذه الثورة بالثورة السورية الكبرى لأنها أخذت طابع وطني سوري شكلاً ومضموناً. وعلى أرض المسيفرة التي جرى فيها الإجتماع الوطني السري جرت أولى معارك الثورة السورية الكبرى.
هكذا ومرة أخرى جرت على أرض حوران أولى معارك الثورة السورية الكبرى وكان أغلب مقاتليها بسبب الموقع الجغرافي أيضاً من أبناء حوران. على أرض المسيفرة وأم ولد والسهوة والحراك والكرك دارت باكورة معركة الثورة السورية الكبرى.

كانت السلطات الفرنسية تحضر لحرب طاحنة ضد الحركة الوطنية السورية السياسية والعسكرية المتصاعدة. ولقد شعر الفرنسيون أن الضربات المتتالية التي توجه لهم في جنوب البلاد السورية في دمشق وريفها والسويداء وريفها ودرعا وريفها أصبحت خطيرة وتهدد مشروع الإنتداب الإستعماري برمته.

تقدمت القوات الفرنسية إلى وسط حوران محاذية لمنطقة اللجاة الوعرة ومرت بالقرى والبلدات الحورانية مثل ناحتة والكرك الشرقي، والغرية الشرقية والغرية الغربية، والمليحة الشرقية والمليحة الغربية وكذلك قرية الحراك، واستعد المجاهدون الحوارنة لمواجهة القوات الفرنسية المتقدمة.

وصلت القوات الفرنسية إلى قرية المسيفرة وبدأت ببناء الإستحكامات في القرية وعلى أطراف القرية وعلى بيادرها. ومن جانبهم تجمع المجاهدون الحوارنة بقيادة المجاهد الشيخ مصطفى الخليلي بالقرب من هذه القوات المدرعة في القرى المجاورة لقرية المسيفرة في أم ولد والكرك الشرقي والسهوة والجيزة والحراك. أبلغ سلطان الأطرش، القائد العام لقوات الثورة السورية بتحركات القوات الفرنسية في المنطقة، وأعلم أيضاً بمتابعة الفرسان الحوارنة للتحركات العسكرية الفرنسية ورصد تحركاتهم.
كان سلطان الأطرش في إجتماع لقيادة أركان قواته في قرية "عرى" عندما جائه مراسل يخبره بأنه يجب الهجوم اليوم على القوات الفرنسية، قبل أن يتمكن العدو من تعزيز إستحكاماته. يقول سلطان باشا الأطرش: " إذ بخيال قادم من قرية الثعله يحمل كتاباً الينا من محمد عز الدين جاء فيه نعلمكم بأن الجيش الفرنسي قد تمركز في قرية المسيفرة ونصب خيامه على البيادر والاراضي المجاورة لها وحفر الخنادق ومد الاسلاك الشائكة حولها وقد وصلت طلائعه فاشتبكت خيالتنا معها مساء امس وصباح اليوم ونقترح مهاجمة المسيفرة واحتلالها فوراً قبل ان تقوى شوكة الفرنسيين فيها وتغدوا قاعده حصينة لهم يشنون منها غاراتهم علينا . لقد بدت لي فكرة الهجوم على المسيفرة مغامرة خطيرة او عمليه انتحارية لا يجوز ان نقدم عليها بل ادركت مغزى الخطة الجديدة التي

كان الجنرال غاملان يتبعها بقصد استدراجنا الى تلك المنطقة السهلية الواسعة المكشوفة".

كانت الدبابات والمدافع الفرنسية تنتشر وتتجمع، وبين الحين والآخر كانت تحلق طائرات فرنسية فوق القرى والبلدات الحورانية، تستكشف المنطقة وتهاجم التجمعات المحتملة في المنطقة.

نزل من الجبل سلطان الأطرش القائد العام للثورة السورية بقواته وجاءت من الشرق مجموعات من القبائل البدوية المقاتلة، وأهل حوران جمعوا المقاتلين من المتطوعين من كل قرى حوران السورية والأردنية و كذلك من قرى الجولان. بدأت المعركة في الهجوم على القوات الفرنسية المتمركزة في قرية المسيفرة في ليلة 16. 09. 1925 من قبل المجموعة التي يقودها سلطان باشا الأطرش القادم من قرية المزرعة القريبة من المسيفر. وقد حدث خطأ أثناء تقدم هذه المجموعة حيث أطلق أحد المقاتلين طلق ناري قبل وصول القوة المهاجمة إلى مواقع العدو وقد تنبه العدو لهذه المجموعة وخسر العرب عنصر المباغتة، وسقط خلال هذا الخطأ وقبل بدء المعركة الحقيقية قرابة 200 شهيد من قوات سلطان الأطرش.

هاجم الحوارنة القوات الفرنسية من جهة الغرب والجنوب، واستمر القتال طوال الليل وطوال نهار اليوم الثاني، وامتدت ساحة القتال إلى القرى المجاورة كقرية أم ولد وقرية الكرك والسهوة. وقطع الثوار كل الطرقات المؤدية إلى مواقع ومتاريس القوات الفرنسية في ساحات المعركة، لكن فقدان فرصة المباغتة وتدخل الطيران الفرنسي في المعركة كان حاسما ووضع قوات الثوار في موقع صعب، ولم يستطع الثوار الإستمرار في

المواجهة المفتوحة في أرض مكشوفة أمام القدرة النارية للعدو. وإنتهت المعركة بإنسحاب المجاهدين في جنح الليل في ليلة 17. 09. 1925 .

يقول قائد المعركة سلطان الأطرش في مذكراته حول الخسائر البشرية في هذه المعركة: "وإنه من الواجب أن نثبت هنا الحقيقة عما يخصنا ويدخل في نطاق معرفتنا، أي عدد الذين استشهدوا من ثوارنا وكتبوا في صفحات أمتنا العربية والإسلامية، وتاريخ نضالها أروع صفحات الجهاد وهو البالغ 341 شهيداً وذلك من مجموع أولئك المجاهدين الأشاوس الذين خاضوا هذه المعركة وعددهم لا يتجاوز الأربعة آلاف مقاتل من مختلف قرى حوران والجبل وعشائر المنطقة وممن شاركوا معنا من مشاهير المجاهدين من بدو المنطقة ، مضافاً إليه بعض وجوه العشائر البدوية التي تقيم في الجبل." بينما كان عدد القتلى من الفرنسيين حوالي 500 عسكري حسب تقديرات سلطان باشا الأطرش. وكان عدد الجرحى من المقاتلين بالمئات. كانت معركة المسيفرة معركة وطنية شاركت بها كل مكونات الشعب السوري في جنوب البلاد.

بالتوازي مع معركة المسيفرة وما تبعها من معارك في مناطق جنوب سوريا كانت تجري مواجهات ومعارك بين الثوار السوريين والقوات الفرنسية في كثير من المناطق السورية المختلفة. ففي دمشق العاصمة نصب الثوار الحواجز والمتاريس في شوارع دمشق، وتبودل إطلاق الرصاص بين الثوار والعساكر الفرنسية. وقد قصفت القوات الفرنسية بالمدافع الأسواق والمحال التجارية الشامية. وسقط عدد كبير من الشهداء والجرحى وأحرقت المحال والأسواق. وقد نشب حريق في السوق والحي السكني في سيدي عامود والذي يعرف بحي الحريقة الحالي. وتفجرت الإشتباكات بين الثوار السوريين في منطقة الغوطة في أطراف دمشق وصمد الثوار هناك ولم يستطع الفرنسي من كسر شوكتهم.

وقد سجلت أحداث أخرى جرت في شمال وغرب سوريا, وفي مناطق دير الزور والجزيرة السورية تصدى فيها أبناء القبائل في الجزيرة لقوات المحتل الفرنسي. ودارت إشتباكات بين الطرفين في أكثر من مكان من سوريا.

فمعركة المسيفرة كانت المعركة الأولى التي تم التنسيق فيها بين عدد من فصائل الكفاح الوطني السورية. وبالتزامن والتوازي مع معركة المسيفرة إنطلقت أيضاً هبة شعبية في وجه قوات الإنتداب الفرنسي عمت كل سوريا، على الرغم من تمركز المواجهات العسكرية المباشرة في جنوب البلاد السورية.

معركة داعل
في وسط سهل حوران

أستمرت المعارك بين سكان سهل حوران بعد معركة المسيفرة و معركة الكسوة الثانية المشهورة. وكانت معركة بلدة داعل من أهم المعارك الحربية التي سطر فيها أبناء حوران صورة ناصعة من صور الكفاح والبطولة السورية. ففي 03. 10. 1926 دخل الثوار من مختلف قرى حوران بقيادة الشيخ مصطفى الخليلي إلى بلدة داعل الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط درعا بدمشق، وتقع إلى الشمال من مدينة درعا بمسافة 12 كيلو متر، في الساعات الأخيرة من الليل. فقد هاجم الثوار وبشكل مباغت القوات الفرنسية المتمركزة هناك. وكان الشيخ مصطفى الخليلي قد هرب من سجن القلعة بمساعدة أحد الجنود المغاربة قبل عدة أشهر من وقوع معركة داعل الشهيرة.

لقد دارت معركة حامية الوطيس بين الطرفين استمرت طوال يوم وليلتين متتاليتين، تدخلت فيها كل أنواع الأسلحة التي كانت تملكها فرنسا في تلك الأيام، وتدخلت الطائرات الحربية في المعركة في قصف المجاهدين الذين ينتشرون في السهل المكشوف حول بلدة داعل. وقد قصفت الطائرات الفرنسية البيوت ودمرتها على رؤوس ساكنيها. وأحدثت همجية العدو الفرنسي أضرار جسيمة في الممتلكات والأرواح في هذه البلدة الصامدة. كان قائد المعركة مصطفى الخليلي يقود المعركة من وسط

المدينة، وأتخذ من مؤذنة الجامع العمري الكبير في البلدة مركز وغرفة عمليات له ولمساعديه، ويوجه الثوار ويدير هجمات الثوار من هناك. على الرغم من قسوة العدو ووحشيته استطاع الثوار من القضاء على أكثر من نصف قوات العدو المرابطة في معسكر داعل. وتمكن الثوار من تحقيق النصر المبين على الفرنسيين في هذه المعركة الخالدة في تاريخ سوريا.

وتعتبر معركة داعل من المعارك السورية المجيدة والمهمة والتي تلت معركة المسيفرة بما أسفرت عنها من نتائج لغير صالح الثوار. معركة داعل كانت بمثابة رد إعتبار لثوار حوران وثوار سوريا. لقد استطاع الثور الحوارنة من طرد القوات الفرنسية من البلدة وتنظيف القرية من وجودهم.

كان هذا الإنتصار العسكري مهم لأهل حوران بشكل خاص وللمناضلين السوريين بشكل عام لعدة إعتبارات.

- الأول منها هو إعادة الإعتبار لمعنويات الثوار،
- وثاني هذه الإعتبارات هو فتح الطريق بين القرى الشرقية والغربية وإعادة التواصل مع مدينة درعا التي حاول المستعمر الفرنسي على عزلها وشل حركة ثوارها عبر تمركز قواته في قرية داعل وطفس وخربة غزالة. وداعل كانت تتوسط هذا الخط العسكري.
- وثالث هذه الإعتبارات حجم المشاركة الشعبية في هذه المعركة، حيث شارك أبناء وبنات هذه البلدة الأبية، شيباً وشباباً، في المجهود العسكري، والمساهمة الأساسية والمباشرة في سير المعارك وتحقيق النصر على العدو بما تيسر لهم من سلاح وحجارة وعصي وصبر على الدمار والخراب الذي أحدثته آلة الحرب الفرنسية في بيوت وممتلكات البلدة. وقد سقط الكثير من

الشهداء والجرحى من بين المواطنين المدنيين من سكان داعل في هذه المعركة العسكرية.

وقد تجسدت في هذه المعركة نموذج حرب العصابات الكلاسيكية بأروع صورها متلاحمة مع الحاضنة الجماهيرية للمقاتلين الثوار. ولهذا السبب تسمى بلدة داعل الأبية منذ ذاك التاريخ "بام الشهداء". هذا الإسم المرادف لبلدة داعل بقي على الدوام يعبئ أبناء هذه البلدة الحورانية جيل بعد جيل بالروح الوطنية ورح الفداء والثورة.

عندما نشات الثورة الفلسطينية في الستينات من القرن العشرين وإقيمت قواعد للثورة الفلسطينية في دول الطوق، لبنان وسوريا والأردن، كان أهل داعل على موعد مع الثورة ومع المجد من جديد، وأصبح عدد من أبنائها فدائيين وجزء من الثورة الفلسطينية. وقد أقدمت منظمة التحرير الفلسطينية في تلك الأيام على بناء أحد قواعدها الفدائية بالقرب من بلدة داعل. واستقبل أهل البلدة ثوار فلسطين بكل المودة والتضامن والترحاب. وكان الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات يتردد كثيراً على هذه البلدة، وقد نسج مع أهلها صداقات واسعة.

وبقي أبناء هذه البلدة الحورانية كبقية أبناء حوران أوفياء للقضية الفلسطينية وداعمين لها بكل ما أمكن. وكعقاب لهذا الموقف القومي الأصيل الشريف من أبناء بلدة داعل العزيزة قامت الطائرات الإسرائيلية في 08. 01. 1973 بقصف بيوت البلدة بالصواريخ مما تسبب بسقوط عدد كبير من الشهداء والجرحى وتدمير عدد من منازل البلدة. لقد بلغ عدد الشهداء الذين سقطوا جراء هذه الغارة البربرية الاسرائيلية على داعل ال 72 شهيدا من سكان هذه البلدة الأبية، وأصيب وجرح أيضاً ضعف هذا الرقم من المواطنين. لكن أبناء داعل الأحرار لم يزيدهم هذا

العدوان البربري إلا عزة وإصرارا على مواقفهم الشريفة في دعم الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية العادلة بشكل ثابت ومستمر.

الشاعر رشيد سليم الخوري، المعروف بالشاعر القروي، يصف بسالة أهل حوران بكفاحهم البطولي ضد المستعمر بقصيدة مطولة، منها البيت التالي:

من قمح حوران أراد وليمة فأتاه سم الموت من حوران

معركة الدلي الثانية

في نفس المكان وعلى أرض بلدة الدلي ولكن قبل ستة أعوام جرت معركة حامية الوطيس بين الجيوش الفرنسية وثوار حوران. وقد تكبد الطرفين المتحاربين في معركة الدلي الأولى خسائر فادحة بالأرواح والمعدات. في معركة الدلي الأولى في شهر تشرين الأول عام 1920 إستطاع الفرنسيون من دخول حوران وإكمال إحتلالهم لكل المناطق السورية. وعقدت إتفاقية وقف القتال بين الثوار الحوارنة وبين الجيش الفرنسي الغازي بعد هذه المعركة. وقد اعتقد الفرنسيون في تلك الأيام أن ضربة قاضية وجهت للحوارنة بعد هذه المعركة ولن يستطيع الحوارنة بعدها التجرؤ والوقوف بوجه الجيوش الفرنسية المعتدية. لكن الزمن أجاب على أوهام الفرنسيين وها قد عاد فتية حوران إلى ساحات الكفاح من جديد، من القنيطرة وداعل ودرعا والمسيفرة والدلي والشجرة وغيرها من ساحات الوغى والكفاح في سهل الخير والشرف والكرامة.

وقد جاء في كتاب" صور مشرقة من نضال حوران" بأنه في العاشر من تشرين الأول عام 1926 وبعد اتفاق فرنسا وانكلترا على محاصرة الثورة السورية خرجت قوة فرنسية تستعرض قوتها باتجاه منطقة الدلي الواقعة شمال مدينة درعا ب 30 كم، واشتبكت مع المجاهدين الذين تصدوا ببسالة لتلك القوة المتغطرسة، مما أسفر عن أسر 30 جندياً وقتل 22 آخرين بينما فر الباقي، كما استطاع المجاهدون الاستيلاء على خيول وأسلحة القوة الفرنسية".

كانت نتائج المعركة التي دارت قرب قرية الدلي نصراً مبين للمجاهدين الحوارنة على القوات الفرنسية. وفي رمزية المكان أن قوات الثوار الحوارنة قد استعادت قدراتها العسكرية وأن الشعب في المنطقة لازال هو الحامي والمؤيد للثورة رغم الجراح والدمار الذي تسببت به قوات الإحتلال قبل عدة سنين في نفس المكان. وقد أطلق على هذه المواجهة اسم معركة الدلي الثانية. وقد حدثت عدة مواجهات بين ثوار حوران ودوريات قوات العدو الفرنسي في المنطقة القريبة من الدلي وإلى الغرب منها في التلال الواقعة بين بلدة نوى وبلدة الشيخ مسكين القريبتين.

تتابعت المعارك واستمرت بين الفرنسيين والقوى الوطنية السورية في جنوب البلاد وفي غيرها من المناطق السورية حتى نهاية عام 1927، حيث تمكن الفرنسيون من إخماد جذوة الثورة السورية المسلحة بشكل عام، وثورة أبناء حوران التي بدأت مباشرة بعد معركة ميسلون عام 1920 بشكل خاص ولكن إلى حين وإلى أزمنة قادمة.

وقد رحل في نهاية عام 1927 عدد كبير من الثوار الحوارنة والسوريين مع عائلاتهم من جديد إلى مناطق الأردن المحاذية، والتي تقع تحت سيطرة قوات الإنتداب البريطاني. حيث أقام الكثير من عائلات سكان سهل حوران وعائلات المجاهدين من دمشق وريفها في قرى حوران الأردنية، وأقام مجاهدي جبل حوران مع عائلاتهم في منطقة الأزرق في شرق الأردن.

مرحلة كفاح السوريين
السياسية

في أعوام الثلاثينات ساد هدوء نسبي الساحات السورية، وكان النضال السوري يأخذ الشكل السياسي والنضال المدني بالدرجة الأولى، وخاصة بعد أن تجاوبت سلطات الإنتداب الفرنسي مع جزء من مطالب الحركة الوطنية السورية السياسية. لقد توجت التفاهمات الفرنسية ـ السورية في بإنتخاب برلمان سوري عام 1929 ومن ثم وصلت التوافقات مع الفرنسيين في عقد المعاهدة السورية ـ الفرنسية في عام 1936 ، حيث أقر الفرنسيون للقوى السياسية السورية ولأطراف الحركة الوطنية السورية بإستقلال سوريا وبالحكم الذاتي وحرية عمل الأحزاب وحرية الصحافة. وإجراء الإنتخابات النيابية وتشكيل الحكومات المنتخبة وعمل دستور للبلاد ونشيد وطني، وكذلك رفع العلم السوري الوطني على الدوائر الرسمية للدولة. وهو نفس علم الثورة السورية الحالي المعروف بعلم الإستقلال كما نصت عليه معاهدة 1936 .

لقد حقق السوريين كثير من الإنجازات التي تضمنتها إتفاقية 1936 . وقد تشكل جيش وطني سوري لكن تحت إشراف قوات وسلطات الإنتداب، وإعترفت فرنسا في هذه الإتفاقية بإستقلال سوريا، لكن إحتفظت بوحداتها العسكري داخل الأراضي السورية وتأجل موضوع سحب قوات الإنتداب إلى ما بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية. أي ان إستقلال سوريا كدولة وكيان سياسي مستقل عن فرنسا قد تمت صياغته وتأكيده في معاهد عام

1936، لكن جلاء القوات الفرنسية تم من الناحية الفعلية في 17 نيسان من عام 1946 .

وقد استمر كفاح السوريين الذي غلب عليه الطابع السلمي السياسي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945. بعد إنتها الحرب الكونية الثانية مباشرة تجدد النضال الوطني السوري وأخذ من جديد شكله العسكري الصدامي.

سيمر وقت إضافي آخر حتى تعترف فرنسا بحرية الشعب السوري وتعترف باستقلال سوريا الكامل، وستسيل دماء سورية غزيرة حتى يتحقق هدف الإستقلال الوطني السوري. وستكون حوران من جديد أيضاً على موعد في صنع الأحداث السياسية والعسكرية، وستكون درعا حجر الرحى في أنشودة الحرية الخالدة وملحمة إستقلال الوطن السوري المنشود، التي ستجبر فرنسا وجيوشها على الرحيل وترك سوريا للسوريين.

في تاريخ 03. 09. 1939 بدأت الحرب العالمية الثانية بإجتياح ألمانيا أراضي جمهورية بولندا، ودخلت فرنسا، البلد المنتدب على سوريا، طرفاً في الحرب إلى جانب بريطانيا وأمريكا والإتحاد السوفييتي وغيرها من الدول ضد حلف دول المحور المتكون من ألمانيا وإيطاليا واليابان وغيرها من الدول. دامت الحرب العالمية الثانية خمسة أعوام وعدة أشهر. وأثناء سير المعارك وقعت فرنسا ذاتها تحت الإحتلال النازي الألماني. وقد نصب الألمان النازيين حكومة فرنسية صنيعة لهم وموالية لهم في باريس المحتلة. عرفت هذه الحكومة "بحكومة فيشي".

وقد تولت حكومة فيشي الصنيعة إدارة السلطات والقوات الفرنسية في دول وبعض مناطق المستعمرات الفرنسية الأخرى. وكانت سوريا أحد هذه الدول. فقد إنتقلت السلطة الفرنسية في سوريا من جبهة إلى جبهة أخرى. وفي العام الذي سبق نهاية الحرب العالمية الثانية إستطاعت الجبهة الشعبية المعادية للإحتلال الألماني لفرنسا بقيادة الجنرال ديغول من الدخول لباريس بمساعدة الحلفاء وتحرير فرنسا من الإحتلال الألماني، والتمكن من طرد حكومة فيشي العميلة من هناك. بعد هذه التطورات في أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص أصبحت سوريا بشكل تلقائي تحت قيادة وتأثير حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية التي شكلها الجنرال ديغول.

كانت الحركة الوطنية السورية والحكومات السورية الوطنية تتفاعل مع هذه التطورات العالمية والمحلية وتحاول تحقيق بعض المكاسب السياسية لمصلحة السلطة والدولة السورية في ظل الإنتداب الفرنسي. وقد حصلت الحكومات السورية على وعد من الطرفين الفرنسيين المتصارعين على السلطة والنفوذ في باريس، حكومة فيشي وحكومة ديغول، بمنح السوريين الإستقلال السياسي بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية مقابل أن تعمل الحكومة والقيادات السياسية السورية على عدم إثارة المشاكل لفرنسا في سوريا في أثناء سير معارك الحرب العالمية الثانية.

لقد حنث الفرنسيون بوعودهم للشعب السوري وللقيادات السياسية السورية، وإضطر الشعب السوري على خوض معارك عسكرية وبذل الدماء من جديد لإرغام المستعمر الفرنسي على الرحيل وترك سورية حرة للسوريين. وكان الحوارنة مرة أخرى على موعد مع التاريخ، وظل الحوارنة أوفياء لهذا الإرث الثقافي والكفاحي على مر السنين ولم يحيدوا أبداً عن طريق التضحية والفداء من أجل وطن حر وشعب عزيز. وعلى

أرض حوران يعمد يوم الإستقلال بالدم القاني. ومرة أخرى تنتفض حوران عن بكرة أبيها لتكتب السطر الأخير في نشيد الحرية في المعركة المفتوحة التي عرفت بمعركة "المذخر" في مدينة درعا.

أثناء كفاح الشعب السوري المرير، وبعد سلسلة المعارك العسكرية والجماهيرية الطويلة، والتي كان لأهل حوران النصيب الأكبر في هذه المعارك، توصلت الحركة الوطنية السورية متمثله بمجموعة من الأحزاب والشخصيات الوطنية مع الطرف الفرنسي في عام 1936 إلى أتفاقية سياسية حصل فيها السوريون على بعض الحقوق السياسية في تشكيل الحكومة، وفي خوض الإنتخابات، وإدارة شؤون البلاد السورية العامة. عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة عام 1936 أو معاهدة إستقلال سوريا، حيث أعترفت الحكومة الفرنسية بإستقلال سوريا عن فرنسا، لكن البرلمان الفرنسي لم يوافق ولم يصادق على بنود أستقلال سوريا في هذه المعاهدة إلا عام 1941.

في تاريخ 3. 9. 1939 نشبت الحرب العالمية الثانية التي كانت فرنسا أحد أطرافها. وكانت الحقوق الوطنية السورية هي أول ضحايا هذه الحرب الكونية، حيث أقدمت فرنسا في هذا العام على منح تركيا لواء الإسكندرون السوري، كرشوة سياسية لتركيا مقابل إمتناع تركيا عن الدخول طرف في هذه الحرب إلى جانب ألمانيا، كما كان الحال عليه في الحرب العالمية الأولى.

حاولت الحركة الوطنية السورية في نهاية عام 1939 وبداية عام 1940 وفي أجواء وشروط الحرب العالمية الثانية الجديدة من الضغط على الطرف الفرنسي من أجل تكملة الإستقلال الوطني وإجبار الفرنسيين على إجلاء قواتهم المرابطة على الأرض السورية. لقد تجاوبت بعض

الأطراف الفرنسية مع مطالب السوريين، وخاصة الديغوليين منهم المناهضين للقوات النازية. وتسارعت الأحداث ودخلت فرنسا طرفاً في الحرب العالمية الثانية، وأصبحت سوريا تحت سيطرة حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان، وهرب ديغول مع مجموعة مناهضة للاحتلال الالماني لفرنسا، وخرج من فرنسا وأقام في بريطانيا. وقد شهدت الأراضي السورية في هذه الأثناء صداماً عسكرية بين قوات حكومة فيشي الفرنسية وقوات فرنسا الحرة الديغولية، وكذلك صدامات مع القوات البريطانية المتحالفة مع الديغوليين. وقد انتهت المواجهات الفرنسية ـ الفرنسية على الأرض السورية في سنة 1941 بسيطرة الديغوليين، أي قوات فرنسا الحرة، والحلفاء على سوريا. وقد قدم هذا الطرف الفرنسي الديغولي الوعود للسوريين بمنح سوريا الأستقلال التام بعد إنتهاء وتوقف معارك الحرب العالمية الثانية.

وقدم الديغوليون الذين يسيطرون على سوريا استعدادهم للخروج من سوريا ومنح سوريا الإستقلال الكامل بشرط أن تعمل القوى والأحزاب الوطنية السورية على تهدأة الشعب السوري أثناء مسيرة الحرب الكونية الثانية، وذلك لضرورات عسكرية بحتة، كمساهمة سورية في دحر القوى الفاشية الألمانية والإيطالية في هذه الحرب. وقد تجاوبت الحركة الوطنية السورية مع هذه المقترحات وصدقت الوعود الفرنسية الديغولية.
كما هو معروف فقد توقفت الحرب العالمية الثانية بهزيمة دول المحور، ألمانيا وإيطاليا واليابان وحلفائهم، وإنتصار جبهة الحلفاء، أمريكا والإتحاد السوفييتي وبريطانيا وفرنسا، وقد وقع الألمان وثيقة الإستسلام في هذه الحرب الكونية المدمرة في تاريخ 08. 05. 1945.

وقد أستبشر الشعب السوري بإنتهاء الحرب العالمية الثانية، وعمت الاحتفالات كثير من المدن السورية ورفع الاعلام السورية الوطنية بكثافة

على مؤسسات الدولة في دمشق وأغلب المحافظات والمدن. أيضاً رفعت أعلام الدولة السورية المستقلة، سارت عدد من المظاهرات الشعبية في درعا إبتهاجاً بإقتراب يوم جلاء القوات الاجنبية عن سوريا وتطبيق بنود معاهدة 1936 ، معاهدة الاستقلال.

بعد عدة أيام من إنتهاء الحرب العالمية الثانية واستسلام ألمانيا طالبت أحزاب الحركة الوطنية السورية وأعضاء البرلمان السوري برئاسة سعد الله الجابري الحكومة الفرنسية، أي الحكومة الديغولية، الإلتزام بالوعد الذي قطعته على نفسها للسوريين، وتنفيذ قرار الإنسحاب من الأراضي السورية، ومنح الشعب السوري حق الإستقلال التام بجلاء القوات الفرنسية والاجنبية الاخرى عن التراب السوري. لكن الفرنسيين أداروا الظهر لتلك الوعود، وإعتبروا أن هذا الوعد لا يعنيهم بشئ، ولا مبرر لتنفيذه بأي شكل من الأشكال. وخرجت مظاهرات طلابية وشبابية في دمشق وحمص ودرعا وعدد من المدن السورية تندد بموقف الحكومة الفرنسية الغادر والمخادع، وداعم لمطالب الحركة الوطنية السورية، ولرئيس البرلمان السوري، الذي يطالب برحيل القوات الفرنسية عن أرض سوريا.

لقد أصاب الحكام الفرنسيون جنون العظمة، وطغى على نفوسهم شعور الغطرسة بالقدرات العسكرية التي يمتلكونها، وكان ردهم على المطالب السورية المحقة، بعد التهديد والوعيد، بأن أقدموا في يوم 29. 05. 1945 على قصف البرلمان السوري بالمدافع، وتدمير أجزاء منه، وقتل 27 عنصر من حراس البرلمان. وكان في نفس اليوم قد وجه الجنرال اوليغار روجيه، القائد العام للقوات الفرنسية في سوريا إنذارا إلى رئيس مجلس النواب السوري سعد الله الجابري يطلب فيه أن تقوم حاميه البرلمان بتحية العلم الفرنسي عند إنزاله في المساء عن دار الأركان الفرنسية.

رفض الجابري هذا الطلب الإستفزازي الفرنسي، وأغلق جلسة البرلمان، وخرج من البرلمان مع بقية أعضائه الذين كانوا متواجدين هناك في جلسة برلمانية لتدارس الموقف الفرنسي المتغطرس. وبعد ساعات من خروج النواب السورين من قاعة البرلمان قصفت القوات الفرنسية المعسكرة في دمشق مبنى البرلمان السوري بالمدفعية. لقد لعب الحظ فقط دوراً كبيراً في نجاة أعضاء البرلمان السوري، الذين كانوا الهدف المباشر من هذا العدوان المباشر على ممثلي الشعب السوري. كان هذا التصرف الأهوج هو الرد السياسي بلغة عسكرية متغطرسة على مطالب الشعب السوري بالحرية والإستقلال. لقد تمرد الفرنسيون وسيطرت عليهم أوهام القوة والعظمة، وإقتنع الكثير من قادتهم بأن نتائج الحرب العالمية الثانية تمنحهم الحق بالتنصل من كل وعد، ومن جميع الالتزامات التي قطعوها على أنفسهم للسوريين أثناء الحرب العالمية الثانية، وتعيد في نفوسهم غريزة المستعمر المتجبر على الشعوب الأخرى.

بعد عدة ساعات فقط من جريمة قصف البرلمان السوري بالمدفعية والرشاشات وقتل الجنود السوريين، حراس البرلمان، وعندما إنتشر خبر التصرفات المخزية والهمجية لسلطات الإنتداب الفرنسية في البلاد السورية، ونظراً لقرب حوران وتلاصقها الجغرافي والبشري بمدينة دمشق، أنتشر الخبر في قرى وأرياف حوران كالنار بالهشيم، وجاء الرد المباشر والحاسم سريعا على هذا التصرف الإجرامي من مدينة درعا عاصمة الإقليم. تلك الهبة الفطرية التي عرفت "بهبة أو ثورة المذخر".

ثورة درعا وحوران الكبرى الثانية
(ثورة أو هبة المذخر)

المذخر هي كلمة محلية أطلقها سكان درعا على الثكنة العسكرية الفرنسية المقامة على كتف وادي الزيدي بالقرب من محطة السكك الحديدية في مدينة درعا. والسبب في هذه التسمية هو إحتواء هذه الثكنة العسكرية على مخازن الأسلحة والذخيرة للجيش الفرنسي في المنطقة الجنوبية من سوريا. كانت هذه الثكنة العسكرية بالإضافة للمطار العسكري المجاور لها، والمقام عليه الآن حي المطار حاليا، يشكلان القوة العسكرية الفرنسية الأساسية في جنوب البلاد السورية المناط بها السيطرة على مفترق الطرق الدولي بين بلاد الشام والجزيرة العربية، وكذلك إلى البحر المتوسط في أرض فلسطين. فهذه الثكنة والقاعدة العسكرية الفرنسية بالإضافة إلى ثنكة إزرع في وسط حوران تعتبران من أهم المواقع العسكرية الإستراتيجة لقوات الإنتداب الفرنسي في بلاد الشام.

فالسكة الحديدية، المعروفة بالخط الحديدي الحجازي، كانت تتفرع في درعا إلى دمشق شمالاً وإلى عمان جنوباً، وإلى حيفا واللد والرملة غرباً، وكذلك إلى بصرى الشام شرقاً. وكذلك كان حال الطرق البرية الأخرى. فدرعا تشكل في هذا الجانب عقدة للمواصلات البرية على المستوى المحلي والإقليمي هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كانت درعا في الجانب العسكري والسياسي تشكل منطقة الجبهة المواجهة للقوة الإستعمارية العالمية البريطانية الأخرى المتواجدة في بلاد الشام. فإلى الجنوب من درعا على الحدود الأردنية السورية وعلى بعد أربعة كيلو مترات فقط

من مدينة درعا كانت ترابط القوات البريطانية المسيطرة على الأرض الأردنية. فالقوات الفرنسية المرابطة في المذخر وفي المطار المقام في درعا المحطة تعتبر أحد الأعمدة الأساسية لقوات الإنتداب الفرنسي في سوريا. فقد كان "للمذخر" أو الثكنة العسكرية الفرنسية في درعا بعداً إستراتيجياً في فلسفة الوجود الفرنسي في سوريا وفي الشرق العربي.

بعد الهجوم الفرنسي على البرلمان السوري، في ذاك اليوم وبعد عدة ساعات من سماع خبر قصف البرلمان السوري من قبل قوات الإنتداب الفرنسي في 29. 05. 1945 وتوارد الأخبار إلى مسامع الناس في مدينة درعا وفي قرى وبلدات حوران بأن شهداء سقطوا جراء هذا الإعتداء الفرنسي على البرلمان السوري، كذلك وصول أخبار بقدوم تعزيزات للقوات الفرنسية إلى درعا قادمة من دمشق، بدل من إنسحاب القوات الفرنسية من سوريا، التي كانت تطالب به الاحزاب السياسية والشعب السوري، هب رجال درعا قاطبة دون سابق إنذار، وبغير أي إتفاق أو تخطيط مسبق، وحاصروا "المذخر" العسكري. والمذخر هو الثكنة أو القاعدة العسكرية الفرنسية المحصنة المتمركزة في مدينة درعا، التي كان ذكر إسمها يرعب الجيوش الجرارة. وقام ثوار درعا أيضاً بمحاصرة المطارالعسكري المجاور لهذه القاعدة العسكرية، المقام عليه حالياً حي المطار في المدينة. وحاصر ثوار درعا محطة السكة الحديدية في المدينة القريبة من المطار، وقطعوا جميع الطرق المؤدية إلى المدينة. فرض رجال درعا سيطرتهم الكاملة على جميع مراكز السلطة السياسية والعسكرية والمدنية في المدينة، من مخافر شرطة ودرك وسجن مركزي ودار الحكومة المعروفة "بالسراي" خلال ساعات قليلة.

إنتشرت أخبار ثورة درعا على الفرنسيين رداً على العدوان الفرنسي على البرلمان السوري في ربوع وأرجاء حوران، ونادى المنادي في

القرى والبلدات بأن أهلهم في درعا يهاجمون المعسكرات الفرنسية ويحاصرون قواته هناك بأسلحتهم المتواضعة ويحتاجون إلى النجدة والمساعدة. كما خلقهم الله على هذه الفطرة، وعلى وقع نشيدهم الخالد "من حوران هلت البشاير لعيونك يا شعب ياثاير"، وبلمح البرق كان المئات من أبناء حوران المسلحين قد وصلوا إلى مدينة درعا، وإنخرطوا فوراً إلى جانب أهلهم سكان المدينة في معركة ثورة المذخر المشهورة، وفي معركة تحرير المطار، ومحاصرة السراي الحكومية والسجن المركزي ومحطة القطار، وقطع جميع الطرق المؤدية إلى المدينة.
وثبت التراث الحوراني هذه الفزعات الباسلة بعدد من القصائد والاغاني الشعبية المنتشرة في المجتمع الحوراني. على سبيل المثال:

جانا الصايح من درعا يحشد ويفزع فينا
وركبنا وسط مليحان وعلى درعا عدينا

من القرى الشرقية جاء الفرسان والمقاتلين، من الطيبة، ونصيب، والجيزة، ومعربة، والمتاعية، وصماد، وبصرى الشام. أبناء هذه القرى الواقعة بالقرب من الخط الحديدي الحجازي الشرقي قاموا بالإستيلاء على أحد قطارات السكة الحديدية الذي صادف وجوده أثناء فزعة أبناء القرى الشرقية في أحد محطات سكة الحديد، وقد أجبروا الثوار سائق القطار على تغيير هدفه وإجبارة على حمل المقاتلين من هذه القرى القريبة والتوجه بهم بسرعة ومباشرة إلى درعا. ولم ينسى هؤلاء النشامى من رفع أعلام الثورة السورية على مقدمة "البابور" بلغة أهل حوران، القطار المحمل بالثوار. كانت صفارت "البابور" القطار البخاري المتواصلة تختلط مع أهازيج وأغاني أهل حوران الحماسية، تستنهض الهمم وتثير الشجون في القرى الحورانية التي يعبرها قطار الثورة الشعبية المتجه إلى الغرب، إلى مدينة درعا الثائرة.

وجاء أهل القرى الغربية والقرى الشمالية من حوران، من الشجرة، وتسيل، وطفس، وداعل، والشيخ مسكين، ونوى، والصنمين، وجاسم، والحارة، وجلين، وجملة وغيرها، وكالعادة مشياً على الأقدام أو ما تيسر من مركوب وما تيسر من سلاح أيضاً.

وهذا وصف لاجواء القتال حول المذخر:

بالمذخر يوم طلينا حلوة الموازير بأيدينا
حاربنا فرنسا بسلاحه ربعي للعدو ذباحة

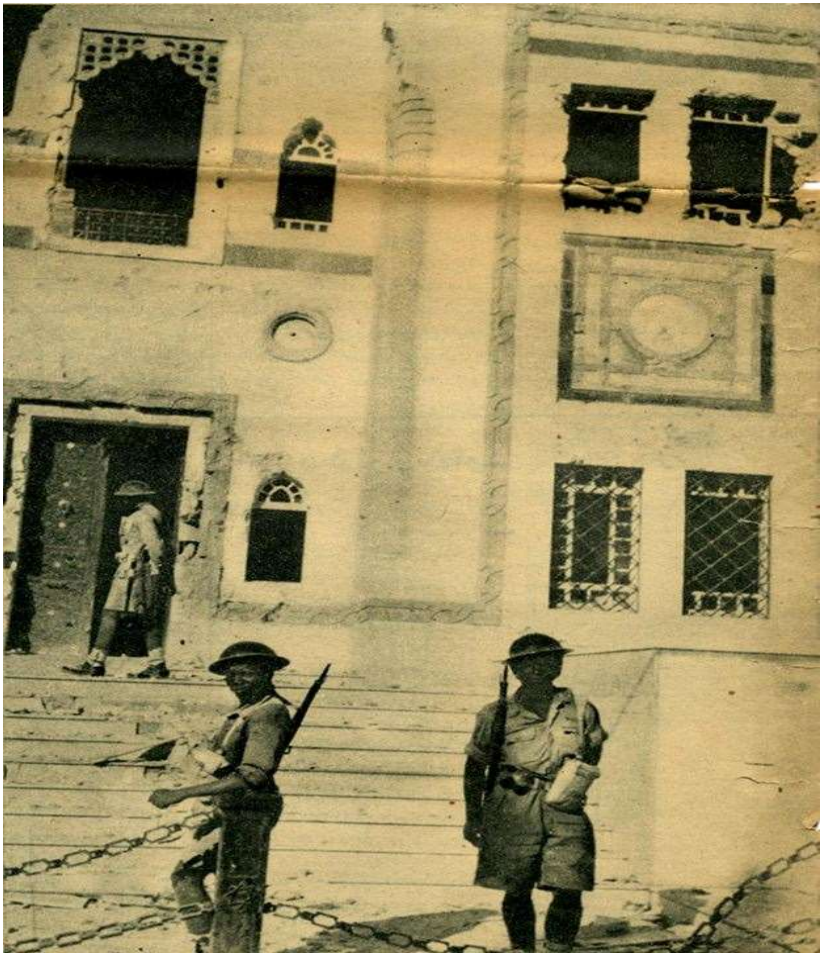

الجنود السنغاليين في الجيش الفرنسي أمام البرلمان السوري بعد اقتحامه وارتكاب المجزرة فيه , في 29 ايار 1945م

ومنهم من جاء ولم يملك في يده أكثر من شبرية أو خنجر لأنه لا يملك بندقية أو مسدس، جاء إلى درعا على أمل أن أحد الثوار في درعا يتمكن من إعارته إي نوع من السلاح ويشارك مثل غيرة من المقاتلين في الثورة الشعبية. وأهل الرمثا وإربد والطرة وعمراوة وبشرى وسال وغيرها من قرى حوران القريبة من درعا والواقعة تحت سلطة الإنتداب البريطاني في الإردن عبروا الحدود وإنضموا إلى أهلهم في درعا كبقية أبناء قرى حوران.

لقد تجلت فزعة الحوارنة من جديد بأرقى صورها الإنسانية بما تحتويه من قيم الشجاعة والبسالة والإيثار. لا يسأل الناس في هذه الظروف الصعبة عن إحتمالات الخطر، وعن الربح والخسارة، بل فقط عن سرعة تقديم المساعدة والعون للأهل، وإلى إناس يحتاجون المساعدة في تلك الساعات وتلك الأيام العصيبة. لله دركم يا أهل حوران على هذا الإرث الشعبي الكفاحي النبيل.

كما كان يروي كبار السن من أهل درعا وقراها حول هذه المعركة الخالدة في التاريخ السوري، بأن درعا تحولت في ذاك اليوم المشهود وخلال ساعات إلى ساحة حرب، تجد في كل زاوية من زوايا المدينة متراس، وخلف كل حجر وجدار مقاتل أو أكثر، والرجال لا يعرفون أسماء بعضهم البعض، لكن ملامحهم وجوههم متشابهه يظهر عليها قرار التصميم على النصر، والإنتقام لشهداء البرلمان السوري التي قصفته قوات الإنتداب الفرنسي قبل ساعات، ونصرة لأهلهم في دمشق العاصمة، إنها عاصمة وطنهم وعاصمة تاريخهم، إنها عاصمة روحهم الأبدية.

حوصر "المذخر" القاعدة العسكرية الفرنسية، واستمرت المعارك طوال النهار وطوال الليل لثلاثة أيام وليالي متواصلة، والثوار مصممون على

إقتحام هذه القاعدة وتحريرها من الغزاة. ثلاثة أيام متواصلة وكان يسقط الشهداء والجرحى من طرف الثوار لكنهم لم يتزحزحوا عن هدفهم، ومع مرور الوقت كانت معنويات الثوار تزداد قوة وخاصة بعد وصول ثوار جدد من القرى المحيطة ووصول بعض الأسلحة والذخيرة، وفي نفس الوقت كانت معنويات الجنود الفرنسيين تنهار وتزداد سوءاً.

في نهاية اليوم الثالث وعند الغروب وبعد إنتشار خبر تحرير بلدة إزرع بعد إقتحام الثكنة العسكرية الفرنسية في بلدة إزرع من قبل الثوار الحوارنة هناك، ووصول أسلحة من هناك للثوار على جبهة دراعا، تبرع عدد من فرسان درعا ومن فرسان حوران بإقتحام أسوار الثكنة العسكرية الفرنسية المسورة بالاسلاك الشائكة، والتي ترتفع عن سطح الأرض قرابة مترين ونصف المتر، من خلال القفز بخيولهم فوق هذه الأسوار مهما كلف الثمن.

لقد تشكلت مجموعات فدائية من أجل تنفيذ هذه المهمة في تلك الليلة. ويذكر أهل درعا وأهل حوران أسماء هؤلاء الشباب البواسل كيف أغاروا على ظهور خيولهم من أكثر من مكان وفي نفس الدقيقة. فمنهم من إستطاع القفز من فوق الأسوار على ظهر فرسه، ومنهم من علقت أقدام فرسة بالأسوار الشائكة وتعثر وسقط شهيداً أو جريحاً على سور القاعدة الشائك، لكن الخطة قد نجحت ودخل الثوار عنابر العدو واستحكاماته المقامة في المذخر.

إستطاع ثوار حوران في هذه الليلة من إختراق صفوف العدو، ودارت المعارك طوال الليل في عين المكان وبالسلاح الأبيض، مما أربك القوات الفرنسية المحاصرة وأجبرتها على ترك مواقعها ووقوع أفرادها بين فار

وأسير وقتيل وجريح. وتم تحرير الثكنة العسكرية في تلك الليلة المجيدة وتم معها تحرير مدينة درعا بالكامل، ومن ثم بدأ تحرير حوران وسوريا.

في منطقة تقع بين قرية إزرع وقرية محجة تم ألقاء القبض وأسر الضابط الفرنسي كورو قائد القاعدة العسكرية الفرنسية "المذخر" مع عدد من الجنود الفرنسيين، بعدما تمكن من الهروب من المذخر في جنح الظلام. وقد تم تسليم كورو والاسرى الفرنسيين الاخرين إلى الشخصية الوطنية المعروفة في حوران، الشيخ محمد خير الحريري في بلدة الشيخ مسكين. والذي كان بدوره مشارك مع رجاله في السيطرة على الطريق الرئيسي القادم من دمشق إلى درعا عبر بلدته قرية الشيخ مسكين، ومنع القوات الفرنسية التحرك على هذا الطريق الرئيسي.

وقد قام الشيخ محمد خير الحريري بدوره بتسليم الأسرى العسكريين الفرنسيين إلى السلطات البريطانية، وطلب من البريطانيين أثناء تسليمه الأسرى لهم بأن يقوم البريطانيين بتذكير السلطات الفرنسية بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم للسوريين بوجوب الرحيل عن بلادهم بعد إنتهاء الحرب الكونية الثانية، وتحذيرالفرنسيين بإسم حوران وسوريا من مغبة التورط مرة أخرى في حرب مفتوحة مع الحوارنة ومع السوريين، لأننا كسوريين مصممون على تحرير وطننا مهما كلف الثمن.

محمد خير الحريري شيخ مشايخ حوران في تلك الفترة، ونجل الشيخ إسماعيل الحرير، كان حاسماً وعبر عن واقع حال السوريين في تلك الأيام بكل صدق ووضوح وبلاغة وبسالة. لقد فهم الفرنسيون معنى ثورة حوران، كرد مباشر وفوري على قصفهم البرلمان السوري، كرمز للوطنية السورية. وأيقن الفرنسيون أن السوريين بعد ثورة حوران

المسلحة جادون في نيل حريتهم. ومع هذا النصر المبين في درعا وأزرع وبقية مناطق حوران بدأت مرحلة جديدة من تاريخ سوريا.

كان عدد شهداء معركة المذخر في درعا 5 شهداء. وبلغ عدد الجرحى 65 جريح.
وكان الشهداء هم: غالب صباح المقداد من بصرى الشام، ودهش نايف المقداد من بصرى الشام، وإبراهيم عقلة البرماوي من مدينة درعا، وعلي إرشيد المسالمة من مدينة درعا، ومحمد شتيوي الياس من مدينة درعا.

حصار الثكنة العسكرية
في إزرع

كانت في اليوم الذي إتفضت به درعا على المحتل الفرنسي وجموع الفلاحين الحوارنة تتجمع وتحاصر مراكز الشرطة والجيش الفرنسي وتسيطر على مفارق الطرق المؤدية إلى مدينة درعا الثائرة. وفي اليوم التالي للبدء بحصار المذخر والمواقع العسكرية الفرنسية في مدينة درعا أقدم أبناء حوران من القرى الشرقية والشمالية، من ناحتة والكرك الشرقي وبصر الحرير وإزرع والمليحة والغرية والشرقية والحراك على محاصرة الثكنة العسكرية الفرنسية في بلدة إزرع القريبة من قراهم، والتي تبعد عن درعا مسافة 25 كيلو متراً شمالاً. وكان من بين القادة الذين شاركو في حصار إزرع كل من حسن الطباع، وهو قائم مقام بلدة إزرع من أبناء مدينة دمشق الفيحاء. والملازم أول محمد علي الحلبي من سكان مدينة حلب الشهباء. ومصطفى مالك مدير دائرة المالية في بلدة إزرع، وكذلك طلال سليمان قائد عشائرمنطقة اللجاة البدوية القريبة من بلدة إزرع. وبرز من بين القادة العسكريين المناضل عبد القادر أبازيد من سكان مدينة درعا.

وقد تمكن كل من الشيخ عبدو النزال وفيصل الرفاعي وداوود الحسين من بلدة إزرع بقيادة الشباب الثائر وتنظيمهم وتسليحهم، ومن ثم مهاجمة القوات الفرنسية المتمركزة في أطراف بلدة إزرع، والتقدم وحصار الثكنة العسكرية الواقعة في طرف البلدة.

وكان لكل من الشيخ محمد أبو رومية السعدي، من قرية دير البخت في شمال حوران، والد الشيخ النائب يوسف أبو رومية، الذي فضح أكاذيب نظام الأسد حول ثورة الحرية والكرامة في عام 2011 في وسط وداخل مجلس الشعب. وتمكن الشيخ حسني المزيد، من مدينة نوى في غرب حوران، والشيخ محمد خير الحريري، وأحمد الرفاعي من بلدة الشيخ مسكين، في وسط حوران، وكان لهم الدور الكبير في السيطرة على جميع الطرق والمعابر المؤدية إلى مدينة درعا وبلدة إزرع ، والتي كانت تدور بهما المعارك المسلحة بين الثوار والقوات الفرنسية. فقد تمكن هؤلاء الثوار من منع وصول أي إمدادات فرنسية إلى قواتهم الفرنسية المحاصرة في هاتين المدينتين، درعا وإزرع، في جنوب سوريا. كانت جميع الطرق من الكسوة وغباغب حتى مدينة درعا في الجنوب قد وقعت خلال اليوم الأول للثورة تحت سيطرة أبناء العشائر من حوران والجولان.

لقد كان للمرابطين على الطرق والمسيطرين على المعابر الأثر المباشر على صنع النصر، وتمكين الثوار في درعا وإزرع من تحقيق النصر العسكري المبين على قوات المستعمر الفرنسي، ووضعت القوات الفرنسية في حالة حرب حرجة، ومواجهة عسكرية مفتوحة على مساحة جميع مناطق وأرض حوران في آنٍ واحد. لم يك الفرنسي يحسب لهذا الحال حساب، ولم يتوقع حصول ذلك في هذه السرعة على الأقل.

لم يك هذا الفعل الثوري مخطط من قبل أي طرف، ولم يك هناك أي أثر لتشاور أولقاء قد حدث بين زعماء حوران لتنسيق المواقف. ولم تك اي تحضيرات او خطوات وخطط عسكرية مسبقة قبل البدء في محاصرة القاعدة العسكرية في درعا والقاعدة العسكرية في إزرع. بل كانت

الأحداث تتسارع وتفاجئ الجميع في تدحرجها وصيرورتها التي سارت عليها. لكن أقرب تفسير لهذه الحالة المتكررة في سهول حوران هو ذاك الحس الفطري عند أبناء حوران بأن أهلهم في خطر ولا بد من المآزرة والمشاركة، ولا بد من فعل أي شئ يقدم من الجميع، وكل حسب إمكانيته وبما تيسر. هذا الإحساس الفطري عند أبناء حوران قد خلق هذه الديناميكية الفريدة في الحركة والمواجهة مع العدو الفرنسي. إنها تجليات "الفزعة الحورانية" الحاضرة في ضمير ووجدان أبناء المنطقة كلما لاح الخطر في الافق.

سقطت إزرع في يد الثوار قبل سقوط "المذخر" في درعا بعدة ساعات، وذلك من خلال إستسلام قائد القوات الفرنسية الضابط "لوفيك" للثوار في إزرع، وقام بتسليم نفسه وقواته والاسلحة والذخيرة في المعسكر للثوار في إزرع. وقد رفع علم الإستقلال على سارية القاعدة العسكرية الرئيسية في إزرع يوم 31. 05. 1945 وإغتنم الثوار كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر التي كان الثوار بأمس الحاجة لها في مدينة درعا. وسارع الثوار في نقل تلك الأسلحة والذخائر في نفس الليلة التي تمكنوا فيها من الإستيلاء على القاعدة إلى أهلهم في مدينة درعا.

إنتشر خبر سقوط إزرع بين الناس في درعا وفي جميع أطراف حوران. وزاد هذا الخبر من معنويات المقاتلين وشد من عزيمتهم، وخاصة مع وصول كميات من الأسلحة والذخائر وأعداد من المقاتلين من منطقة إزرع إلى درعا. وفي المقابل تهاوت ومعنويات الجنود الفرنسيين الذين عرفوا بدورهم عن مصير قواتهم في إزرع، وعدم تمكن السلطات الفرنسية من فك الحصار عنهم من الخارج.

بعد ساعات من وصول السلاح من إزرع إلى درعا قرر الثوار في تلك الليلة حسم الصراع في درعا مع الفرنسيين مهما كلف الثمن، وشكلوا من أجل هذه المهمة فرق إقتحام فدائية لدخول القاعدة العسكرية، وإجتياح الثوار المذخر في تلك الليلة بهجوم كاسح تزامناً مع صلاة الصبح ومع الخيوط الأولى لفجر يوم 01. 06. 1945 .

لقد تم إقتحام الثكنة العسكرية في درعا بعد وصول السلاح والمقاتلين من إزرع، وقد قتل وأسر جنود هذه القاعدة، وهربت أعداد كبيرة منهم وتفرقوا بين القرى والسهول، وكان من بين الفارين الضابط "كورو" قائد ثكنة المذخر العسكرية في درعا، وقد ألقي القبض عليه مع مجموعة من الجنود الفرنسيين الهاربين في وسط حوران.

ثورة حوران هذه كانت ملحمة فريدة من الصمود والصبر والبسالة، وأيضاً تجليات حالة التكاتف والتضامن الفريدة من نوعها التي أبداها أهل حوران في ثورتهم المجيدة على غطرسة المستعمر، وهي ستعيد حكام فرنسا إلى رشدهم وتجبرهم لترك سوريا لأهلها، ويغادروا البلاد السورية من تأخير وتباطوء.

لقد لقن الحوارنة المستعمر الفرنسي وحكومة الجنرال ديغول المتغطرس درساً لن ينسوه في ثورة المذخر. بعد هذا النصر المبين على قوات فرنسا وقوات الجنرال ديغول، بطل تحرير فرنسا في الحرب العالمية الثانية، ورئيس الجمهورية الفرنسية بعد الحرب، أنشد الشعراء الحوارنة الأهزوجة الشعبية المنتشرة في حوران وسوريا والتي تقول في مطلعها

ديغول خبر دولتك باريس مربط خيلنا

إن مضمون هذه الأهزوجة الشعبية يعكس ويعبر عن روح التحدي والإباء والإنتصار التي عاشها ثوار حوران وأهل حوران في تلك الحقبة من الزمن، وأثناء الثورة العارمة والمواجهات العسكرية الشرسة مع قوات الإحتلال الفرنسي في عام 1945. لا زالت هذه الأهزوجة الشعبية تردد في الأعراس والأفراح في قرى ومدن حوران حتى يومنا الحاضر، تعبيراً عن كفاح أهل المنطقة في سوريا وتحدوا بها فرنسا العظمى المتغطرسة. القليل من الناس، وخاصة الأجيال السورية الحالية، من يعرف خلفية هذه الأهزوجة الشعبية المنتشرة في حوران، والتي تروي عن أيام خوالي عمدت أيامها وأحداثها بالدم القاني، وأعادت الجنرال ديغول وحكومته إلى رشدهم، وتنازلوا عن غرورهم، وقرروا الرحيل عن أرض سوريا.

الثورة المسلحة
تعم المناطق السورية

بعد تحرير "المذخر" القاعدة العسكرية الفرنسية، والمطار العسكري في درعا على يد ثوار حوران، وبعد السيطرة على معسكر إزرع، قويت شوكة الحوارنة في وجه الغزاة الفرنسيين.

تطايرت أخبار معارك وإنتصارت أهل حوران ووصلت إلى أسماع أبناء سوريا في جميع المحافظات السورية، وتواترت أخبار محاصرة مخافر الشرطة والدرك المنتشرة في قرى حوران. وخلال أيام قليلة بعد معركة المذخر وتحرير مدينة درعا تماماً من القوات الفرنسية، كانت كامل حوران في قبضة ثوارها وأهلها، وأصبحت حوران من الناحية العملية بحكم المحررة، ولم يعد أي وجود يذكر للقوات الفرنسية في جنوب سوريا.
لقد تحررت حوران وكانت أول منطقة في سوريا وبلاد الشام تصبح خارج سيطرة قوات الإنتداب الفرنسي. لقد كانت حوران أخر منطقة في سوريا يسيطر عليها الغزاة الفرنسيين، وها هي أول منطقة في سوريا تصبح محررة، وتخرج عن سيطرة قوات الانتداب الفرنسي.

لقد أعادت إنتفاضة درعا وثورة أبناء حوران المسلحة الحياة من جديد للحركة الوطنية السورية، وإنتشرت حالة التململ والثورة والإستعداد للثورة في عموم الأرض السورية. إلتقط أبناء سوريا الأحرار شرارة

الثورة السورية الجديدة المشتعلة في أرض حوران وإنطلقت التحركات الشعبية والعسكرية في أغلب المدن الأرياف السورية مباشرة في اليوم التالي بعد شيوع أخبار تحرير درعا وسيطرة الثوار هناك على المنطقة. ففي دمشق العاصمة أقرب المدن والمناطق السورية على سير الأحداث العسكرية في حوران إنتفضت فيها الأحياء والحارات الشامية في وجه المستعمر، ونصب أحرار دمشق المتاريس في الشوارع والحارات الشامية. في القابون، الحي الدمشقي الشرقي، حمل رجال الحي السلاح ونصبو المتاريس في الشوارع. وهاجم الثوار مراكز السلطات الفرنسية في الحي. وكان أهل الميدان قد حاصروا مخفر الشرطة القائم في طرف الحي الغربي. وبعد ساعات قليلة كانت دمشق تغلي ويسمع إطلاق وازيز الرصاص في كل مكان وفي كل حي من أحياء العاصمة. وقد بادر أبناء الريف الدمشقي في الغوطة الشرقية بمدينة دوما وغيرها، وفي معضمية الشام وداريا في الغوطة الغربية بمهاجمة المعسكرات والمواقع الفرنسية. وقطع أبناء الزبداني طريق بيروت دمشق، وأصبح وضع القوات الفرنسية في تلك المنطقة حرج تماماً.

وتمردت حلب، مدينة سعد الله الجابري رئيس البرلمان السوري الذي قصفه الفرنسيون قبل عدة أيام، وسقط على أبوابه 27 شهيداً، على قوات الإحتلال. ودارت في هذه المدينة السورية العريقة معارك ومواجهات دامية مع قوات الإنتداب الفرنسي، ووقعت هجمات مباغتة ضد القوات الفرنسية المتمركزة في المدينة. وبعد عدة أيام لحق الريف الحلبي بالمدينة، وانتفض جبل الزاوية في وجه المستعمر. في محافظة حماة أسقط الثوار هناك طائرتين فرنسيتين. وكانت القبائل والعشائر في الجزيرة السورية، في كلٍ من دير الزور والحسكة المتمردة على السلطات الفرنسية جاهزة من سنين طويلة وكانها تنتظر هذه الفرصة

الذهبية التي وفرتها لهم حوران وأعلنت الثورة على الفرنسي من جديد. لقد أصبحت كامل البلاد السورية في حالة هيجان وثورة على المستعمر.

لقد إعتقد المستعمر الفرنسي أن البلاد السورية قد خنعت وأرهبها إنتصار فرنسا العسكري على جيوش الألمان وعلى غيرهم من جيوش القوى العظمى، وأنهم يستطيعون الآن البقاء في سوريا إلى أجل غير مسمى دون إزعاج، ودون مشاكل حقيقية تواجههم. وأن الشعب السوري الذي لم يتجاوز تعداده المليوني نسمة لا يمكنه التفكير بمواجهة فرنسا بعد خروج فرنسا منتصرة مع المنتصرين في الحرب العالمية الثانية. على أساس هذا الإعتقاد الخاطئ نكث الفرنسيون بوعودهم وبتعهداتهم التي قطعوها على أنفسهم مع السوريين. لقد تغطرس الفرنسيون كما هو الحال عند كل مستعمر ومعتدي.

جاءت معركة "المذخر" في درعا وثورة حوران الثانية التي أشعلت البلاد السورية صفعة قوية في وجه فرنسا، ووضعت السلطات الفرنسية وحكومة ديغول، التي كانت تدعي الحرية ومواجه الغازي الأجنبي الألماني في مأزق سياسي وأخلاقي حقيقي، وأرغمت الرئيس ديغول والسلطات الفرنسية على إعادة التفكير، وإعادة الحسابات السياسية من جديد، وبشكل جدي في وضع سوريا السياسي. وأجبرته على إعادة النظر في مستقبل قوات الإنتداب الفرنسي في هذا القطر العربي السوري.
لم تدم طويلاً فترة إعادة التفكير الفرنسية والإعتراف من جديد بحقوق الشعب السوري الوطنية، وفي الإعتراف بحق تقرير المصير، ونيل الإستقلال والحرية المنشودة، فهي بدأت فعلياً بليلة تحرير المذخر في درعا وتوسعها وتحرير كامل حوران بعدة أيام.

17 نيسان يوم جلاء
القوات الفرنسية عن سوريا

وعلى المستوى الدولي فقد إنتقلت القضية السورية بعد ثورة حوران الثانية وثورة الشعب السوري الشاملة على قوات الإنتداب الفرنسي إلى المحافل الدولية، حيث كان يشارك رئيس وزراء سورية فارس الخوري في سان فرانسيسكوا في إجتماعات تأسيس الأمم المتحدة بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية. فقد طرح فارس الخوري القضية السورية على جدول أعمال برامج الأمم المجتمعة هناك. وأصبحت القضية السورية وجلاء القوات الفرنسية أحد القضايا الدولية التي تم تداولها بجدية في جلسات الأمم المتحدة، وتم البت.

أدت المفاوضات الثلاثية بين الحكومة السورية وفرنسا وبريطانيا والتي كانت طرف وتحتل جزء من الساحل السوري في 22 يوليو إلى تسلم السلطات السورية مسؤولية الثكنات العسكرية كافة في البلاد وإلى إنشاء الجيش السوري في 1 أغسطس والذي غدا عيد الجيش السوري, ومن ثم في ديسمبر 1945م توصلت المفاوضات الثلاثية إلى نتيجة مفادها رفع القضية إلى مجلس الأمن الدولي مع تعهد فرنسا وبريطانيا بعدم استعمال حق النقض, وناقش المجلس القضيّة السوريّة واتخذ في شهر فبراير 1946م قراره بوجب جلاء فرنسا وزوال الانتداب, نفذت فرنسا قرار مجلس الأمن سريعًا وسحبت آخر قواتها من سوريا في 17 نيسان 1946م، وهو اليوم الذي بات اليوم الوطني للبلاد، أو يوم الجلاء. في

نهاية المطاف وافقت حكومة فرنسا في مفاوضاتها مع الحكومة الوطنية السورية وأطراف الحركة الوطنية على الخروج من سوريا.
وقد طرحت القضية السورية على مجلس الامن الدولي وصدر قرار من مجلس الأمن في هذا الخصوص، ووافقت فرنسا على هذا القرار، الذي يتضمن منح سوريا الإستقلال الكامل ورحيل القوات الافرنسية والاجنبية عن الرض السورية. وافقت فرنسا على رحيل قواتها عن سوريا والاعتراف التام بإستقلال سوريا، ونيل الشعب السوري حريته وأستقلال وطنه بعد 26 عاماً من الاحتلال والهيمنة الفرنسية على مقدرات الشعب والوطن.

كانت تجربة معركة "المذخر" وثورة أهل حوران التي تلت هذه المعركة ماثلة أمام الأطراف على طاولة المفاوضات السورية ـ الفرنسية. وكانت سلسلة المعارك التي جرت أحداثها على أرض حوران والتي كان أهمها معركة المسيفرة المجيدة ومعرك داعل والدلي وغباغب في سهل حوران، والمزرعة والكفر في جبل العرب، ومعارك الغوطة وجبل الزاوية، ومعارك الساحل السوري، ومعارك الفداء في بلد أبو الفداء في حما وحمص العدية، وسلسلة مواجهات أبناء البادية والجزيرة السورية مع قوات الغزو الفرنسي ماثلة أمام أعين الأطراف وحاضرة على طاولة المفاوضات ولا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال. كانت ملاحم البطولة السورية سند ودعم للمفاوض السوري وكانت في نفس الوقت عوامل ضغط وكابوس يرافق المفاوض الفرنسي تهز كيانه وتبطل مفعول أوراق ضغطه على الجانب السوري.

كانت معركة المذخر هي أخر معارك الشعب السوري العسكرية مع قوات الإنتداب الفرنسي، والتي وضعت موعد محدد لتصفية وجود القوات الفرنسية على الأرض السورية في 17 نيسان من عام 1946 أي

بعد إحدى عشر شهراً من موقعة المذخر وهبة أهل حوران المجيدة في تلك الأيام الخالدة من تاريخ سوريا والعرب. عرف هذا اليوم بيوم جلاء القوات الفرنسية عن الأرض السوري وإتمام عملية إستقلال سوريا عن فرنسا التي أقرته معاهدة عام 1936 . يوم الجلاء فرضه السوريون على المستعمر الفرنسي بقوة السلاح وغزارة الدماء السورية الطاهرة، وكان للحوارنة من هذا الكفاح ومن هذه الدماء الزكية نصيب وافر الشرف.
على أرض حوران جرت أعنف معارك الشعب السوري مع قوات الإحتلال الفرنسي، وعلى أرض حوران جرت آخر معارك الشعب السوري مع قوات الإنتداب الفرنسي.
كانت حوران آخر منطقة في سوريا يدخلها المستعمر الفرنسي، وكانت حوران أول منطقة في سوريا يخرج منها المستعمر الفرنسي. وظلت على مر السنين ميزة التضامن والنخوة غير المشروطة بين أهلها هي الطاقة التي تحرك الأحرار بالفطرة التي جبلوا عليها. كلمة السر في هذا كله هي "الفزعة الحورانية" المعهودة.

مرة أخرى يحسم مصير سوريا على أرض حوران، وبدماء وآلام أهلها، ومرة أخرى يقرر مصير معتدي وظالم على أرض حوران الأبية، وعلى أيدي أهلها النشامى. في حوران قرر مصير الجيش الرابع العثماني في عام 1918، ومعه قرر مصير السلطنة العثمانية في بلاد العرب. وفي هذه المرة عام 1945 يقرر مصير الجيش الفرنسي على أرض حوران، ومعه يقررمصير مستقبل الإنتداب الفرنسي في سوريا والشرق العربي.
ومرة أخرى تكون حوران وأهلها نقطة البدء ونقطة النهاية. إنه سحر المكان وقيم المروءة التي تسري في عروق أهلها، والتي تنشدها الأجيال في الأشعار والأهازيج في الأفراح والأتراح، وفي حقول القمح وفي البيدر، في هذه البقعة من أرض الله الواسعة. حوران أم النشامى وأم

اليتامى، يا حامية كل ضعيف ومطعمة كل جائع، بارك الله بأرضك وأهلك وحماكي الله من كل مكروه.

طائفة
من رجـالات حـوران

كثر هم رجال حوران الذين برزت أسمأهم في ساحات الكفاح والنضال ضد المستعمر الأجنبي. وكثر هم الرجال الذين ساهموا في صنح تاريخ سهل حوران التليد، لكن في التالي سيتم التطرق لبعض هذه الأسماء وتسليط الأضواء عليها بشكل مختصر.

لقد ظلمت حوران وظلم أهلها وقادتها أكثر من مرة، ويعاد هذا الغبن مرة إخرى من جديد بعد تفجر ثورة الحرية والكرامة بسلبهم شرف إنطلاقة هذه الثورة في 18. 03. 2011 من خلال تحريف تاريخ إنطلاقة هذه الثورة المباركة دون أي مسوغ.

وقد برزت في مسيرة أبناء سهل حوران الكفاحية أسماء كثيرة، وتنوعت ميزات وصفات هؤلاء الرجال البواسل، وقد كانت ميادين كفاحهم وصفاتهم الإجتماعية أيضاً متنوعة ومختلفة. فمنهم من كان شيخ من شيوخ العشائر، ومنهم من كان شيخ وعالم دين، وآخرون كان يغلب على طابع عمله المجال العسكري. وفئة أخرى من رجالات حوران تميزت بإتقان فن السياسة وأظهرت حنكة في قيادة الناس في الظروف الحرجة. الشيخ مصطفى الخليلي أحد سكان مدينة درعا من سهل حوران، ولد في مدينة درعا عام 1875 وتوفي عام 1947 ودفن في قرية المغير بمحافظة اربد الاردنية، الذي قال مقولة الشهيرة: "لن نتخلى عن السلاح حتى

يرحل اخر جندي فرنسي عن ارض الوطن". ويعتبر الشيخ مصطفى الخليلي الشخصية الحورانية الأكثر شيوعاً ومعرفة في النضال العربي في المنطقة الجنوبية من بلاد الشام. ويعتبر بحق الأب الروحي والقائد الميداني الحقيقي لكفاح أهل حوران ضد المستعمر والجيوش الأجنبية في جنوب سوريا وشمال الأردن. القائد العسكري الميداني المجاهد مصطفى الخليلي قاد كفاح أهل حوران أكثر من 25 عاماً متواصلة، بقي هذا المجاهد الزاهد بعيداً عن الأضواء الإعلامية، ولم يكترث بكل الإغراءات والمكاسب المادية والمعنوية، ورحل عن دنيانا بصمت ووقار، ولم يكترث لتزوير المزورين وإحتفالات المحتفلين، ومن نسي وتناسى ذكره في كتب المدارس والجامعات، والصحف والمجلات، وتذكير الأجيال السورية برجالها البواسل العظماء.

ويعتبر الشيخ المجاهد مصطفى الخليلي محل إجماع بين مجاهدي ومناضلي أهل حوران وسكان حوران، في الماضي والحاضر، وكان هذا المجاهد الكبير محل إحترام وتقدير من رجالات الثورة العربية الكبرى، والثورة السورية الكبرى في جميع مراحل الكفاح العربي والسوري في النصف الأول من القرن العشرين. لكن أسم هذا المجاهد الرمز قد تم نسيانه وتناست أفعاله وغابت سيرته الذاتية عن أدبيات وسجلات الدولة السورية، كما نسي وتناست أفعال غيره من مجاهدي وقيادي حركة التحرر العربية والسورية من الحوارنة في عقود مرحلة ما بعد الإستقلال.
لا يوجد مبرر وتفسير منطقي لهذا التناسي وهذا التصرف المشين بحق هذا الشيخ المجاهد الجليل، وحق ثوار وأحرار حوران، وحق قيادات حوران السياسية والعسكرية المتميزة، وما تركته من بصمات منيرة على تاريخ سوريا وتاريخ بلاد الشام.

وكان لحوران نصيب كبير في مساهمات رجالها في حقل العلم والمعرفة وكتابة التاريخ أمثال هذه الرجال كان فايز زعل الغصين من منطقة اللجاة. هذه الشخصية الفذة كان الصديق والمستشار السياسي للأمير فيصل، وأحد قادة الثورة العربية على المستعمر العثماني. وكان فايز الغصين أحد قادة كفاح الشعب السوري ضد المستعمر الفرنسي، وهو بجدارة المؤرخ العربي الوحيد الذي سجل أحداث الثورة العربية الكبرى. وهو من سجل بعين العالم والعارف والشاهد المشارك أحداث كفاح الشعب السوري ضد المستعمر الفرنسي. ويعتبر فايز زعل الغصين المرجع الأول لأحداث سوريا في عشرينات القرن العشرين. أهم كتبه هو كتاب "مذكراتي حول الثورة العربية". المرجع العربي الاساس، بل الوحيد عن أحداث الثورة العربية الكبرى.

الشيخ أسماعيل الحريري هو أحد ممثلي أهل حوران في مجلس المبعوثين (البرلمان) في السلطنة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان أحد الشخصيات العربية التي إنخرطت في الكفاح القومي العربي، وأحد قادة منظمة العربية الفتاة. والشيخ إسماعيل الحريري هو أحد المبادرين في تنظيم لقاءات بين زعماء حوران لتدارس وضع الوطن السوري بعد دخول القوات الفرنسية وطرد الملك فيصل من سوريا. وفي لقاء ضم زعماء حوران في قرية الشيخ مسكين عام 1920, وفي هذا اللقاء أنتخب الشيخ اسماعيل الحريري القائد العام لقوات المجاهدين السوريين في حوران. وقد تشكلت في هذا اللقاء الهام هيئة أركان قوات الثورة السورية في حوران ضمت بين صفوفها عدد من السياسيين والعسكريين وقادة الرأي في منطقة حوران.

وتحت قيادة أسماعيل الحريري جرت كل معارك مجاهدي حوران ضد القوات الفرنسية التي جرت على أرض حوران في عام 1920 . بعد

سلسلة معارك دامية خاضها أبناء حوران ضد قوات الغزو الفرنسية أضطرت بعدها قيادة الثورة إلى المساومة والتسليم لقوات الجنرال غورو. لقد تم إعتقال الشيخ 1920 وإنتقلت قيادة الثورة الميدانية إلى الشيخ محمد خير أسماعيل الحريري، نجل الشيخ إسماعيل، مع بقية أركان قيادة ثورة حوران من الزعماء الذين لم يسلموا أنفسهم لقوات الإحتلال وتواروا عن الإنظار، أو من أضطروا للخروج والذهاب إلى الأرض الأردنية.

محمد خير الحريري هذه الشخصية الحورانية لعبت دور كبير في قيادة كفاح أهل حوران لأكثر من 25 عاماً ضد قوات الإنتداب الفرنسي في سوريا. وقد أمتد نفوذ محمد خير الحريري إلى خارج حوران السورية وحوران الأردنية، إلى مناطق أخرى داخل المحافظات السورية، وخاصة عند القبائل والعشائر العربية في منطقة الحسكة ودير الزور كقبائل شمر وطي والعقيدات وبني نعيم. وكانت علاقة محمد خير الحريري الناطق الرسمي والممثل المباشر لثوار حوران جيدة مع ثورا دمشق وثوار الغوطة وثوار جبل العرب.

أحد الرموز الوطنية السورية والعربية الأخرى من أرض حوران كان فواز بركات الزعبي. كان يتمتع فواز الزعبي بدائرة معارف سياسية وإجتماعية كبيرة، وهو أحد الساسة المؤثرين في المنطقة. من المعروف أن منظمة "العربية الفتاة" أنها كانت اهم جمعية سرية عربية معارضة للسلطنة العثمانية في المناطق والأقاليم العربية الواقع تحت سيطرة السلطنة العثمانية. وكان فواز البركات الزعبي أحد قادة هذه المنظمة في البلاد الشامية. وهو أحد قادتها السياسيين والعسكريين في جنوب سوريا وحوران. ويعتبر فواز الزعبي من أبرز قادة العمل القومي وممثلي التمرد

المسلح على العثمانيين في منطقة حوران واحد رموز التيار القومي العروبي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى في المنطقة.

كان فواز بركات الزعبي صديق شخصي للأمير فيصل، وصديق شخصي للشريف حسين بن علي، شريف مكة المكرمة. وتعتبر بلدة الرمثا الأردنية القريبة من مدينة درعا هي مسقط رأس فواز بركات الزعبي ومكان إقامته الدائمة. ونظراً لإنتشار عشيرة الزعبية بأكثر من عشرين قرية وبلدة حورانية، وإنتشار أفراد عشيرة الزعبي على إمتداد إقليم بلاد الشام، في سوريا والعراق والأردن وفلسطين ولبنان، فإن سلطة فواز بركات الزعبي العشائرية كانت تتخطى الرمثا وحوران إلى مناطق إخرى في بلاد الشام.

كان فواز بركات الزعبي مقاتلاً شرساً، ولديه معرفة في فنون الحرب منذ نعومة أظفاره، وقد كان أحد أركان قيادة جيش الثورة العربية التي إنطلقت شرارتها عام 1916 من مكة المكرمة. إن مجموعة مصطفى الخليلي وفواز بركات الزعبي وفاضل المحاميد ومحمد رجا المسالمة وطلال الحريدي من أبناء حوران كانت المجموعة الأبرز من قادة أركان الجيش العربي الثائر على حكم العثمانيين الجائر. وقد دخل فواز بركات الزعبي مع رفاقه العسكريين من جيش الثورة العربية المنتصر دمشق عاصمة البلاد الشامية مع الأمير فيصل بن الحسين. إنه أحد القادة الذين ساهموا في تحطيم الجيش الرابع العثماني، وأحد أبطال الثورة العربية الذين دخلوا دمشق وتحرير بلاد الشام.

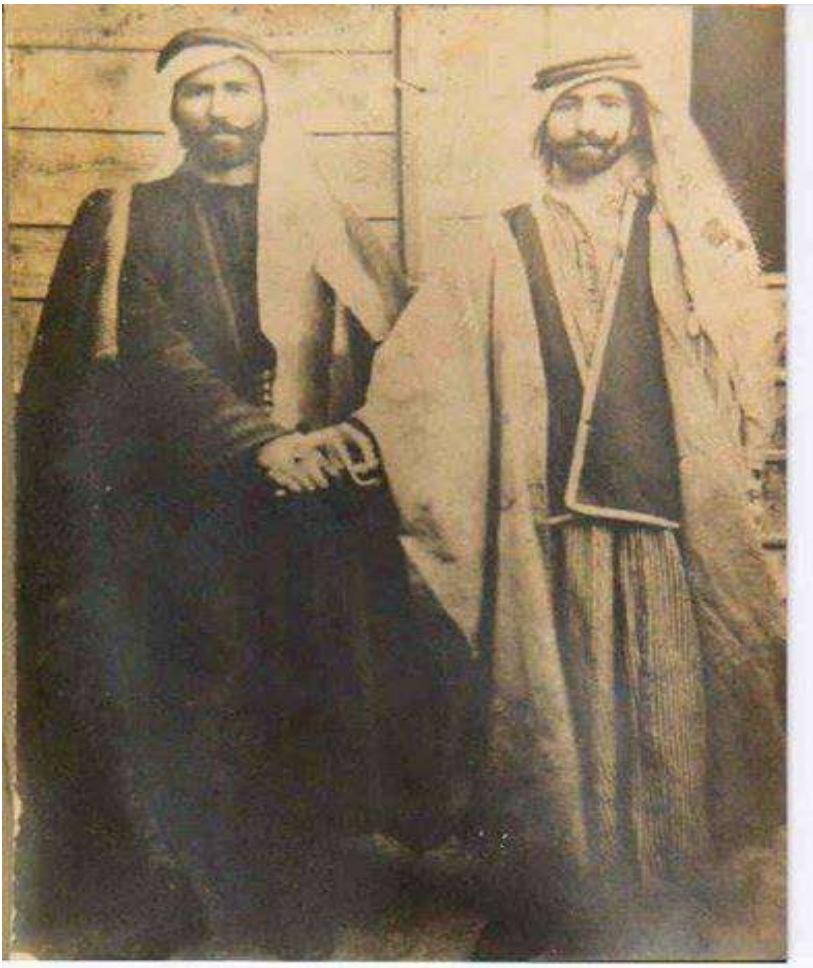

الشيخ مصطفى الدرعي الخليلي التميمي مفتي حوران، وقائد الثورة السورية الاولى 1920 في حوران وأحد قادة الثورة السورية الكبرى عام 1925 في سهل حوران، وإلى جانبه القائد العسكري ضيف الله

الصالح الشبول (يمين) أحد المحكومين بالإعدام من قبل المستعمر الفرنسي.

وهناك شخصيات وطنية أخرى معروفة لدى المواطنين وأبناء القرى والمدن الحورانية الاخرى لعبت دوراً فذا في الحركة الوطنية السورية ضد المستعمر الفرنسي، وشاركت وقادت الحركات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية في درعا وفي حوران. فالدكتور أحمد محمد الاسود وحسن بيك المسالمة كانا من طليعة المثقفين واقيادات السياسية في درعا وحوران. وكنا من رجالات الحركة الوطنية السورية. الدكتور أحمد الاسود، وهو أول طبيب تخرج في حوران، كان المتحدث الرسمي بإسم حزب الشعب السورية في حوران، والشخصية الخطابية الشجاعة المناهضة لقوات الانتداب الفرنسية بقوة. وقد ألقى كلمة ناري في حشود المتظاهرين في بلدة خربة غزالة عام 1936 ، وبعد توقيع إتفاقية الاستقلال السورية ـ الفرنسية وطالب الفرنسيين الخروج من سوريا فوراً، مما تم ملاحقته وهروبه للعراق والتطوع في الجيش العراقي لمدة عامين ثم عاد إلى درعا وتابع مسيرته المناهضة للاستعمار الفرنسي.

وحسن بركات طالب المسالمة، المثقف وخريج جامعة السوربون الفرنسية كان الناطق الرسمي بأسم قوات المقاومة الشعبية الحورانية التي كان يقودها الشيخ مصطفى الخليلي، وكان المستشار السياسي لشكري القوتلي في الشؤون السياسية المحلية والخارجية.

وهناك عدد كبير من الشخصيات في درعا التي كان لها دور في مقاومة المستعمر وتحرير حوران والبلاد السورية، كشخصيات الكتلة الوطنية السورية مفلح المحاميد، محمد الشرع، محمد آبازيد، محمد العايدي، وصالح قناة، وفاضل المحاميد، وصالح عايد أبازيد، أحمد سليم أبازيد،

محمد شحادة أبو نبوت، صالح البرماوي . وأخرى ذاع صيتها، على سبيل المثال ابازيد، عبد القادر علي الكزاز، طالب قناة، عبد الله عبد الرحمن أبازيد ، عبد المعطي أبازيد، سليمان السلمان المسالمة، موسى أبو قويدر، سليم أبو قويدر، سالم شريتح، أحمد فلاح الكراد، ، بركات القطيفان، مصطفى الصباغ، محمد مناحي المسالمة، إرشيد الصياصنة ، جزوان أبو نبوت، عرسان أبو نبوت، محسن المحاميد، محمد زعل المحاميد، فواز إبراهيم المحاميد، مقبل البرماوي، أحمد مصطفى الخليلي، ضاحي موسى المسالمة، علي الفارع المسالمة، حسن إبراهيم المسالمة، مفلح العايد ابازيد، وغيرهم الكثير من الشخصيات الوطنية في المدينة.

وفي كل قرية ومدينة في حوران هناك شخصيات وطنية شاركت وكانت فعالة في الحركة الوطنية السورية، وتحتاج إلى دراسات وبحوث ميدانية يقوم بها الدارسين لتسليط الاضواء على هؤلاء الاباء والاجداد الميامين.

مشاركة أهل حوران
في قضايا الأمة العربية

ظل أهل حوران دوماً يتفاعلون مع قضايا الأمة العربية. وكان أهل حوران على الدوام يترجمون إهتمامهم بقضايا العرب إلى أفعال ومشاركات فعلية. في حرب السويس، وفي حرب التحرير الجزائرية، وفي حروب العرب في جنوب الجزيرة العربية كان أبناء حوران حاضرون في دعم شعوب العربية في كفاحهم الوطني. لكن القضية الفلسطينية أخذت مكاناً خاصاً في عقل وضمير الإنسان من أهل حوران. لهذه المكانة والمميزة أسباب ومبررات عدة أهمها:

- القرب الجغرافي
- التداخل الديمغرافي
- واستمرار المعاناة الفلسطينية لعقود طويلة
- والبعد الديني، وخاصة مكانة القدس الشريف لدى المسلمين والمسيحيين العرب بشكل عام

لهذه الأسباب مجتمعة كون الحوارنة علاقة متميزة مع القضية الفلسطينية ومع الشعب الفلسطيني. وشارك أهل حوران أبناء الشعب الفلسطيني كفاحهم على قدم وساق منذ اليوم الأول لنشوء هذه القضية العربية العادلة.

أهل حوران
والقضية الفلسطينية

بعد صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين من ناحية، وإنكشاف إتفاقية سايكس ـ بيكو في تقسيم البلدان العربية من ناحية أخرى، عقد مؤتمر وطني في بلدة عجلون التابعة لمدينة أربد في شمال الأردن لتدارس الأمر وتحديد الموقف من هذه النوايا الأستعمارية المتآمرة وذلك في تاريخ 10 تشرين الثاني 1919 م ،وقد حضر هذا المؤتمر حوالي 40 زعيماً وطنياً. كان من بين الحضور شخصيات وطنية معروفة في سوريا والأردن وفلسطين في تلك الأيام. من بين هؤلاء القادة المحليين الحوارنة الذين حضروا مؤتمر عجلون كان كليب الشريدة، وناجي العزام، وعبدالقادر التل، وكايد المفلح عبيدات، وسليمان الروسان.

في هذا اللقاء تم الاتفاق على إرسال برقية للأمير فيصل بن الحسين والحكومة الفرنسية، باعتبارها الدولة المضيفة لمؤتمر الصلح الدولي. وكانت المبادرة لعقد هذا الاجتماع التاريخي قد أتت من قبل الشيخ ناجي العزام، شيخ مشايخ عشيرة العزام في منطقة حوران الاردن. كان نص البرقية الصادرة عن إجتماع الزعماء الحوارن إلى مؤتمر الصلح هو التالي. "إن تواتر الإشاعات عن تقسيم البلاد قد جعلنا في هياج عظيم. ونحن عشائر قضاء عجلون ومشايخه وجميع أهاليه على اختلاف الملل نحتج بكل قوانا على أقل تقسيم يمس البلاد العربية، نحن مهيأون للدفاع عن أنفسنا أسوة بالأمم المحررة، وكأمة لها حظ من النصر الأخير نؤكد طلب استقلالنا المطلق وندافع عنه حتى نلقى الموت". وقد أناب عن المؤتمرين بالتوقيع على هذه البرقية كل من ناجي العزام، كايد المفلح

عبيدات، كليب يوسف الشريدة، سليمان السودي الروسان، راشد الخزاعي، محمود الفنيش النصيرات.

القليل من الناس يعرفون بأن أول معركة دامية وقعت بين المستوطنين الصهانية في فلسطين والعرب كانت قد حصلت في عام 1920 في غور الأردن الشمالي. وقد شن هذا الهجوم على المستوطنات مقاتلي قبائل شمال الأردن وجنوب سوريا. وقد سبق هذا الهجوم لقاء شيوخ عشائر منطقة إربد وعجلون في قرية "قم " القربة من مدينة إربد لتدارس موضوع إقامة مستوطنات يهودية على أرض فلسطين، وعلاقة ذلك بوعد بلفور البريطاني المشؤوم. وقد قرر المجتمعوت مهاجمة هذه المستوطنات ومنع إقامة أي أسس للكيان الصهيوني في أرض فلسطين. في هذه المعركة تحركت مجموعة من فرسان ومقاتلي قبيلة العزام بالإضافة لقبائل أخرى حورانية أردنية بقيادة ناجي العزام وكايد المفلح العبيدات وهاجمت عصابات المستوطنين الصهاينة في مستعمرات غور الأردن بالقرب من طبريا، والتي أقامتها الوكالة اليهودية في غور الأردن الشمالي. وقد قتل في هذه المعركة عدد من المستوطنين الصهاينة، وقد إستشهد عدد من الثوار من أبناء عشيرة العزام.

كانت هذه المواجهة هي أول مواجهة عربية ـ صهيونية عسكرية على الإطلاق. وتوالت المشاركات العربية في كفاح الشعب الفلسطيني ضد قوى الغزو والإحتلال. وقد شارك أبناء حوران من سوريين وأردنيين أبناء فلسطين في معارك عام 1936 بعد إستشهاد عز الدين القسام ورفاقه في جبال يعبد قرب جنين. كانت المساندة تأتي لأهل فلسطين على شكل متطوعين أفراداً ومجموعات. من هؤلاء المتطوعين من كان يقيم عدة أشهر في فلسطين ثم يعود إلى أهله. ومنهم من يساهم في معركة محددة ومن ثم يعود إلى بيته إن لم يسقط شهيداً أو جريحاً. وكانت لجان جمع

التبرعات قد شكلت في كل مناطق حوران لجمع التبرعات للأهل في فلسطين وشراء السلاح والذخيرة إلى المجاهدين هناك.

وفي عام 1948 تطوع عدد من أبناء حوران في جيش الإنقاذ العربي الذي شكلته الجامعة العربية وأوكلت قيادته للضابط السوري فوزي القاوقجي هذا من جهة. ومن جهة ثانية لم يكتفي أهل حوران بالمشاركة الفردية في حرب فلسطين ضمن جيش الإنقاذ العربي بل شكل ثوار حوران جيش خاص بهم ودفعه إلى ساحات القتال على أرض فلسطين في منطقة صمخ القريبة من بحيرة طبريا بقيادة المجاهد علي سالم الحريري إبن أخ القائد الوطني الشيخ محمد خير الحريري. كانت أعداد هذا الجيش قد تاجوزت المئتي مقاتل.

بعد حلول النكبة وإحتلال الصهاينة للجزء الأكبر من فلسطين وتشريد مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين إلى المناطق العربية المجاورة جاءات أعداد كبيرة من اللاجئين الفلسطينيين وسكنت مدن وقرى حوران السورية والأردنية. فكان مخيم إربد للاجئين. ومخيم درعا للاجئين ومخيم الحصن ومخيم اليادودة ومخيم المزيريب وأقام اللجئون الفلسطينيون في أغلب بلدات ومدن حوران القريبة من الحدود الفلسطينية. لا زالت أغلب هذه المخيمات قائمة منذ 64 عاماً، ولازالت العلاقة طيبة بين الحوارنة وأبناء فلسطين.

وعندما تفجرت الثورة الفلسطينية في عام 1964 وفتح باب التطوع في الثورة الفلسطينية كانت صفوف الثورة الفلسطينية تعج بالمقاتلين الحوارنة إلى جانب المقاتلين الفلسطينيين والعرب. وقد كان لمدينة درعا شرف استقبال أوكتائب جيش التحرير الفلسطيني وفي الثكنة العسكرية في مدينة درعا دربت طلائع الوحدات العسكرية الفلسطينية ووحدات

كتائب الفدائيين من قوات العاصفة التابع لحركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح. ومن درعا كانت تبث إذاعة الثورة الفلسطينية.
ومع تطور الحركة الوطنية الفلسطينية وتزايد أعدادها المقاتلة وخاصة بعد معركة الكرامة في عام 1968 في أغوار الأردن أنتشرت في كل بلادان الطوق سوريا والأردن ولبنان قواعد الفدائيين الفلسطينيين.
وقد إنتشرت في أغلب قرى وبلدات حوران الغربية المحاذية للجولان قواعد الفدائيين الفلسطينيين. وقد استقبل أهل حوران ثوار فلسطين بكل المودة والترحاب ودخلت أعداد كبيرة من شباب حوران وإنخرطت داخل العمل الفدائي الفلسطيني. وبسبب هذا التواجد شن العدو الصهيوني سلسلة من الهجمات الصاروخية والغارات الجوية على عدد كبير من القرى والبلدات في محافظة درعا ومحافظة إربد وقع جرائها المئات بل الآلاف من الضحاية من المواطنين بين شهيد وجريح.

ثـورة الشعـب السـوري
علـى نظـام الأسـد

وصل حافظ الأسد إلى سدة الحكم في سوريا عبر المشاركة في سلسلة من الإنقلابات العسكرية التي حدثت في سوريا. فحاظ الأسد كان ضابت برتبة رائد في الجيش السوري عندما شارك في تنظيم عسكري سري عام 1959 قوامه خمسة عسكريين ينتمون إلى حزب البعث. إطلق على هذه الجمعية العسكرية السرية إسم اللجنة العسكرية في حزب البعث. كانت هذه اللجنة في ظاهرها رداً على عبد الناصر الذي وضع شرط الموافقة على حل الأحزاب السورية قبل أن يوافق على إقام الوحدة بين مصر وسوريا. لكن حقيقة هذه اللجنة كانت من البداية ذات طابع طائفي بحت. كان من بين أعضاء هذه اللجنة ثلاثة من أبناء الطائفة العلوية وواحد من الطائفة الإسماعيلية وواحد من الطائفة الدرزية.

فقد فشلت الوحدة التي إقيمت بين سوريا ومصر عام 1958 عبر إنقلاب عسكري قام به جماعة من الضباط السوريين أغلبهم من العاصمة دمشق في 28. 09. 1961 . وبعد ما يقارب عام ونصف العام إنقلب بعض الضباط البعثيين وبعض الضباط الناصريين على مجموعة ماعرف بجماعة الإنفصال في 08. 03. 1963 . وبعد عدة أسابيع أقدم الضباط البعثيين في الجيش السوري على عزل وتصفية الضباط الناصريين شركائهم في الإنقلاب. كان حافظ أسد ومجموعة الضباط الخمسة، أو

اللجنة العسكرية السرية على رأس هذه المجموعة الإنقلابية البعثية المتكررة.
بعد هذا الإنقلاب العسكري فرغت الساحة للضباط البعثيين وعلى رأسهم مجموعة حافظ الأسد وصلاح جديد ومحمد عمران. وكلف في منصب رئاسة الجمهورية الضابط الحلبي أمين الحافظ. فقد أحضر من الأرجنتين التي كان قد إبعد إليها وعمل كملحق في السفارة السورية هناك. كان أمين الحافظ "أبو عبدو" اللقب المحبب إليه عند زملائه مجرد واجهه في الحكم لمجموعة اللجنة العسكرية التي ينتمي لها حافظ الأسد. وتحت قيادته تم تسريح أعداد كبيرة من ضباط الجيش السوري من الذين ينتمون لطائفة المسلمين السنة ذات الأغلبية الشعبية الساحقة في سوريا. لقد استغل أبو عبدو لتنفيذ مآرب طائفية في تصفية الجيش السوري من الكفاءات العسكرية وإخلاء الساحة لمجموعة حافظ الأسد ورفاقه.

في عام 1966 في شهر شباط تم التخلص من أبو عبدو أمين الحافظ ومن القيادة التاريخية لحزب البعث العربي الإشتراكي بالجملة عبر إنقلاب عسكري بعثي داخلي وكانت اللجنة العسكرية السرية هي المحرك لهذا الإنقلاب الجديد أيضاً وفرغت الساحة لهذه العصابة العسكرية الطائفية. عرف السوريون والعرب بعد هذا الإنقلاب بأن البعث ينقسم إلى جناح يميني ومركز تجمعه في بغداد في العراق، ويساري ومركز تجمعه دمشق.

في كل مرة يتم فيها إنقلاب عسكري كان يتم إعتقال وسجن أو هروب أو طرد مجموعة من ضباط الجيش السوري. في مسيرة أستنزاف الجيش السوري من الكفاءات العسكرية التي بدأت مع إنقلاب الضباط الإنفصاليين عام 1961 حتى عام 1967 قبيل حرب حزيران المشؤومة كان أكثر من 2000 ضابط سوري إحترافي قد إبعد وسرح من ملاك

الجيش العربي السوري. لقد دخل السوريون حرب عام 1967 وجيشهم شبه خالي من الكفاءات العسكرية. إن إبعا هذا العدد من ضباط وقادة في أي جيش لا زال صغير الحجم ولازال في طور الإعداد يعتبر كارثة عسكرية وسياسية.

حدثت حرب 5 حزيران من عام 1967 وأصدر حافظ الأسد الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع والرجل الأقوى في اللجنة العسكرية التي تسيطر على سوريا قراره المشهور للقوات السورية المرابطة في هضبة الجولان في الإنسحاب من الجبهة وإخلاء هضبة الجولان بشكل كيفي غير منظم. لم يستطع أحد إستيعاب الأسباب التي جعلت يأخذ قرار الإنسحاب من هضبة الجولان المفاجئ . لا يوجد تبرير أوتفسير حتى هذه اللحظة من المسؤولين السوريين لهذا القرار العسكري الخطير الذي مكن الكيان الصهيوني وجيش إسرائيل من إحتلال الجولان دون قتال. لم يحصل قتال في هضبة الجولان بين الجيش السوري والجيش الإسرائيلي، بل دخل الجنود الصهاينة قرى ومناطق الهضبة بعد خمسة أيام من إصدار قرار الإنسحاب الكيفي الفوضوي. حافظ الأسد كان ولازال هو المسؤول الأول عن هذا القرار من الناحية السياسية ومن الناحية العسكرية، فهو وزير الدفاع وهو من اتخذ القرار دون الرجوع لبقية أعضاء القيادة العسكرية والقيادة السياسية.

في عام 1970 في شهر تشرين قاد حافظ الأسد إنقلاباً عسكريا على زملائة وشركائه في سلسلة المؤامرات والإنقلابات العسكرية في داخل سوريا. لقد إنقلب هلى صلاح جديد ومحمد عمران ونور الدين الأتاسي واستفرد لوحده بالسلطة. أطلق حافظ أسد على هذا الإنقلاب العسكرية أسم "الحركة التصحيحية".

حكم حافظ الأسد سوريا منذ ذاك التاريخ حتى مماته عام 2000 بالحديد والنار، وكان جل فترات حكمه تمتاز بالدموية المفرطة وإزاحة أي شكل من أشكال الطابع المدني للدولة السورية. لقد إمتازت فترة حكم حافظ الأسد بحكم الأجهزة الأمنية التي وصل عددها إلى 17 جهازاً مرتبطة به مباشرة. ولم يعد أي قيمة أو معنى لأي وزير أو حكومة أو نائب في الدولة السورية، فكل هؤلاء أصبحوا دمأ وتوابع لحافظ الأسد ومجموعة من الأتباع تحيط به ومن حوله. مقابل هذا الولاء لتلك الفئات الإجتماعية والسياسية أطلق لهذه الفئات العنان في نهب الدولة السورية وترك لها حرية الحركة والتصرف بكل مقدرات الشعب السوري والدولة السورية. حقبة حكم الأسد هذه جعلت سوريا من أفقر دول العالم على كل المستويات وأصبح المواطن السوري لا وطن له ولا قيمة ولا مستقبل يامله لأبنائه في هذا الوطن.

قبل موت الأسد بعدة شهور عمل حافظ الأسد على توريث إبنه بشار الأسد الحكم. وتصرف وكأن سوريا ومن في سوريا مجرد قطيع من الناس يحق له التصرف في مصيرهم ومستقبلهم ويجيز لنفسة وبأن يورث الحكم لأحد أبنائه. كان واضح من مسيرة الثلاثين عاماً التي مرت تحت سلطة حافظ الأسد أن لا معناً لوزير ولنائب رئيس جمهورية، فهؤلاء كانوا مجرد ديكور يلون بها حكمه الفردي والإستبدادي. مات حافظ الأسد وكان رتب المسح في الدولة لتوريث إبنه من بعده. وهذا فعلاً ماحصل ففي إقل من ربع ساعة صادق البرلمان السوري على تغيير مادة في الدستور السوري حتى يصبح تعيين بشار الأسد كرئيس للجمهورية ممكناً وهي المادة التي كانت تشترط برئيس الجمهورية من بلغ سن الأربعينن فقد إعيدت صياغتها من جديد لتصبح قد بلغ الخمسة والثلاثن من العمر حيث كان بشار الأسد في هذا السن في حينه.

عين أو إنتخب بشار الأسد من قبل أعضاء البرلمان السوري من الناحية الصورية، ولكن الكل كان يعلم أنه فرض من قبل الأجهزة الأمنية التي رباها وفصلها حافظ الأسد. لم يغير الإبن من أسلوب حكم الأب بل زاد من قسوة رجال السلطة ورجال الأجهزة الأمنية على الشعب. وزاد من تبعية سوريا لدولة إيران وأصبح المسؤلين الأمنيين الإيرانيين يتحكمون في مفاصل الحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية والأمنية للمجتمع السوري. وصار الإيراني يتصرف بحرية في كل مراكز الدولة القيادية بحرية أكثر من نظرائة في إيران نفسها.

كان الساسة السوريون المدنيون والعسكريون يتصارعون في مابينه حول الإديولوجيا والإنتماء للأحزاب. وكانوا يتصارعون أو يتنافسون حول مكاسب سياسية أو إقتصادية خاصة عبر أحزابهم ومنظماته السياسية، لكن حافظ أسد كان يتحرك على أسس طائفية بحتة ويختفي خلف عناوين حزبية وسياسية للتورية. لم يكن يعني حافظ الأسد ومن شايعهم في اللجنة العسكرية التي شكلها في القاهرة في عام 1959 حزب البعث من قريب أو بعيد بل كان يعمل بدائرة طائفية جمع حولة كل من تحمس لهواه الطائفي. وإلى حافظ الأسد تعود أول ظاهرة في سوريا في فترة ما بعد الإستقلال تنم عن بعد طافي منهجي منظم كان تشكيل وحدات عسكرية داخل الجيش السوري طابعها العام الصريح هو البعد الطائفي.

ففي عام 1971، أي بعد عام واحد من استيلاء حافظ الأسد على منضب رئيس الجمهورية برزت للسطح وحدات عسكرية ذات لون طائفي واحد يقودها شقيق حافظ الأسد المدعو رفعت الأسد. عرفت هذه الوحدات العسكرية " بسرايا الدفاع". سرايا الدفاع كان أغلب المنتمين إليها من أبناء الطائفة العلوية السورية. وهذه الوحدات أخذت منذ ذاك التاريخ دور الصدارة في التموين والتسليح والإمكانيات، وأصبحت الوجه القبيح في

ممارسات أدوات السلطة القمعية في استفزاز المواطنين المدنيين والعسكريين على حد سواء. لقد عاث عساكر سرايا الدفاع فساداً في المجتمع السوري، وأصبحوا يتصرفون وكأنهم خارج القانون. إلى هذه العصابة تعود سلسلة الجرئم والمذابح التي ارتكبت بحق السوريين في كل من حلب وحماة وحمص وجسر الشغور في منتصف أعوام الثمانينات من القرن الماضي.

بعد إنفضاح أمر هذه العصابة المدعوة سرايا الدفاع أصدر حافظ الأسد قراراً بحل هذه الوحدة سيئة السمعة والصيت، وأشاع أنه قد توزيع أعضاء هذه الوحدات العسكرية، التي بلغ تعدادها الأربعين ألف عسكري، على بقية الألوئة والفرق العسكرية الأخرى من الجيش السوري. لكنه قد تبين لاحقاً أن هذا الإعلان غير صادق ومخادع من قبل حافظ الأسد، لأن الحقيقة التي ظهرت بعد فترة من الزمن أن الشكل الطائفي لتلك الوحدة العسكرية بقي مستمراً ،وأطلق على هذه التركيبة الطائفية المضمون والشكل أسم الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة. إن فرقة الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة ، التي يقودها شقيق بشار الأسد ماهر الأسد، هي الوريث الحقيقي لوحدات سرايا الدفاع في عهد حكم حافظ الأسد. هاتين الفرقتين العسكريتين تقومان بنفس المهام التي كانت تقوم بهما وحدات سرايا الدفاع، وهما أيضاً من نفس اللون الطائفي " العلوي" لسرايا الدفاع المنحلة.

الربيع العربي
والثورة السورية

في 27. 12. 2010 أحرق محمد البو عزيزي من بلدة سيدي بوزيد في وسط تونس نفسه إحتجاجاً على فقدانه لأي أمل بإمكانية إعادة له كرامته المهدورة عندما تجرأت سيدة من الشرطة المحلية على صفعه على وجهه دون أي معيار لكرامته. هبت بلدة سيدي بوزيد نصرة لهذا الشاب المظلوم والذي وجد فيه شباب تونس المعبر الحقيقي عن واقعهم المأساوي. تدحرجت كرة اللهيب العربي من سيدي بو زيد حتى وصلت إلى تونس العاصمة وأرغمت طاغوت تونس المستبد بن علي على ترك البلاد والرحيل. هرب أبن علي وسقط نظامه البائس في يوم 15. 01. 2011 .

جرت في الجسد العربي ومضات أمل في تغيير الأحوال إلى أحسن حال، لكن هذا الأمل لازال بصيص شعاع أنار زوايا معتمة في النفس العربية. وفي 25. 01. 2011 أنتفض الشعب المصري على جلاديه وامتلأت ساحات النصر والتحرير بألوف المصريين. لم تدم المعركة المفتوحة أكثر من 18 يوماً وأرغم مبارك على الإستقالة في يوم 11. 02. 2011 . مصر أرض الكنانة تزيح عن كاهلها تعب السنين وجور اللصوص والمرتزقة وحكم البلطجية. لقد تجلت قمة النهضة العربية في إنتصار الشعب المصري الثائر على المستبد وأجهزته الأمنية وكان الجيش

المصري كما كان الجيش التونسي إلى جانب الشعب يجسد دوره الوطني المشرف بحماية الوطن والمواطنين.

توالى إنطلاق الثورات العربية فكان الحراك الجماهيري في اليمن ومن ثم تبعت الجماهير الليبية في الثورة على حكامهم المستبدين منذ عشرات السنين. لم تكن مسارح الثورات في غرف مغلقة ولم يقوم بها ثلة من المتآمرين العسكريين، بل هي ثورات شعبية أحداثها تجري أمام الناظرين وفي الساحات العامة والحواري والشوارع، وأبطالها هم كل أبناء الشعب والفئة الشابة منه بشكل خاص. وقد تميزت الثورات العربية بإنخراط ملايين الناس في الفعل الثوري من أجل التغيير، وقد تجاوزت أعداد المشاركين في المسيرات والمظاهرات كل التوقعات وتقدمت من حيث الأعداد والنسب كل ثورات العالم التي سبقت.

ملحمة الثورة العربية تتوالى فصولها كل يوم وكل ساعة ووجوه أبطالها تشبه كل وجوه العرب. وأحلام روادها ليست غريبه فهي من أحلام كل الحالمين من أحرار العرب. هي الحرية والعدالة والكرامة للمواطن. وهي بناء دولة عصرية يتساوى فيها الناس أمام القانون. هي إذاً شعارات وأفكار وأحلام مألوفة لا تحتاج إلى ترجمة. الشعب يريد إسقاط النظام. إنه شعار سهل ومعبر ومباشر ويفهم شكله ومغزاه كل الناس. من أجل حرية الملايين إذاً لا بد من إسقاط النظام.

وأهل سوريا وشباب سوريا، بل أطفال سوريا كانوا ربما جزء من ميدان التحرير في القاهرة، أو ربما تخيلوا وتقمصوا رموز الثورة هناك على كبري النيل وساحة الحرية في السويس. فالشعب السوري كان مزروع أمام شاشة التلفاز ويعيش تفاصيل الحدث الجلل خطوة بخطوة. لقد سقط مبارك وأعلن تنحيه عن السلطة في 11. 02. 2011 بعد فترة حكم دامت

أكثر من 30 عاماً. سقط إذاً الفرعون. وعمت بيوت وشوارع سوريا والمدن العربية موجة من التفائل والارتياح، والفرح والارباك أيضاً. هؤلاء الحكام الفاسدين إذاً ليسوا قدرنا المحتوم.

درعا وسكان درعا أيضاً إجتاح ضمائرهم ونفوسهم هذا الامل وهذا التفائل، كبقية سكان ومواطيني هذا الشرق البائس.

أطفال درعا
يفجرون الثورة السورية

في ظهر يوم 27. 02. 2011 كتب أطفال مدرسة الأربعين الإبتدائية في مدينة درعا على جدران مدرستهم عبارة "إجاك الدور يا دكتور"، ويقصدون بهذه العبارة طبعاً بشار الأسد الذي تلبس لقب دكتور. وكتب الأطفال على جدار المدرسة أيضاً عبارة "الشعب يريد أسقاط النظام". ببرائة الأطفال عبر هؤلاء ما فهموه من ثوار تونس ومن ثوار مصر. وبالتأكيد أصغوا السمع إلى أهلهم وهم متسمرين أمام أجهزة التلفاز ويتابعون أحداث ميدان التحرير في القاهرة عبر محطة الجزيرة والعربية. ومن المؤكد أن سمع بعضهم دعوات جداتهم أثناء الصلاة بالنصر لهؤلاء الشباب والشابات في ميدان التحرير في القاهرة، فمصر وأهل مصر والقاهرة بالنسبة لأهل حوران قريبة جداً في ثقافتهم ومصر وأهلها تشكل جزء من وجدان وضمير سكان حوران.

لقد بالغ أطفال درعا بجرأتهم وهتفوا أثناء إنصرافهم إلى بيوتهم في ساعة الظهيرة لتناول طعام الغداء وساروا بجماعات مكونة من خمسة إلى ستة أطفال تشبه المسيرات السياسية للكبار إنطلقت من باب مدرستهم وإنتهت عند عتبات بيوتهم التي لاتبعد عن المدرسة سوى عشرات، وربما مئات من الأمتار. لقد هتف هؤلاء الصبية بالشعارات التونسية والمصرية المعروفة "الشعب يريد إسقاط النظام" إنه شعار جميل وذو لحن وإيقاع موسيقي جيد.

في مساء ذاك اليوم من شهر يناير جاء زوار الليل من أجهزة الأمن السياسي إلى بيوت أطفال مدرسة الأربعين الإبتدائية وإعتقل منهم 21 طفلاً تم سحبهم إلى زنازين الأجهزة الأمنية المرعبة، وبدأ التحقيق معهم وتعذيبهم ليعترفوا عن شيئ لا يعرفونه. أحد الأطفال أفاد أنهم كانوا يضربونه ضرباً مبرحاً عن أي "نظام سياسي" وكيف يريد أسقاطه، وهو لا يعرف ما المقصود من "النظام السياسي"، لان المعلم في المدرسة الإبتدائية لم يعلمهم بعد ما هو النظام السياسي.

غاب الأطفال في سجون ومعتقلات أجهزة الأمن السورية والأهل يسألون في كل يوم عن أطفالهم لكن لا من مجيب. وصارت تتطاير في سماء درعا أحاديث وقصص تتحدث عن مصير الأطفال. فمنهم من قال أن الأطفال قد تم نقلهم إلى العاصمة دمشق لإستكمال التحقيق معهم، ومنهم من قال أن الأطفال نقلو إلى مدينة السويداء المجاورة لمحافظة درعا لتقديمهم لمحكمة عسكرية. ومنهم من قال أن الأطفال في درعا ويخضعون لأقسى أنواع التعذيب وقد قلعت أضافر بعضهم.

وتأكدت هذه المعلومة عندما أقدمت سلطات الأمن على إطلاق سراح 6 أطفال والإبقاء على 15 طفلاً رهن الإعتقال. وقد روى هؤلاء الأطفال ما عانوه من تعذيب وقد تم قلع أضافرهم والكدمات كانت ظاهرة على وجوههم وأجسادهم. بعد قرابة أسبوعين من إحتجاز الأطفال وغياب أخبارهم عن ذويهم وعن أترابهم في ساحات مدينة درعا، وبعد محاولات فاشلة متتكرة بالسماح لأهل الأطفال بزيارة أطفالهم في المعتقلات قرر أهل المدينة تشكيل وفد شعبي مؤلف من ذوي الأطفال ومن بعض من وجهاء المدينة من مثقفين ومحامين ورجال دين.

في يوم الثلاثاء الموافق 15. 03. 2011 حددت زيارة وفد أباء وأولياء أمور الأطفال المعتقلين ووجهاء المدينة المكون من 36 شخصية إعتبارية يمثلون كل أطياف وعائلات سكان المدينة لزيارة ومقابلة المحافظ في المدينة المدعو فيصل كلثوم. أستقبل المحافظ الوفد الشعبي وكان إلى جواره في صالة الإجتماع رئيس الأمن السياسي في محافظة درعا، وهو في نفس الوقت إبن خالة بشار الأسد، المدعو عاطف نجيب. هاتين الشخصيتين الحاكمتين في درعا لهما تاريخ غير مشرف. فالأول فيصل كلثوم، قد شارك في مذابح حماة كضابط عسكري في سرايا الدفاع سيئة الصيت المشؤومة، ومنحه حافظ الأسد مسدس مطلي بماء الذهب تكريماً له ومكافئة له على ما إرتكب هذا المجرم من جرائم بحق المواطنين السوريين في مدينة حماه المنكوبة في عام 1982 . ففيصل كلثوم حاصل على مرتبة مجرم بجدارة. والثاني، أي رئيس الأمن السياسي في محافظة درعا، عطف نجيب، كان ذو باع طويل في عمليات النهب والسلب التي إرتكبتها عصابات الشبيحة في مناطق الساحل السوري في أعوام الثمانينات. وقد ترأس عاطف نجيب عصابة تهريب مخدرات تعمل عبر خط إيران ـ سوريا إلى الموانئ السورية، ومن هناك إلى كل بقاع العالم. ففي الساحل السوري كانت تحت تصرف عصابات الشبيحة 19 ميناءاً صغيراً وتدار من قبلهم وبعيداً عن مؤسسات الدولة، في إستقبال وتصريف البضائع المهربة.

طلب الوفد الشعبي من المحافظ إطلاق سراح الأطفال والسماح للأطفال الذي تتراوح أعمارهم بين 9 أعوام 13 سنة فقط بالعودة إلى حضون إمهاتهم. وقد شرحوا للمحافظ ولرئيس االأمن السياسي أن الإستمرار في إعتقال الأطفال سيكون له تداعيات كبيرة لأن المدينة تغلي غضباً على إعتقالهم وحجزهم، والناس في حالة غضب شديد على هذا الأسلوب الفج وغير المفهوم. فرد عاطف نجيب على الوفد الشعبي بأنه لن يطلق سراح

الأطفال، ويجب عليكم أن تنسوا وجود هؤلاء الأطفال، وعودو أنتم إلى بيوتكم وأنجبوا غيرهم.

لقد ساد جو من التوتر المصحوب بالصدمة قاعة الإجتماع، لما تفوه به هذا الأزعر المتغطرس المدعو عاطف نجيب. وقد رد عليه أحد الحضور من وجهاء المدينة، بعد أن نزع الكوفية والعقال عن رأسة ورما بهما على الطاولة بوجه المحافظ ووجه عاطف نجيب، وهذه رمزية عند أهل حوران تعني قبول التحدي والمواجهة، وقال له: "عاطف لقد قللت أدبك كثيراً، وستندم على ماتفوهت به من بذيئ الكلام. سنريك من نحن ومن أنت. ولن تحيدنا أي قوة عن إستعادة كرامتنا التي دنسها أمثالك، ونعطيك مدة ثلاثة أيام فرصة لإطلاق سراح الأطفال، وإن لم تفعل سيكون لنا رد مناسب على أفعالك." إنتهى اللقاء، ووقف أعضاء الوفد وخرجوا من صالة الإجتماع. كان عاطف نجيب وفيصل كلثوم يهددان ويتوعدان الوفد، وأهل درعا أثناء مغادرة أعضاء الوفد صالة الإجتماع، ورد عليهما بعض أعضاء الوفد بلغة تليق بهؤلاء الأوباش من حثالة وزعران المجتمع والسلطة.

الأطفال الذين إعتقلتهم أجهزة امن النظام في درعا في تاريخ 27. 02. 2011

في تاريخ 27 شباط 2011 أقدمت أجهزة الأمن السورية على اعتقال اطفال درعا، شعلة ثورة الحرية والكرامة. والذين اقتلعت اظافرهم و وأحرقت أياديهم بأعقاب السجائر، وعذبوا بسادية شديدة على أيدي عصابات الأسد الأمنية لكتابتهم على حائط مدرستهم شعارات إسقاط النظام الاستبدادي الحاكم منذ اربعين عاماً. كان تاريخ كتابة الشعارات على جدران المدرسة هو 24 . 02. 2011 . وقد كان هذا التاريخ هو بداية تاريخ سوريا الجديدة. والاطفال الذين تم القبض عليهم والزج بهم بالمعتقل وتعذيبهم هم التالية أسمائهم :

1. معاوية فيصل صياصنه
2. يوسف عدنان سويدان
3. سامر علي صياصنه
4. أحمد جهاد أبازيد
5. عيسى حسن ابو القياص
6. علاء منصور أرشيدات أبازيد
7. مصطفى أنور أبازيد
8. نضال أنور أبازيد
9. أكرم أنور أبازيد
10. بشير فاروق أبازيد
11. نايف موفق أبازيد
12. أحمد ثاني رشيدات أبازيد

13. احمد شكري الاكراد
14. عبدالرحمن نايف الرشيدات
15. محمد أيمن منور الكراد
16. أحمد نايف الرشيدات ابازيد
17. نبيل عماد الرشيدات ابازيد
18. محمد أمين ياسين الرشيدات ابازيد

وقد استمر الطفل رقم (12) أحمد ثاني رشيدات ابازيد في سجون الغدر الاسدية حوالي ستة أشهر بعد إطلاق سراح الأطفال الأخرين.

إنطلاقة الثورة
من درعا البلد

لم يعد أي فرد من أعضاء الوفد كل إلى بيته، وإنما تشاور أعضاء الوفد فيما بينهم حول كيفية الرد على تلك العصابة الحاكمة في درعا، وكان القرار هو الخروج في مظاهرة شعبية سلمية في يوم الجمعة القادم بعد الصلاة الجامعة الموافق في 18. 03. 2011 تنطلق من أمام الجامع العمري الكبير القائم في وسط مدينة درعا القديمة، الواقعة في القسم الجنوبي من المدينة، والمعروفة بدرعا بالبلد. درعا البلد هي المنطقة الواقعة جنوب وادي الزيدي الذي يفصل المدينة إلى قسم شمالي معروف بالمحطة وقسم جنوبي معروف بالبلد. منطقة البلد هي مدينة درعا التاريخية القديمة.

لقد إتفق المنظمون على أن تخرج أول مجموعة من المتظاهرين من مسجد حمزة والعباس، والذي يبعد عن المسجد العمري بحوالي 200 متر غرباً، ومن هناك يتوجه الناس بعد إنتهاء صلاة الجمعة إلى ساحة السيبة القريبة جداً من المسجد العمري. وعند وصول هذه المجموعة يلتحق المصلون الخارجون من المسجد العمري الكبير بهذه المجموعة القادمة من مسجد حمزة والعباس. وعلى الشباب الذين لا يصلون أن ينتظروا في الأزقة والشوارع المجاورة لساحة السيبة والمسجد العمري، ومن ثم الإلتحاق بالمظاهرة بعد قدوم المتظاهرين من مسجد الحمزة والعباس ومن المسجد العمري.

إتفق وجهاء درعا على كل الخطوات الأولية الضرورية لإنجاح المظاهرة. وإتفقوا أيضا على الأهداف والشعارات التي ستطرح في هذه المظاهرة الجماهيرية. كان أولها طبعاً إطلاق سراح الأطفال المحتجزين. وثاني هذه الأهداف إقالة كل من المحافظ فيصل كلثوم، ورئيس فرع الأمن السياسي في درعا المدعو عاطف نجيب. ومن ثمة عدد من المطالب السياسية أهمها إصلاح النظام السياسي في سوريا، ومحاربة الفساد، وحرية الصحافة، وإحترام حقوق الناس.

في الساعة الواحدة ظهراً إنتهت صلاة الجمعة، وبعدها مباشرة وقف أحد الثوار من أبناء درعا البلد اسمه موسى صالح المسالمة وألقى كلمة بجموع المصلين مدتها 5 دقائق، حض الناس فيها على الخروج في المظاهرة السلمية، وأعلن عن أهداف هذه المظاهرة التي يجب أن تساهم في إعادة الكرامة للشعب السوري المهدورة من قبل الحكام المتغطرسين. بعدما إنتهى هذا الثائر من كلمته وقف أحد المصلين البواسل واسمه أحمد علي دعاس المسالمة، وصاح الله أكبر على كل من طغى وتجبر عدة مرات، وكانت تلك هي نقطة البداية وإنطلاق المظاهرة وإنطلاق ثورة الحرية والكرامة السورية.
وقفت جموع المصلين وخرجت من مسجد حمزة والعباس، ووصلت إلى ساحة السيبة، وهتف المجتمعون للحرية والكرامة. وبعد دقائق معدودة وصلت الجموع الخارجة للتو من المسجد العمري بعد إنتهاء صلاة الجمعة هناك وإنضمت للمظاهرة، وأنضم إليهم أيضاً أعداد كبيرة من الشباب الذين كانوا ينتظرون خروج المصلين في الشوارع والازقة المجاورة للجامع العمري.

كان الشيخ الجليل أحمد الصياصنة قد ألقى خطبة الجمعة في الجامع العمري وحض الناس على ضرورة التصدي لغطرسة الحكام المستبدين،

وألهبت خطبتة العصماء مشاعر المصلين، وأعلن عن المظاهرة التي ستسير وعن الجموع المحتشدة في ساحة السيبة وضرورة الإنضمام إلى هذه الجموع. سارت الجموع الثائرة تهتف للحرية وتهتف بضرورة إطلاق سراح الأطفال المحتجزين، متجهة إلى مركز المدينة الجديدة التي تعرف بالمحطة، والتي فيها تتمركز أغلب مؤسسات الدولة والمراكز والدوائر الحكومية والاقتصادية والسياسية.

بعد أقل من نصف ساعة من سير المظاهرة بلغ أعداد المشاركين بهذه المظاهرة، التي شكلت الإنطلاقة الأولى الحقيقية للثورة السورية، أكثر من 10 آلاف متظاهر وهي بتزايد. وصل المتظاهرون إلى جسر درعا الشرقي المقام على وادي الزيدي، وهناك حشد عاطف نجيب والمحافظ قواته من أجهزة الأمن المدججة بالسلاح. ودون سابق إنذار أطلق القتلة النار على المتظاهرين السلميين العزل وسقط أول شهيد الشاب محمود قطيش الجوابرة، وتبعه الشهيد حسام عياش، وتوالت الصدامات بين المتظاهرين العزل وعصابات الأمن الأسدية حتى الساعة السابعة مساءاً من ذلك اليوم المشهود من تاريخ درعا وسوريا.

كانت حصيلة اليوم الأول حتى المساء 2 شهداء و 52 جريح، منهم أربعة جرحى جروحم خطيرة، وقد أستشهدوا في الايام التالية متأثرين بجراحهم التي أصيبوا بها في اليوم الاول، يوم أنطلاقة الثورة في 18 أذار.
عندما سمع سكان درعا المحطة بالمظاهرة وبالصدامات الجارية على الجسر الشرقي لوادي الزيدي هب رجالها وشبابها وسارت مظاهرة حاشدة قادمة من المحطة بإتجاه درعا البلد، في محاولة منهم لفك الحصار عن أهل البلد، لكن قوات عاطف نجيب ونظام العصابة كانت تنتظرجموع المتظاهرين في درعا المحطة بالرصاص الحي أيضاً.

لقد قام كل من فيصل كلثوم محافظ المدينة وعاطف نجيب رئيس جهاز الأمن السياسي في درعا على إستدعاء 12 طائرة هيلوكبتر، كانت تلك الطائرات منذ اليوم الاول طوال الوقت تحوم فوق رؤوس المتظاهرين وترميهم بالرصاص الحي. وجلب عاطف نجيب رئيس جهاز الأمن السياسي وحدات من الحرس الجمهوري التابعة لقيادة ماهر الأسد، شقيق بشار الأسد، وأنزل قسم منها في الملعب البلدي الواقع في أقصى شمال المدينة، وأنزل القسم الأخر في منطقة البحار الواقعة في أقصى جنوب المدينة. تحولت شوارع وساحات درعا إلى ساحة حرب تخاض من طرف واحد، وهو السلطة المدججة بالسلاح وطائرات الهليوكوبتر وشعب أعزل يتلقى الرصاص بصدور عارية، وبسالة منقطعة النظير.

في ذاك اليوم المشهود إنتفضت درعا على الظلم والإستبداد طلباً للحرية والكرامة المسلوبة، وكان الدخان ورائحة البارود يغطي سماء المدينة، لكن سوريا كانت في ذاك اليوم تولد من جديد. يوم الجمعة هذا الموافق لتاريخ 18. 03. 2011 ، يوم أنطلاقة ثورة الحرية والكرامة السورية الباسلة ستذكره الأجيال جيلاً بعد جيل.
لم يستكين أهل درعا البواسل لإرهاب عصابات آل الأسد وآل مخلوف، فقد خرجوا في اليوم التالي وشيعوا شهدائهم إلى المقابر وهم أكثر تصميماً وأكثر قوة وزخم. كان شعار الثوار الأكثر ترديداً في ذاك اليوم في الأيام والأشهر التي تلت هو شعار " الموت ولا المذلة". لقد أصبح هذا الشعار المنتشر في كل أرجاء سوريا هو المعبر عن روح الثورة. إما نعيش حياة حرة كريمة وإما الموت دونها. حضر الآلاف من المشيعين وهتفوا ضد النظام، وضد عصاباته من القوى الأمنية، وهتفت الجموع للقصاص من هؤلاء المجرمين القتلة.

في هذا اليوم إنتفضت درعا عن بكرة أبيها. أطلق القتلة الرصاص من جديد على المشيعين، وقتلوا أيضاً شابين من المشيعين وجرح قرابة عشرين رجل وطفل آخرين. وفي اليوم الثالث وكان يوم الأحد الموافق 20. 03. 2011 خرج الناس في درعا في مظاهرات حاشدة وشيعوا الشابين الذين سقطوا في اليوم الذي سبق، وأطلق المرتزقة وعصابة حزب الله الرصاص على المتظاهرين العزل، وسقط أيضاً عدد من الجرحى. في هذا اليوم أدخلت عصابات الأسد الدبابات ووحدات من الفرقة الرابعة ذات اللون الطائفي المعروف بقيادة المجرم ماهر الأسد، وضربت طوق أمني عسكري حول المدينة من جميع الجهات، ووضع القناصة المستوردين من إيران ومن عصابات حزب الله اللبناني فوق أسطح البنايات العالية، وفوق المؤسسات الحكومية، كمؤسسة دائرة البريد القريبة من المسجد العمري في وسط المدينة القديمة.

توالت المجازر في درعا. وفي اليوم التالي الثلاثاء مساءاً وفي الساعة 12 ليلاً ، وصباح يوم الأربعاء في 23. 03. 2011 هاجمت قوات الأمن وقناصة حزب الله اللبناني المسجد العمري، الذي تحول بدوره إلى مستشفى ميداني لتعذر وصول الجرحى إلى المستشفى الوطني التي تسيطر عليه الأجهزة الأمنية، ولأن حياة الجرحى أصبحت مهددة بعد تكرار حالات الإجهاز على الجرحى وقتلهم من قبل عناصر الأمن الأسدية التي تسيطر على المستشفى الحكومي وغيرها من المراكز الطبية الحكومية الأخرى. عندما سمع السكان القريبة منازلهم من المسجد العمري بزخات الرصاص على المسجد وعلى الناس المتجمعة حول المسجد هبوا وتراكضوا لهناك لحماية الجرحى وحماية الأطباء والمسعفين القائمين على علاج الجرحى الذين سقطوا في الأيام السابقة.

في عتمة الليل أمطر القتلة الغزاة الناس بالرصاص الحي دون تمييز. لقد سقط في هذه المذبحة 35 شهيداً وعشرات الجرحى. كان من بين الشهداء الدكتور الطبيب علي غصاب المحاميد، والممرض المرافق له، وسائق سيارة الإسعاف أيضاً. لقد أطلق قناصة حزب الله النار على سيارة الإسعاف التي تنقل الجرحى، وقد قتل الطبيب والمنقذ والسائق على الفور في سيارة الإسعاف أمام الجامع العمري برصاص قناصة النظام وقناصة حزب الله اللبناني.

دخل القتلة في تلك الليلة باحات وأروقة الجامع العمري، وأجهزوا على الجرحى المدنيين الممددين هناك، وهم يتبادلون الضحكات وصيحات العربدة والمجون بقتلهم شباب وأطفال وأطباء درعا. وصاح أوباش العصر " قتلناهم، قتلناهم". نعم لقد قتل المجرمون وشذاذ الآفاق الجرحى والمسعفين، بالإضافة لشباب وأطفال خرجوا من بيوتهم حفاة عراة لنجدة الجرحى الممددين في باحات وأروقة المسجد العمري. لقد فعلها هولاكو وإبن العلقمي من قبل في بغداد، وفعلها القرامطة قبل قرون في دمشق ودرعا.

إنطلاقة ثورة الحرية والكرامة السورية الباسلة
في تاريخ 18. 03. 2011

المكانة التاريخية والدينية
للمسجد العمري

يعتبر المسجد العمري في وسط درعا البلد من أهم المعالم الدينية والحضارية في بلاد الشام وسوريا، فهو أول مسجد وجامع إسلامي يبنى خارج الجزيرة العربية، وأول مسجد إسلامي يبنى في بلاد الشام. فقد بدء البناء به في عام 635 م بطلب من الخليفة الثاني عمر إبن الخطاب عندما زار المدينة في نفس العام وأقام بها أسبوعين ونصف الاسبوع، وأقام في تل الجابية وتل الجموع بالقرب من مدينة نوى ثلاثة اسابيع اخرى، أثناء قدومه إلى الشام وإجتماعه بقيادات جيوش الفتح الاسلامي الخمسة في بلاد الشام، بقيادة خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعمر بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنه، للتحضير للذهاب إلى القدس الشريف لاستلام مفاتيحها بعد إنتصار العرب المسلمين على الروم في معركة اليرموك الحاسمة.

وقد بني المسجد العمري على أنقاض معبد وثني يوناني، وكنيسة رومانية قديمة، كانت قائمة بجوار المسرح الروماني الموجود في وسط المدينة. وقد كلف الخليفة عمر الفاروق قائد جيوش الشام ابو عبيدة بن الجراح، الذي إتخذ من درعا مركزاً لقيادة الجيوش الاسلامية في درعا، بالاشراف على بناء هذا المسجد. لقد دام بناء المسجد مدة خمسة أعوام.
كان المسجد العمري يتكون في البداية من الرواق الجنوبي، والذي يتكون من ثلاثة صفوف من القناطر، وكل صف كان يتكون على طول الرواق من سبعة قناطر من الشرق إلى الغرب، منصوبة على أعمدة وتيجان من

حجر البازلت المنحوت. كانت هذه الصفوف من القناطر تشكل صحن أرض المصلى للجامع العمري. وخارج هذا المصلى من جه الشمال كانت ساحة المسجد العمري المرصوفة ببلاط من حجر البازلت الاملس الناعم الاسود. وقد إتخذ برج الكنيسة القديم، الواقع في الزاوية الشمالية الغربية من ساحة المسجد، والمرتفع عن الارض قرابة 8 أذرع، كمئذنة للجامع العمري.

بعد ذلك حصلت بعض الاضافات على الجامع العمري، وخاصة في العصر الايوبي والعصر المملوكي. وقد أضيف للجامع الرواق الشمالي والرواق الشرقي والرواق الغربي، وأيضاً بنيت مأذنة بأرتفاع 14 متراً. وقد أدخلت تعديلات وإصلاحات عديدة على بناء المسجد العمري عبر السنين، وخاص بعد كل ضرر يقع عليه جراء بعض الهزات الارضية التي كانت تضرب المنطقة. لكن ظل الجامع العمري محافظاً على شكل بنائة الاول، وعلى مساحتة وعلى رونقة المعماري والفني. فهو يشبه في شكل بنائة الفني مسجد بني أمية الكبير في دمشق، الذي بني في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان في عام 685 ، أي بعد قرابة الخمسين سنة من بناء المسجد الجامع العمري في درعا. وبعد بناء الجامع العمري بدرعا إنتشرت ظاهرة بناء المساجد في حوران في فترات زمنية متنوعة، واطلق على أغلب هذه إسم "المسجد العمري"، تيمناً بالمسجد العمري القائم في درعا، وإحتراماً وتقديراً للخليفة الراشدي الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ربما لا تخلو مدينة أو قرية في حوران من أحد المساجد العمرية.

من المعروف أن أهل درعا وأهل حوران لهم علاقة طيبة بذكر الخليفة عمر الفاروق. فالمدينة ، كغالبية مدن وقرى حوران فتحت على يد خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح صلحاً ودون قتال. وهي موطن للغساسنة

المسيحيين العرب، الذين كانو يحكمون حوران وجنوب بلاد الشام، والذي كان أخر ملوكهم جبلة إبن الايهم. وقد كان يطلق بقية العرب عليهم تعبير "العرب المتنصرة" أي العرب النصارى أو المسيحيين العرب. وقد وافقهم الخليفة عمر في البقاء على دينهم وعدم إكراههم على دخول الدين الاسلامي إلا طوعاً. وكفل لهم الامن والامان وممارسة شعائرهم الدينية المسيحية بكل حرية، ودون مضايقة وإكراه.
وقد رفض أهل حوران دفع الجزية مقابل إعفائهم من الدخول في الجيش والاشتراك في الحروب، لانهم كانوا يعتبرون ذلك إنتقاص من كرامتهم وإهانة لهم. وطالبوا بالسماح لهم بالانضمام إلى الجيش الاسلامي والقتال إلى جانب أبناء عمومتهم من العرب المسلمين. وقد وافق الخليفة عمر بن الخطاب على هذا الطلب وعلى هذه الرغبة لقبائل الغساسنة ولسكان حوران المسيحيين (النصارى). ولم يدفع مسيحي حوران الجزية، وكانوا يدفعون الضرائب والخراج كبقية المسلمين للدولة. وقد كان هذا الموقف المتسامح والجريئ تجاه اهل حوران من الخليفة عمر بن الخطاب، وقبل قدومه إلى الشام بعدة أشهر، الاثر الكبير الطيب والايجابي على سلوك الناس وعلاقة المسلمين والمسيحيين بالتعايش السلمي في حوران وجنوب سوريا حتى يومنا هذا.

وقد أشتركت أعداد كبيرة من أبناء حوران المسيحيين الغساسنة في المعارك التي دارت ضد الروم في جنوب بلاد الشام إلى جانب المسلمين العرب، وخاصة المشاركة بكثافة في معركة اليرموك. فقد أنشقت الولاءات في المجتمع في أرض حوران إلى فئتين، فمنهم من إنحاز للرابطة الدينية المسيحية ووقف إلى جانب الرومان وحارب معهم، والقسم الاخر، وهو سواد الشعب، والذي كان يبغض ويكره الرومان والاضطهاد الروماني لهم، وإنحاز إلى الرابطة العرقية والقومية، ووقف إلى جانب العرب المسلمين وحارب إلى جانبهم في معركة اليرموك

الشهيرة على وجه الخصوص. وربما كانت هذه المشاركة هي من أحد عوامل النصر العسكري الكبير للعرب المسلمين على الجيوش الرومانية في معركة اليرموك الشهيرة.

عندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى بلاد الشام وإلى درعا (أذرعات) إستقبله سكان درعا (أذرعات) بالاهازيج والدفوف والمزامير إحتفاءاً وإبتهاجاً به وبقدومه إلى مدينتهم. وتعجب عمر بن الخطاب من هذا الاستقبال وهذه الطبول والدفوف، ولم يستزغ هذا النوع من الاحتفال والاستقبال، وطلب من أبو عبيدة بن الجراح والي المدينة في حينه، والذي كان يرافقه عند مدخل المدينة الجنوبي، بأن يأمر هؤلاء الناس بالتوقف عن هذا النوع من الاحتفلال والترحيب. لكن أبو عبيدة بن الجراح، أمين الامة، نصح الخليفة عمر بأن يعدل عن هذا الطلب، وقال له كلمته المشهورة: "أن لأبناء المدينة والمنطقة إسلوبهم وعاداتهم في استقبال الكرام، وفي التعبير عن إحترامهم وتقديرهم لزوارهم المقدرين، وإن طلب منهم التوقف عن هذا سيعتبرون ذلك إهانة وعدم تقدير لهم، وبعدها ربما يعودون إلينا على ظهور خيولهم ورافعين رماحهم وسيوفهم بوجوهنا". وقد إستجاب الخليفة عمر بن الخطاب بفطنته لمشورة ونصيحة ورأي ابي عبيدة بن الجراح، الذي قد تعرف عن كثب على مزاج وعادت وتقاليد سكان تلك المنطقة من بلاد الشام، وتجاوز الخليفة عمر بحنكته وعبقريته ما قد طلبه من أبو عبيدة.

أسال أوباش العصر الدماء في ساحة المسجد العمري الكبير، وقتل الجرحى وهم على أسرة العلاج. فقط فرق القرامطة، عندما إجتاحت جيوشهم بلاد الشام، ودخلوا حوران ومدينة درعا في عام 901 م قاموا بتخريب وتدمير أجزاء من المسجد العمري، وقاموا بذبح المصلين والمتعبدين في هذا المسجد، وفي مساجد إخرى في حوران وسوريا.

وكانت المرة الثانية التي تم فيه الاعتداء على المسجد العمري وتخريبة، وإطلاق الرصاص الحي على الجرحى والمصلين فيه وفي ساحته وأروقته في ليلة 23. 03. 2011 من قبل عصابات نظام الاسد ومرتزقة حزب الله اللبناني الطائفيين، عندما إجتاحوا المدينة والمسجد العمري في ليلة غدر وخديعة.

وقد أكمل هؤلاء الاوباش القتلة فعلتهم الشنيعة عندما قصفوا مئذنة الجامع العمري في تاريخ 13. 04. 2013 بمدفعية الدبابات وتسببوا بهدم تلك المئذنة التاريخية النادرة والفريدة بشكلها ونوع بنائها التاريخي.

المصلى في الجامع العمري، وهو الرواق الجنوبي من الجامع العمري في درعا البلد.

المسجد العمري ومؤذنته التاريخية الفريدة من نوعها

تلك مؤذنة الصرح التاريخي، المسجد العمري، التي دمرتها وهدمتها مدافع دبابات عصابات الاسد في تاريخ 13. 04. 2013 . الشاهد التاريخي الحي على همجية تلك العصابات الطائفية الحاقدة.

حوران تدخل بكل ثقلها
وتحمل مشعل الثورة

في هذه الأثناء وفي إشتداد ثقل أدوات القمع والبطش الأسدي وفي ظهيرة يوم الأربعاء 23. 03. 2011 استنجد أهل درعا الثائرة على نظام الأسد وعصباته الأمنية بأهلهم من سكان قرى ومدن حوران الأبية. وهم يعرفون مؤمنون كل الإيمان أن حوران لم تخلف يوماً الميعاد، فهم عزوتهم وحصنهم الحصين، كما كانوا في من قبل أثناء كفاح أهل حوران ضد كل مستعمر وغاشم لأيم. ونادت الجموع الثائر في المدينة المحاصر في يوم الأربعاء 23. 03. 2011 وأثناء تشييع شهداء مذبحة الجامع العمري بنشيد النخوة المعروف والمشهور بين أهل حوران، "الفزعة الفزعة يا حوران"، "الفزعة الفزعة يا حوران". تطاير الخبر في أرجاء سهل حوران الفسيح ووصل النداء إلى أجناب حوران بأن مدينتهم الباسلة درعا، رمزعزتهم تطلب النجدة من أهلها.

لم يمض وقت طويل حتى وسارت فتية في قرى ومدن حوران تحض الناس على النهوض وعدم التلكوء والسير إلى عرينهم الأبدي، إلى درعا الثائرة. فمنهم من دعى أصدقائه وأقاربة ومعارفه عبر الهاتف. ومنهم من دار بالأزقة والحارات راكباً على دراجة نارية أو سيارة، ومنهم من صاح في مكبرات الصوت في المساجد ومن على المأذن، أن هبوا وفكوا الحصار عن أهلكم ولا تتركوا قتله هذا العصر وأوباشها يستفردون بمدينتكم الباسلة. تقاطرت الجموع الثائرة من كل حدب وصوب من ربى حوران متوجهه إلى درعا الصامدة الثائرة. وبعد أقل من ساعتين كان

يتجمع أمام مداخل درعا الرئيسة والفرعية أكثر من سبعون إلى ثمانون ألف متظاهر سلمي وهم يهتفون نشيد الإباء والسؤدد الحوراني المعروف "من حوران هلت البشاير لعيونك يا شعب يا ثاير". فمنهم قدم على دراجة أوعلى ظهر جرارات زراعية وسيارات نقل، ومنهم من جاء سيراً على الأقدام.

قرر المحتشدون دخول المدينة عنوة وبصدور عارية دون أي سلاح مهما كلف الثمن. زحفت الجموع بإتجاه مركز المدينة من المدخل الشرقي ومن المدخل الغربي ومن المدخل الشمالي للمدينة الباسلة. استطاع الذين دخلوا من المدخل الشرقي والغربي في الوصول إلى منطقة المحطة والإلتحام بالمتظاهرين الثائرين داخلها بخسائر قليلة من الشهداء والجرحى. لكن الذين تجمعوا في المدخل الشمالي أوقعتهم عصابات الأسد في كمين غدر وخسة، حيث سمح لهم أولاً بالدخول إلى أول المدينة، ولكن عندما وصلت الجموع إلى منطقة مكشوفة على الطريق الرئيسي بين مركز المخابرات العامة ومجمع النقابات هناك أطلق القتلة نيران سلاح رشاشاتهم على المتظاهرين من أبناء القرى الحورانية. سقط في هذه المذبحة 26 شهيداً وما يقارب من 120 جريح. في هذا اليوم كانت حصيلة الشهداء الذين سقطوا بنيران القناصة والشبيحة والأمن 71 شهيد وأكثر من 300 جريح.

سقط الشهداء والجرحى لكن أهل حوران نجحوا بالوصول إلى أهلهم في المدينة المحاصرة، ونجحوا في إرباك قوات ماهر الأسد وعاطف نجيب وعمت الفوضى في صفوفهم وهربت بعض وحداتهم أمام هدير الثائرين. أكثر من 600 ألف إلى 700 ألف متظاهر صار يجوب شوارع درعا وساحاتها وعلى وجوههم علامات الغضب والتصميم والتحدي. في ذاك اليوم هربت قوات الأمن والجيش والشبيحة من درعا وصارت المدينة محررة من تلك العصابات الأسدية الضالة.

وهنا وفي هذا المكان بالذات تجلت صورة الوحدة الوطنية السورية بأفضل صورها. ففي القرب من المكان الذي حدثت به المذبحة توجد كنيسة ودار عبادة للمواطنين الحوارنة المسيحيين. وفور سماع زخ الرصاص على المتظاهرين السلميين فتح راعي الكنيسة أبواب الكنيسة واستقبل فيها الجرحى والشهداء واستدعى المتطوعين من الأطباء والمسعفين، وتحولت الكنيسة إلى مستشفى ميداني يعالج فيها المصابين تماماً كما هو الحال في المجامع العمري وغيره من مساجد المدينة. إن شعار ثورة الحرية والكرامة " واحد واحد واحد الشعب السوري واحد" قد تجلت تطبيقاته في هذا الشكل من اللحمة الشعبية على أرض درعا.

لم يتوقف سيل الثوار الحوارنة المتدفق إلى مدينتهم درعا الباسلة، ومنذ تلك اللحظات التاريخية من عمر الثورة السورية المباركة إنتقلت الثورة السورية من درعا لتعم كل قرى ومدن محافظة درعا. بقيت الثورة وأحداث الثورة تصنع في ربوع حوران وبالدم القاني واللحم الحي، وترسم حروف المستقبل السوري في تلك الديار.

بعد ما يقارب الشهر من صمود وصبر أهل حوران الأسطوري إنتقل نشيد الكرامة والحرية السورية وطاف ربوع سوريا حتى عم الأرض السورية من شمالها وإلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها. وهبت وإنتفضت تلبيسة في حمص وبانياس على الساحل السوري نصرة لدرعا، وكانت حرستة وكفرسوسة ودوما في ريف دمشق قد أعلنت الشراكة في الوطن والثورة. ومن بانياس واللاذقية ودير الزور والبوكمال تسارع لهيب ثورة الحرية والكرامة السورية يحرق وجوه عصابات الأمن والشبيحة ويزلزل الأرض من تحت أقدام طغاة العصر.

لقد سبق جريمة إعتقال الأطفال في درعا أن أقدمت الأجهزة الأمنية في شهر يناير من عام 2011 على إعتقال 74 شاباً من بلدة غباغب التابعة لمحافظة درعا أثناء أثناء سير أحداث الثورة التونسية وبداية الثورة المصرية، وإتهامهم بزعزعة الأمن في البلد، لكن لم يتنبه لهذه الحادثة، أحد لا في سوريا ولا في أغلب مدن وقرى حوران. ووقعت حادثة أخرى في مدينة درعا كان لها الأثر الكبير على الأجواء النفسية والسياسية في المدينة التي سبقت إنطلاقة الثورة في درعا في 18. 03. 2011 . وملخص هذه الحادثة، بأن أحد الطبيبات تدعى عائشة المسالمة تحدثت بالهاتف لأحد صديقاتها وزميلاتها بالدراسة من بلدة خربة غزالة ومقيمة في دولة الإمرات العربية المتحدة، وذلك في يوم سقوط حسني مبارك وإنتصار الثورة المصرية في 11. 02. 2011. في هذه المكالمة التلفونية تبادلت الطبيبتان الصديقتان التهاني بسقوط حسني مبارك وإنتصار الشعب المصري الشقيق، وقالت الدكتورة عائشة المسالمة في سياق حديثها لزميلتها "إنشاء الله عن قريب عندنا ويسقط هالطاغوت ونتحرر مثلهم". كان رجال الأمن كالعادة يتنصتون على مكالمات الناس، وقد سمع وسجل رجال الأمن هذه المكالمة.

في نفس الليلة أقدم جهاز الأمن على إعتقال الطبيبة عائشة المسالمة، وتم إحتجازها لمدة عشرة أيام. لقد شاع الخبر بين الناس وتعجب المواطنون من هذه الممارسات التعسفية لأجهزة أمن السلطة. صحيح أنه قد تم الإفراج عن الطبيبة وتم تهديدها بالقتل إن تكررت هذا التصرفات من قبلها، لكن غضب شديد سرى في أوساط سكان المدينة، وصارت شحنات من الغضب والقرف من عصابات أجهزة الامن تتزايد يوماً بعد يوم. فحادثة إعتقال أطفال درعا بعد عدة أيام من حادثة إعتقال الطبيبة كانت منسجمة مع ممارسات عصابات الأجهزة الأمنية منذ عقود وفي أجواء الربيع العربي كانت الحادثة التي بلغ فيها السيل الزبى وطفح بها الكيل.

وللتذكير ومعرفة عقلية العصابات التي حكمت سوريا خلال الأربعين عاماً الماضية، فقد أقدمت عصابات الأسد بعد عام على حادثة إعتقال الأطفال من مدرسة الأربعين الإبتدائية في درعا على إغتيال مدير المدرسة الإبتدائية، التي خط الأطفال شعاراتهم على جدرانها، وأنشدوا في باحتها نشيد الحرية الأول. ففي 14. 03. 2012 أقدم أحد قناصة عصابة الأسد على إغتيال الإستاذ عليوي غالب قطيفان مدير مدرسة الأربعين الأبتدائية ،إنتقاماً وإمعاناً في سياسة الإجرام الذي تتبعه عصابات الأسد والشبيحة في سوريا.

إجتياح مدينة درعا
عسكرياً

في يوم 25. 04. 2011 جمع برابرة العصر الفرق العسكرية من الجيش السوري وتمركزت حول مدينة درعا مهد الثورة السورية الباسلة. لقد حشدت فرقتين عسكريتين وثلاثة ألوئة عسكرية بالإضافة إلى الآلاف من قطعان المرتزقة من الشبيحة وأعضاء حزب البعث، وأفراد الأجهزة الأمنية المختلفة، بالإضافة للقناصة التي جلبها النظام من مرتزقة عصابات حزب الله اللبناني، من أجل تركيع المدينة السورية الثائرة في جنوب البلاد.

في صبيحة يوم 25. 04. 2011 دخلت دبابات الفرقة الخامسة والفرقة التاسعة المدينة من كل مداخلها فاتحة النار على كل شيئ حي يتحرك في المدينة. وتم قطع التيار الكهربائي، وقطعت كل وسائل المواصلات عن المدينة الباسلة، ومنع وصول المواد الغذائية والدواء وحليب الأطفال لسكان هذه المدينة الأبية. ولم يكتفي الغزاة الحاقدون بإرتكاب كل هذه الأفعال البربرية، بل أطلقو النار على خزانات مياه الشرب المقامة في البيوت وعلى أسطح المنازل، بقصد تعطيش المواطنين، وتجويعهم لكسر شوكتهم.

في هذا اليوم المشؤوم من تاريخ حكم عصابات الأسد سقط الشهداء والجرحى، وخربت البيوت والمحال التجارية وسرقت محتوياتها. بلغ عدد الشهداء في الأيام الأولى للإجتياح قرابة 215 شهيد، ووصل عدد الجرحى إلى مايقارب 700 جريح. وفي هذا اليوم والأيام التي تلت سرقت البيوت ونكل بالمواطنين أبشع تنكيل، وسيق الشباب والرجال وحتى الأطفال إلى المعتقلات الجماعية، تلك المعتقلات التي إخترعها الحكام النازيين والفاشست في أوروبا في منتصف أعوام القرن العشرين وأثناء الحرب العالمية الثانية. لقد تم حجز المعتقلين في ستاد الملعب الرياضي في درعا، وفي المدارس الحكومية، وقد غصت السجون بالمعتقلين. لقد بلغ عدد المعتقلين من مدينة درعا وقرى وبلدات حوران في هذه الهجمة البربرية 84 ألف معتقل.

طال حصار مدينة درعا مدة 25 يوماً كاملة حيث قطعت المدينة عن العالم الخارجي تماماً ولم يتسنى للعالم معرفة ما يجري في المدينة المنكوبة والمحاصرة. وتم تصفية أعداد كبيرة من الجرحى والمعتقلين بدم بارد. ووضعت الجثث المتناثرة في الشوارع في برادات الشاحنات لتعذر إمكانية دفنها وتجنباً لرصاص القانصة المتمركزين على أسطح البنايات العالية من أعضاء فرقة الحرس الجمهوري، ومرتزقة حزب الله اللبناني. كان هؤلاء القتلة يطلقون النار على أي شخص كبير أو صغير، رجل أو إمرأة، يتواجد في الشارع أو على شرفة بيته، أو يقف خلف نافذة بيته. كلاب مسعورة غزت مدينة التاريخ والحضارة والإباء العربي (أذرعات) درعا. لقد أظهرت هذه العصابات كم من الحقد لم يستطع أي إنسان توقعه أو تخيله. من أين أتى هؤلاء القتلة بكل هذا الحقد الدفين !

إعتقد الغزاة في تنفيذ فعلتهم الهمجية أنهم سيقدرون على تركيع المدينة الباسلة وإنهاء الثورة في سوريا. لكن الشعب السوري فوت على هؤلاء

القتلة فعلتهم، وأفشل مخططاتهم حين هبت المدن والأرياف السورية منتفضة في وجه الطغاة ومننتصرة لدرعا الصمود. لقد صارت كل سوريا في ذاك اليوم درعا، وحملت الراية أكثر من مدينة وقرية، وقادت الثورة حمص العدية، ودوما عروس الثورة، وحماة ودير الزور واللاذقية وإدلب. وكانت القامشلي عند الوعد. في هذا اليوم أصبحت إنتفاضة درعا وحوران ثورة الشعب السوري قاطبة. في يوم إجتياح درعا في 25. 04. 2011 صارت كل المدن السورية تشابه درعا وحوران في ثورتها الباسلة. إجتيحت درعا وخسر الأسد وعصابته الرهان. إجتيحت درعا وتحرر الشعب السوري وكسر حاجز الخوف. سقط الشهداء والجرحى في درعا الأبية وإنتصرت الثورة وأنتصرت درعا على الطغاة والمجرمين. لم تتوقف الثورة على الرغم من دبابات ومدافع عصابات آل الأسد. لا زالت درعا إلى جانب بقية المحافظات السورية قوية عصية على الكسر، ونظام الردة صار يتآكل ويندحر وتتفكك قواه.

سلسلة المذابح
التي ارتكبتها عصابات الأسد في حوران

توالت المذابح التي ارتكبتها عصابات الأسد ضد أبناء حوران لإرغامهم على التوقف عن التظاهر، وعلى الرجوع عن الثورة وعن أهداف ثورة الحرية والكرامة. وتفاوتت أعداد الضحايا من شهداء وجرحى من مجزرة إلى أخرى. وتنقلت المجازر والمذابح التي صنعتها عصابات الأسد والشبيحة من مكان إلى مكان، ولم تختصر على مدينة درعا التي حدثت بها ثلاثة مذابح خلال الأسبوع الأول من بداية الثورة.

على الرغم أن المذابح التي إقترفتها عصابات الأسد عمت المدن والأرياف السورية، وأصبح من المتعذر تعدادها إحصائها لكثرتها، لكن لا بد من ذكر بعض هذه المذابح والجرائم الأولى من بداية الثورة لما لها من معناً سياسي وكفاحي لأهل هذه المنطقة، ولاهل سوريا بشكل عام. وهي تظهر بشكل واضح وجلي الخطط والأهداف المبيتة لعصابات الأسد في إفتعال هذه المذابح بشكل مقصود لإرهاب الشعب السوري، وإرغامه على العدول عن الثورة، وإخماد الثورة بكل السبل، ولو على بحور من الدماء.

مذبحة الصنمين:

حدثت هذه المجزرة في 25. 03. 2011 في مدينة الصنمين الحورانية، والتي تبعد عن مدينة درعا بحوالي 50 كيلومتر شمالاً. كبقية مدن وقرى

حوران إنتفضت مدين الصنمين والبلدات القريبة منها نصرة لمدينة درعا الباسلة. وقد بدأت المظاهرات في هذه المدينة كبقية المدن في حوران سلمية تماماً. وسارت المظاهرات في الشوارع الرئيسية للمدينة تنادي بالحرية والكرامة وبفك الحصار عن درعا. وعندما إقتربت المسيرة من مخفر الشرطة القريب من مساكن ضباط الجيش في المدينة، أطلق القناصة والجنود المتواجدين هناك النار على المتظاهرين دون سابق إنذار. وقد سقط في هذه المذبحة 22 شهيد وأكثر من 70 جريح. كان أغلب الضحايا من الأطفال والشباب اليافع.

هذه المذبحة كانت السبب المباشر لحرق وتحطيم صور وتماثيل عائلة الحقد والإجرام المنتشرة في كل زوايا وساحات سوريا. في ذاك اليوم المشهود إنتشر الخبر في العالم عن المذبحة في الصنمين، وكان لازال الآلاف في مدينة درعا يتظاهرون ويملأون شوارع المدينة، وعندما وصل الخبر وسمع آلاف المحتجين في مدينة درعا عن هذه المذبحة المروعة التي ارتكبت بحق أهلهم وأبناء شعبهم في مدينة الصنمين، وفي تلك اللحظات هاج الناس وتفجروا غضباً، وهاجموا كل ما له علاقة برموز السلطة الغاشمة المنتشرة في مدينة درعا.

فقد أقدم أحرار درعا على تحطيم تمثال الصنم حافظ الأسد المقام في الساحة العامة أمام نادي الضباط وأمام بيت المحافظ. وقد أصر الثوار على تحطيم هذا الصنم على الرغم من فداحة التكلفة، حيث سقط خمسة شهداء حول هذا الصنم حتى تم تحطيمة وإزالته من الساحة. وكانت جموع في المدينة الثائرة قد أحرقت وحطمت كل الصور والتماثيل واللواحات التي ترمز لتلك العصابة الحاكمة. لقد أطلق بعض الناس على هذه الحملة الشعبية الثائرة حملة تنضيف المدينة. بعد هذا الحدث انتشرت

في كل عموم سوريا مبادرة تحطيم رموز تلك العائلة من أصنام وصور ولوحات بهذا الخصوص.

مذبحة إنخل:

إنخل هي أحد مدن حوران الباسلة تقع في الجزء الغربي من حوران، ولا تبعد عن خط الجبهة على الجولان أكثرمن 10 كيلو متر. كان أحرار تلك المدينة يسيرون في 01. 04. 2011 على الطريق العام المتجه إلى مدينة الصنمين. كانت الجموع تنوي الوصول إلى الصنمين، لمشاركة أهلها في تشييع جنازات بعض الشهداء الذين سقطوا في تلك المدينة، والوقوف إلى جانب أهلهم في المصاب الذي أحدثته المجزرة الرهيبة التي حلت بسكان مدينة الصنمين الباسلة قبل خمسة أيام في 25. 03. 2011 .

في وسط الطريق، وفي منطقة مفتوحة على السهول المسطحة، كان جيش النظام يقيم حاجز عسكري ويقطع الطريق العام. وصلت الجموع الشعبية القادمة من إنخل وجاسم والحارة ونمر وغيرها من المدن والقرى الحورانية الغربية إلى القرب من هذا الحاجز العسكري بمسافة مئتي متر فقط. وهناك بدأ القتلة بفتح النار والرصاص الحي من رشاشاتهم المنصوبة على الدبابات والسيارت المصفحة. لم يك مع تلك الجموع الثائرة أي نوع من أنواع السلاح. لم يك لدى المتظاهرين حتى إمكانية أستعمال حجر للدفاع عن أنفسهم لأن المنطقة السهلية كانت حتى من الحجارة خالية. وفي هذه المنطقة الزراعية النبسطة لا توجد بها حتى أي شجرة يمكن أن يحتمي بها المتظاهرون من رصاص الجريمة والغدر. لقد إختار ضباط ومرتزقة عصابات الأمن والجيش الأسدي المكان بعناية، لكي يوقعوا أكبر عدد ممكن من الضحايا بالتظاهرين العزل. أي حقد يختزن هؤلاء القوم على هذا الشعب الباسل الأبي. أي طاقة من الغدر تكمن في عقول هؤلاء. في هذه المجزرة البشعة ارتكبت عصابات الجيش

الأسدي جريمة نكراء يندى لها جبين الإنسانية. كانت حصيلة الجريمة سقوط 12 شهيد وأكثر من 35 جريح.

مذبحة إزرع:

هي استمرار لما قد بدأه المجرمون في درعا في اليوم الأول للثورة يوم 18. 03. 2011 . إزرع هي مدينة تاريخية عمرها أكثر من أربعة آلاف سنة. وهي أحد مدن حوران التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه في معارك التحرير ضد المستعمر العثماني والمستعمر الفرنسي. في هذه المدينة لقن أحرار أزرع وأحرار حوران عام 1945 عندما هبت البلدة عن بكرة أبيها وحررت الثكنة العسكرية الفرنسية وسرعت برحيل المستعمر الفرنسي. جاءت عصابات الأسد في عام 2011 لترتكب بأحفاد هؤلاء الأبطال الأحرار مجزرة بشعة.

في يوم 22. 04. 2011 قدمت قوافل بشرية قادمة من قرى حوران المجاورة للتظاهر في هذه المدينة الواقعة في شرق وسط حوران والمشاركة في تشييع أثنين من الشهداء كانوا قد سقطوا قبل يوم برصاص عصابات الأسد. كان الناس قادمون من خربة غزالة ومن الشيخ مسكين ومن بصر الحرير ومن داعل ومن إبطع ومن الكتيبة ومن ناحتة وغيرها من القرى والبلدات المجاورة لبلدة إزرع.

وعند مدخل المدينة الغربي كانت عصابات الأسد قد نصبت كمين على جانبي الطريق لهؤلاء المتظاهرين العزل في منطقة سهلية مفتوحه. وفور وصول مجموعة من المتظاهرين إلى مدخل المدينة الغربي فتح المجرمون النار على الناس بقصد إقاع أكبر عدد ممكن من الضحايا. لقد سقط في هذه المجزرة حسب شهادات الأطباء والناس أكثر من 27 شهيد

وحوالي 85 جريح. كان عدد الشهداء والجرحى من الأطفال مرعب حيث تجاز النصف منهم، وكأن قناصة الأسد كانوا يختارون بشكل مقصود هذه الفئة العمرية من المتظاهرين.

مذبحة صيدا:

كانت عصابات السلطة قد ضربت طوق على مدينة درعا وقطعت عن المدينة الماء والكهرباء والغذاء والدواء. وقطعت عن المدينة كل وسائل الإتصال والمواصلات. وفي جمعة الغضب في 29. 04. 2011 زحفت حوران من كل الإتجاهات ومن كل المدن والأرياف نحو مدينتهم درعا لفك الحصار المضروب حولها منذ عدة أيام.

كان الناس يحملون الخبز وحليب الأطفال، وبعض الدواء، وما تيسر من مؤونة البيت لأهلهم في المدينة المنكوبة والمحاصرة. وكالعادة سلك الناس القادمون من القرى البلدات الشرقية، بصرى الشام، ومعربة، والسهوة، والجيزة، والحراك، والكرك الشرقي، وكحيل، وصيدا، طريق بصرى الشام ـ درعا، عبر بلدة صيدا التي لا تبعد عن درعا سوى 8 كيلو مترات.

عندما وصلت الجموع التي قدرت بحوالي مئة ألف مواطن منطقة مساكن الضباط، الواقعة على الشارع العام، فتح القتلة النار من شقق وبنايات مساكن الضباط النار على الجموع المتحركة بإتجاه درعا. وهناك سالت الدماء الطاهرة غزيرة على أرض حوران من جديد. وقد بلغ عدد الشهداء في هذه المجزرة المروعة أكثر من 225 شهيداً وحوالي 600 جريح وقرابة 200 مفقود. كان الطفل حمزة الخطيب ذو 13 عاما والطفل تامر الشرعي ذو 14 عاما من بين المفقودين. وبعد اسبوعين من تاريخ

المذبحة سلم الطفل حمزة الخطيب لأهله، لكن جثة هامدة وعليها أثار التعذيب الهمجي.

وبعد ثلاثة أسابيع سلم الطفل تامر الشرعي لذويه أيضاً جثة هامدة، لقد شوهت أجساد الأطفال أبشع تشويه، وهدد أهل الأطفال بالقتل في حال تمت معرفة الحقيقة، وكيفية تمت تصفية هؤلاء الاطفال على يد الضباط القتلة في أجهزة أمن النظام. لقد تبينت الحقيقة بان كل من الطفل حمزة والطفل تامر قد إصيبا بجروح خفيفة أثناء المجزرة. الأول أصيب بقدمه برصاصة قناص، والآخر أصيب في فخذه. وهذه الإصابات غير قاتلة وغير خطيرة. وقد إلقي القبض عليهما مع عدد كبير من المحتجين، ومورس عليهم جميع أساليب التعذيب والتنكيل الوحشية، التي تنم عن سادية وهمجية قل نظيرها. إنه الحقد الأسود.

مذبحة تسيل وسحم الجولان:

بلدة تسيل وجارتها بلدة سحم الجولان هي سلسلة من البلادات الحورانية الصامدة والصابرة في وجه المحتل الصهيوني. هاتين البلدتين الحورانيتين لا تبعدان عن خط وقف إطلاق النار مع العدو الصهيوني الجاثم على أرض الجولان المحتل أكثر من 7 كيلو مترات. فأبناء هذه البلدات هم جميعاً من جنود الخط العسكري الأول، وهم بفعل المعطيات الجغرافية من سكان الخندق الأول في وجه العدو الصهيوني. وقد تحمل أبناء هذه البلدات والقرى السورية الحدودية عبر العقود الطويلة مأسي وسلبيات هذا الصراع المرير. وهذه القرى والبلدات الحورانية هي ساحات معركة اليرموك الخالدة في التاريخ العربي والاسلامي، ومن هذه البلدات الحورانية إنطلقت خيول الفاتحين لبلاد الشام عام 634 م.

لقد كافأت عصابات الأسد أبناء هذه البلدات الحورانية الباسلة بسلسلة من المذابح والجرائم. كان أهمها تلك التي إرتكبتها هذه العصابات يوم 15. 02. 2012 . في هذا اليوم هرب سكان بلدة تسيل وسكان بلدة سحم الجولان من دبابات عصابات الأسد التي إجتاحت هاتين البلدتين إلى وادي العلان ذو المنحدرات الشديدة والوعرة، والذي يجري بجوار هاتين البلدتين، لحماية أنفسهم من بطش مدافع ورشاشات عصابات النظام. كان يضن المواطنون أنهم بمأمن على حياتهم من شر العصابات المسعورة المهاجمة، لكن القناصة وطائرات الهيليوكوبتر كانت للنساء والأطفال والشيوخ الهاربين من جحيم الموت الذي حل ببلداتهم تنتظرهم لتصب عليهم النار المجوسية الحاقدة.

سقط في هذه المذبحة البشعة على أيدي المجرمون القتلة قرابة 50 شهيداً، وأصيب ضعفهم من الجرحى برصاص أجهزة الأمن والشبيحة، ورصاص طائرات الهيليوكبتر. من كان يتوقع أن هذه البلدات التي بقيت صامدة كالطود أمام هجمات الصهاينة المتكررة على الأراضي السورية طوال سنين الصراع العربي ـ الصهيوني يقتل أهلها بدم بارد من دعاة الممانعة والمقاومة.
وقد شاركت عصابات الأسد في هذه المذبحة عصابات حزب الله اللبناني. من كان يتوقع ويتخيل أن أبناء الصحابة من جند خالد إبن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح شرحبيل بن حسنة وضرار إبن الازور في أرض اليرموك يقتلون بدم بارد على يد عملاء الفرس الطائفيون! على أرض سحم الجولان وتسيل وبلدة عدوان وجملة والشجرة جرت معارك اليرموك الخالدة، وهناك إنتصر العرب والمسلمون على جيوش الروم.

لقد بقيت أشلاء أطفال ونساء بلدة سحم الجولان وبلدة تسيل منتشرة على أطراف ومنحدرات وادي العلان لعدة أيام بعد حدوث المجزرة، ولم

يستطع المسعفين وذوي الشهداء والجرحى أسعاف أبنائهم لترصد جيش عصابة الاسد وأجهزته الامنية لكل من يتحرك داخل وخارج البلدتين لعدة أيام.

مذبحة بصر الحرير:

على أطراف اللجاة، في شرق حوران، تقع بلدة بصر الحرير، تتحدى نوائب الزمان وتشارك في صنع التاريخ في بلاد الشام. لقد أخذت هذه البلدة أسمها من العشيرة الحورانية المعروفة، عشيرة الحريري. هذه العشيرة لعبت على مر تاريخ المنطقة دوراً ريادياً في مقارعة المستعمر الأجنبي. ومن هذه العشيرة كان شيخ مشايخ حوران الشيخ أسماعيل الحريري أثناء الثورة الحورانية والنضال الحوراني ضد المستعمر الفرنسي عام 1920حتى عام 1928. كان الشيخ اسماعيل الحريري القائد العام لثوار حوران في تلك الأيام. كان أبناء بصر الحرير والقرى والبلدات الحورانية المجاورة منذ اليوم الأول لإنطلاق الثورة السورية في وسط الثورة. وكان أبناء القرى هذه، كبقية قرى حوران، قد إنخرطوا بكل قوة في صنع مستقبل سوريا وشارك أبنائها في فك الحصار عن مدينتهم درعا المحاصرة، وسقط منهم الشهداء والجرحى.

في جمعة العشاير بتاريخ 10. 06. 2011 خرج أبناء بصر الحرير وأبناء الغرية الشرقية والغرية الغربية، والكتيبة، وخربة غزالة، في مظاهرة حاشدة في بلدة بصر الحرير، تضامناً مع المدن السورية الأخرى المنكوبة، ومنددة بالمجازر التي ترتكبه عصابات بشار الاسد وعصابات حزب الله اللبناني في طول البلاد وعرضها. وأثناء سير الجماهير في وسط بلدة بصر الحرير تهتف للثورة وبإسقاد النظام ورموزة فتحت عصابات الأسد النار على الآلاف من المتظاهرين السلميين، وكالعادة

دون سابق إنذار أو تحذير. لقد سقط الشهداء والجرحى من كل الأعمار. وسال الدم الزكي الطاهر على ثرى أرضنا الطيبة.

توزعت حصص الشهداء والجرحى على كل القرى المشاركة. خمسة شهداء من بصر الحرير. خمسة شهداء من مليحة العطش. شهيدين من بلدة ناحتة، وشهيدين من خربة غزالة، وثلاثة شهداء من الحراك، وعدد من الشهداء من القرى الاخرى المجاورة لبلدة بصر الحرير. لقد بلغ عدد الشهداء في ذاك اليوم من الذين سقطوا على أرض بلدة بصر الحرير 27 شهيد، وأكثر من 85 جريح.

لم تك هذه المذبحة الأولى والأخيرة التي إرتكبتها عصابات الأسد في بلدة بصر الحرير في شرق حوران، بل هي واحدة من أكثر 8 مذابح أخرى تكررت وارتكبتها عصابات الأمن والشبيحة في هذه البلدة السورية الباسلة. خلال عام من الثورة الباسلة سقط في بصر الحرير والبلدات المجاورة لها أكثر من 120 شهيد، وزاد عدد الجرحى والمصابين في تلك البلدات الحورانية الثائرة أكثر من 400 جريح.

المعتقلين والمفقودين في حوران
خلال عام من الثورة

خلال الأسبوع الأول من بداية الثورة كانت كل مدن وقرى حوران قاطبة قد دخلت في معركة الحرية والكرامة، ولم تعد قرية أو مدينة في حوران، أوربما لم يعد بيتاً وعائلة من أهل محافظة درعا لم تقدم شهيداً أو جريحاً أو مفقوداً أو معتقل. فهي أم النشامى طلاب المنايا. ولازالت حوران شامخة وقوية برجالها ونسائها، إنها بلد العماليق وأرض اليرموك ومن تحداهم كان دائماً خاسر.

لقد بلغ عدد شهداء محافظة درعا خلال السنة الأولى للثورة السورية 1235 شهيد. وبلغ عدد الجرحى من محافظة درعا قرابة 7500 جريح. وزاد عدد المعتقيلن خلال السنة الأولى لثورة الحرية والكرامة التي إنطلقت من درعا في 18. 03. 2011 قرابة 100 ألف معتقل.

وقد بلغ عدد المعتقلين في أقبية الأجهزة الأمنية من ثوار حوران منذ تاريخ 25. 04. 2011 ، تاريخ بدأ الإجتياح العسكري لمدينة درعا حتى نهاية شهر تموز عام 2011 أكثر من 84325 ألف معتقل. وقد توزعت أعداد المعتقلين بين أفرع الأجهزة الأمنية المختلفة على النحو التالي:

- 29425 معتقل في فرع الأمن العسكري،
- 17850 معتقل في فرع أمن الدولة،

- 28500 معتقل في فرع الأمن السياسي،
- 8550 معتقل في فرع المخابرات الجوية.

هذه الأعداد من والمعتقلين من أبناء حوران تم إحتجازها في الملعب البلدي الرياضي في درعا، وفي المدارس الحكومية، وفي أقبية الأجهزة الأمنية. تعيد ممارسات نظام عصابات الأسد إلى الأذهان وتذكر بممارسات الدكتاتور بيونو شيت في التشيلي، وممارسات المجرم بول بوت في كمبوديا، التي ذهبت ريحهم وقدموا لمحاكمات شعبية وقضائية أدانتهم وتركتهم عبرة لمن يعتبر. سيسقط طغاة سوريا كما سقط الآخرون أمثالهم من الطغاة، وستدوسهم حركة الشعوب بأقدامها، وستجرفهم أعاصير الشعوب الثائرة إلى مكب نفايات التاريخ البشري غير مأسوف عليهم. وكانت البشرية قد تخلصت من طغيان وإجرام وشرورالزعيم الفاشي الألماني أدوولف هتلر، وإقيم نظام ديمقراطي دستوري يحترم حقوق الناس على أنقاض نظام شمولي عدواني أصابت شروره شعوب كثيرة في الجوار من ألمانيا وشعوب إخرى بعيدة.

لقد عم شر وأذى عصابات الأمن والشبيحة في سوريا حتى طال كل بيت من بيوت حوران. لم تعد عائلة أو فئة إجتماعية وفئة عمرية لم يطالها إجرام عصابات الأسد. الرجال والنساء والشيوخ والأطفال جميعهم طالهم إجرام عصابات الشبيحة وشرور الأجهزة الأمنية الأسدية المأجورة.

من محافظة لا يتجاوز عدد سكانها مليون ونصف المليون نسمة يقتل ويجرح ويسجن أكثر من 100 ألف من أهلها خلال الأسابيع الأربعة الأولى من إنطلاقة الثورة. بعد عامين من ثورة الكرامة تجاوز عدد شهداء حوران 7400 شهيد وأضعافهم من الجرحى. وتجاوز عدد المهجرين من قرى ومدن حوران نصف عدد السكان.

لا يوجد في تاريخ الثورات والشعوب ما يماثل هذه الحالة من عنف و إجرام من حاكم ضد شعبه، لكن لا يوجد في التاريخ البشري أيضاً ما يماثل ويشابه وقفة الحوارنة وإصرارهم على الإستمرار بالثورة على الرغم من حدة البطش والمذابح والإعتقالات والتشريد. لقد تورط الأسد وعصابته وإيران مع الحوارنة وكانت ورطته سودة مثل الكحل.

في درعا رسمت ملامح الثورة
وهناك وحددت أهدافها

كانت الأيام والأسابيع الأولى للثورة السورية بالغة الأهمية لمستقبل الحركة الجماهيرية السورية ومستقبل سوريا. ففي هذه الأيام العصيبة من عمر الثورة تم كسر حاجز الخوف وتم إثبات، وبالحس الملموس، أن الشعب قادر على تحدي سلطة عصابات الحكم. وفي الأيام الأولى من عمر الثورة السورية التي كانت دور أحداثها بشكل أساسي في مدينة درعا وفي اقرى ومدن حوران رسمت الخطوط العريضة لمسار الثورة، وحددت الاهداف الاساسية لثورة الحرية والكرامة السورية الباسلة. كانت هذه الخطوط والاهداف واضحة وضوح الشمس، وذات أبعاد وطنية وإنسانية تحاكي طموحات جميع المواطنين السوريين، في ببناء وطنٍ أفضل، يعيش فية الناس كرما أعزاء في وطن مستقر ومتطور.

على الرغم من سلسلة المذابح والمجازر التي أقدم النظام على إرتكابها، وبعد التحدي الأسطوري الذي أبدته الجماهير الثائرة لسطة عصابات الأمن، التي إجبرت عصابات الأمن والشبيحة على ترك المدينة والهروب والخروج إلى أطرافها. وقد أصبحت ساحة الجامع العمري، ساحة الكرامة، في الأيام والأسابيع الأولى لانطلاقة الثورة مكان يعج ليلاً ونهاراً بالشباب والشابات الثوار، وبالسياسيين من أبناء درعا وأبناء حوران. وقد توافدت وقدمت إلى ساحة العمري في تلك الأيام والأسابيع وفود الشعب السوري الثائرة من المحافظات السورية الأخرى، وجلست هناك وشاركت بإعتصامات وجلسات والحوارات النشطة والجارية في

ساحة الكرامة. وقد شاركت تلك الوفود والجماعات السورية أهل درعا وشبابها في الحوارات والنقاشات المسائية والليلية، والتي كانت في بعض جوانبها تمتد إلى الصباح من اليوم التالي.

في ساحة العمري كان النقاش والحوار حول الثورة ومستقبل البلد والشعب في الخيم المنصوبة في الساحة لا ينقطع بتاتاً. وكانت تمثل هذه الساحة إجتماعاً شعبياً ،أو مؤتمراً وطنياً عاما ومفتوح للجميع، تناقش فيه على مدار الساعة هموم الوطن، ومستقبل الثورة، وتكتيكات الثورة المناسبة، لإيصال الثورة والشعب إلى بر الآمان. فقد تحولت ساحة الكرامة، ساحة العمري، إلى ميدان التحرير السوري.

في هذا المؤتمر الوطني المفتوح في ساحة الكرامة شارك الآلاف من الساسة والمفكرين والثوار السوريين على مدى الأسابيع الأربعة الأولى من إنطلاقة ثورة الحرية والكرامة السورية، التي نعمت بها درعا قبل إجتياح المدينة بالدبابات والمدرعات في تاريخ 25. 04. 2011 . وقد أستمع وشارك الشباب الثائر في ساعات هذه النقاشات المكثفة والدائمة، حيث استطاع القادة والمفكرون إقناع الشباب بضرورة التقيد بسلمية المظاهرات، وبضرورة عدم الإنجرار لإستفزازات أجهزة أمن النظام، مهما كلف الثمن، وكان تجاوب الشباب كبير ويصل إلى المثالية، للثقة التي تمتع بها هؤلاء الرجال السياسيين المعروفين بوطنيتهم ووعيهم.

وقد نجحت القيادات السياسية بإقناع الشباب الثائر بصحة هذه الإستراتيجية. سلمية الثورة، التي أصبحت هي السمة العامة للثورة السورية لاكثر من سبعة أشهر من تاريخ إنطلاقة الثورة رغم وحشية النظام وسلسلة المذابح التي إرتكبتها أجهزته الامنية ووحدات جيشه الطائفية وعصابات حزب الله بحق الشعب الثائر. واستوعبت قطاعات

واسعة من الشباب والجماهير الثائرة أن مصير الثورة في درعا يحدد مصير سوريا، وأن التغيير في سوريا ليس مصلحة محلية لأهل درعا أوحوران فقط، بل هي مصلحة سورية ومصلحة عربية شاملة أيضاً. ولاحظ أبناء الثورة في المدينة الباسلة أن أبعاد القضية السورية هي أبعاد عالمية ويجب التصرف بوعي عالٍ، ومسؤولية وطنية وقومية شديدة. وفي تلك الأيام والليالي الاولى من عمر الثورة تم تعبئة الجماهير السورية الثائرة بعد ذلك على أسس وقواعد استراتيجية كان أهمها:

- سلمية الثورة
- وجماهيرية هذه الثورة
- وحدة الشعب السوري، ووحدة تراب الوطن السوري، وعدم زج جماهير الثورة في صراعات جانبية لا طائل منها.

إن شعار سلمية ووطنية الثورة أكسب الثورة وجماهيرها مصداقية شعبية وطنية هائلة، وأكسبها تعاطف جماهيري ورسمي عربي ودولي، وعرى النظام وعصابته محلياً وعربياً ودولياً. تتجلى أهمية هذه المرحلة، وخاصة إذا ما عرف بأن المنطقة التي نشأت بها الثورة يمتاز أهلها بالقوة والثقة بالنفس، والقدرة بالرد المباشر والقوي على أي إعتداء يوجه إليهم، على المستوى الفردي والجماعي من أي طرف كان. وحتى ولو كان المعتدي الدولة وبتفوقها العسكري. وقد كان من المحتمل أن يلجأ أبناء هذه المنطقة، درعا وحوران، وخاصة الشباب منهم، إلى العنف إستعمال السلاح في وجه السلطات كرد مباشر على جرائم النظام بحقهم وحق ذويهم وأهلهم، لولا توصل هؤلاء الشباب الانقياء لقناعات عميقة وواعية لأهمية الثورة السورية وضرورة أستمرارها.

لقد استوعب الشباب في درعا وحوران درجة المسؤولية العالية والتاريخية الملقاة على عاتقهم أمام الشعب السوري وشعوب المنطقة. لقد

فهم أبناء حوران دورهم التاريخي المتميز في هذه المرحلة من الثورة والتاريخ السوري، وقد تحملوا وصبروا وكضموا غيضهم وغضبهم، ولم يلجأوا للإستعمال السلاح ضد عصابات السلطة. في أكثر من مرة حاولت عصابات السلطة جر الشباب للإستعمال السلاح من خلال ترك أسلحة في أكثر من مكان، لكن الشباب وعوا الهدف والقصد من هذه التصرفات ولم يقعوا في الفخ الذي حولت عصابات الأسد نصبه لأهل درعا. لقد تحلى أبناء درعا وأبناء حوران بالصبر والحكمة والشجاعة المنقطعة النظير، التي ستذكره الأجيال القادمة جيلاً بعد جيل.
إن الأيام الأولى والأسابيع الأولى للثورة أتاحت الفرصة الذهبية لوضع اسس وقواعد الثورة السورية وترسيخ هذه القواعد في ذهنية أعداد كبيرة من جماهير الثورة في جميع أنحاء سوريا.

لا زالت الثورة والحراك الجماهير السوري متمسكة في تلك القواعد الأساسية التي تم صياغتها في الأيام الأولى لإنطلاقة ثورة الحرية والكرامة في 18. 03. 2011 في درعا البلد والتي إنجزت في ساحة الكرامة أمام الجامع العمري. ولا زالت ساحة الكرامة هي قاعة موتمر الشعب السوري المفتوح التي صيغت به أهداف الثورة النبيلة في نيل الحرية وبناء الدولة العصرية يحكمها القانون والدستور الإنساني الذي يساوي بين المواطنين في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مناطقهم وإنتماءاتهم السياسية والدينية والعرقية.

أهم إنجازات
ثورة الحرية والكرامة

ربما من المبكر ومن السابق لأوانه أن يطرح تقييم شامل لنتائج ثورة الحرية والكرامة السورية، فهذه الثورة تميزت عن كل ثورات الربيع العربي بعدة ميزات. فهي أطول الثورات العربية. وأظهر شعب الثورة السورية بسالة منقطعة النظير، أذهلت بشجاعتها العالم وفاجأت العدو والصديق بتلك البسالة. والثورة السورية لها تداعيات وطنية وإقليمية ودولية أيضاً. وتأثير هذه الثورة أصبح أمر واقع على كل هذه الأبعاد والدوائر.

فعلى المستوى الوطني والشعبي السوري فإن أول نتائج الثورة السورية هو تحرير العقل السوري ومباشرة النشاط الذهني والنفسي لملايين السوريين في العمل الطبيعي كما يجب أن يكون الإنسان العادي والمواطن الصالح. لقد إزيلت كثير من الحواجز التي كانت تحاصر الإنسان السوري لعقود طويلة وحدت من تطور قدراته الذهنية وطاقاته الإنتاجية. ليس فقط على المستوى السياسي والثقافي بل على المستوى الإجتماعي والإقتصادي. لقد تحرر ملايين السوريين في الداخل وفي الخارج وأصبح من الطبيعي أن تلتقي الناس وتتحاور بشؤون الوطن وغير الوطن، وأصبح لدى السوريين القدرة على المبادرة والتجمع وتبادل الرأي وتبادل الخبرات التي كان كل سوري يتجنبها وينحو بنفسه

وذويه إلى دائرة التقوقع والإنعزال تجنباً لسطوة الأجهزة الأمنية إرهاب السلطة العبثي.

فقد تحررملايين السوريين بفعل الثورة، ومنهم من شعر لأول مرة بحياته ما هو معنى الحرية، وما معنى أن يعيش الإنسان طليق بدون خوف ورعب أربك حياة السوريين وجعلها جحيم لا تطاق. لن تعود الأوضاع السياسية والإجتماعية إلى الوراء كما كانت علية الأحوال قبل إنطلاق الثورة مهما فعلت عصابات الأسد، فالثورة خلقت واقع جديد وصلت نتائجه الإجابية لملايين العقول السورية. والثورة وضعت مستقبل الشعب السوري على الطريق الصحيح على أكثر من مستوى وفي أكثر من جانب. والأيام والسنين القادمة ستبرهن أن الشعب السوري كسب الرهان ورسم مستقبل أبنائه بكل قوة ووضوح. فنظام الإستبداد ساقط من الناحية الإستراتيجية ويحاول أنصاره من خلال سلسلة الجرئم التي يرتكبونها تأخير ساعة السقوط الفيزيائي، وربما تحسين شروط حالة السقوط التي ينتظرونها.

نظراً لموقع الوطن السوري الجغرافي، وأهمية هذا الموقع من الناحية الجغرافية فإن التغيرات الجارية على الساحة السورية لها تأثيراتها بشكل مباشر على دول الجوار وعلى الدول والمشاريع الإقليمية المتصارعة في المنطقة. ببساطة شديدة فإن ميازين القوى على الساحة اللبنانية وعلى الساحة العراقية تتغير بشكل مستمر وتضع حلفاء عصابات الحكم في سوريا في موقع لا يحسدون علية، ويهدد بزوال وتصفية كل ماحققته هذه القوى من مكاسب ونفوذ خلال نصف القرن الأخير.

وليس بعيداً عن هذه المعادلة لإن المشاريع الإقليمية المتنافسة للهيمنة على المنطقة العربية منيت بضربات موجعة وتنتظر مصيرها المحتوم

في السقوط. وخاصة كل من مشاريع الهيمنة الصهيونية والفارسية المتنافسة على المنطقة العربية. من الواضح بأن المشروع الفارسي الذي عمل حكام إيران منذ عهد الشاه محمد رضا مروراً بسلطة الملالي حتى اللحظة على بنائه ورصد كل القوى والأموال والترسانة العسكرية لتحقيقه، في الهيمنة على المنطقة العربية، أصبح يتصدع وآيل للإنهيار والسقوط مع تهاوي وترنح نظام عصابات الأسد.

فالمشروع الإيراني في المنطقة العربية فصل وتم تركيبه من خلال قاعدته الأساسية سوريا. ففي نجاح الثورة السورية المباركة وإزالة عملاء المشروع الفارسي في المنطقة عن سدة الحكم والسيطرة على مقدرات الوطن السوري سيعني إنهيار المشروع الفارسي الإستراتيجي بشكل كامل. ولن تنفع حكام إيران وغلاة الفرس حقدهم الدفين ومشاريع تسلحهم المجنونة بعد ذلك. وحكام إيران أكثر الأطراف معرفة وقناعة بهذه الحقيقة السياسية. وإستماتة حكام طهران في دعم عصابات الأسد بكل شيئ أساسها هذه الحقيقة وتلك القناعة.

والمشروع الصهيوني الذي نمى وترعرع على الجبهة الشرقية وعاش ربيع تطوره دون عقبات تذكر من خلال صمت نظام الأسد في دمشق على تطور هذا الكيان. لقد منح نظام عائلة الأسد الكيان الصهيوني الأمن والأمان من الناحية العملية لأكثر من أربعين عاماً. وكانت الجبهة السورية مع الكيان الصهيوني من أهدأ الجبهات العربية على الإطلاق. ولم يحتاج الكيان الصهيوني صرف أي جهد على جبهة الجولان لأن الأمن والأمان كان نظام العائلة الأسدية قد منحه إياه بشكل مطلق. بالإضافة إلى العمل الدأوب الذي مارسته عصابات الأسد وأجهزتها الأمنية المختلفة في تفتيت كل حركات التحرر العربية المقاومة للكيان الصهيوني. أصبح واضح ومعروف لكل ذي بصر وبصيرة أن مشاكل

وتشققات منظمة التحرير الفلسطينة كانت بفعل الأجهزة الأمنية السورية. وغير بعيد عن هذه الممارسات ما حل بكل فصائل الحركة الوطنية اللبناية المناضلة والمتحالفة مع الثورة الفلسطينية ضد الكيان الصهيوني. كل رموز الحركة الوطنية اللبنانية تم تصفيتها على يد عملاء الأجهزة الأمنية السورية خلا تحكم عصابات الأسد في لبنان. فمنذ إغتيال الشخصية الوطنية اللبنانية المعروفة كمال جنبلاط عام 1977 لم يتوقف مسلسل التصفيات والإغتيلات بحق اللبنانيين ورموز الحركية الوطنية اللبنانية. ولم يكن رفيق الحري وجورج حاوي وسمير قصير آخر هذه القائمة الطويلة من تلك الرموز.

لقد نجح النظام العبثي من دمير الحركة الوطنية الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية المقاومة لمشروع الكيان الصهيوني في المنطقة العربية، وخلق مكان هذه الحركات العربية المقاومة الباسلة حركة طائفية مشبوهه وعميلة لقوى خارجية متآمرة وحاقدة. فحركة حزب الله البنانية الطائفية تم خلقها كمشرع بديل لحركات التحرر العربية بقرار إيراني ـ أسدي مشبوه. ومن لا يعرف هذه الحقية فإن حزب الله اللبناني أشرف على تأسيسه ورعايته السفير الإيراني عام 1982 في دمشق. ومن ثم تولت المخابرات الإيرانية والمخابرات السورية العاملة في لبنان على دعم وتوجيه هذه العصابة الطائفية.

ما عجز نظام السادات على تأمينه للكيان الصهيوني نجح نظام الأسد بتحقيقه بكل جدارة. ومن الطبيعي، وكما هو ملاحظ أثناء مسيرة الثورة السورية المباركة أن الكيان الصهيوني مرتبك ويهتز رعبا من سقوط نظام الأسد في دمشق. والصهينة إلى جانب الإيرانيين يعتبرون أكثر المتضررين في إقليم الشرق الأوسط من سقوط نظام عصابات الأسد.

إنها ثورة شعب نفض عن كاهله تعب السنين ولحق بالعصر الذي يعيش. شباب تأثروا بثورات الأمة المتتالية وعقدوا العزم على صنع المستقبل وتحرير الأرض والإنسان من عصابات مارقة وصلت للحكم في غفلة من الزمن وبحفنة من الأكاذيب والشعارات المزيفة التي لم يصدقوا في تحقي واحدة مما كانوا يدعون. بعض الأحداث في تاريخ الشعوب تشكل منعطفات أساسية نحو مستقبل تلك الشعوب وترسم أيضاً معالم الطريق. كما كانت معارك الحوارنة ضد الجيش الرابع العثماني نقطة تحول في مسيرة الصراع العثماني العربي وتحرير بلاد الشام والعراق والحجاز من إستعمار تركي دام مئات السنين، وكذلك معركة المذخر في درعا عام 1945 حيث كان رد الحوارنة الحاسم على قصف البرلمان السوري وعلى تنصل الحكومة الفرنسية من التعهد للسوريين في تحقيق الإستقلال الكامل بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، كانت ثورة الشعب السوري التي إنطلقت من درعا وحوران نقطة التحول في حركة الشعب السوري في بناء المستقبل الواعد. ثورة الحرية والكرامة التي إنطلقت في ظهر يوم 18. 03. 2011 في درعا البلد حققت منذ الساعات الأولى لإنطلاقتها عدة إنجازات. أهم هذه الإنجازات يمكن إيجازها بالتالي:

- لقد كانت أول تحدي جماهيري للنظام وأعوانه وكسرت حاجز الصمت، لم يواجه النظام منذ عام 1982 أي تحدي حقيقي، وكان يخيم على سوريا صمت القبور. ولم تحدث في سوريا منذ عام 1963 قبيل إنقلاب 8 آذار البعثي أي حركة جماهيرية بهذا الزخم. فالحركة الشعبية السورية توقفت عن الفعل منذ نهاية عام 1963 بعد سيطرة عسكر البعث على زمام السلطة في الدولة السورية.
- لقد عبرت جماهير الثورة عبر الهتافات والشعارات التي رفعت في مسيرات الإحتجاج عن وعي عالٍ بمصلحة الشعب السوري. وكانت المطالب التي رفعت، بالإضافة لإطلاق سراح الأطفال

المعتقلين، أيضاً مطالب سایاسية وطنية في الإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد ومحاسبة الفاسدين. كانت هذه الأهداف البرنامج السياسي المعلن والمباشر لسوريا المستقبل وتعبير صادق وحقيقي عن ضمير المواطن السوري في الحرية والخلاص سيطرة الإستبداد والمستبدين.

- لقد كسرت جماهير الثورة التي إنطلقت في 18. 03. 2011 في درعا البلد حاجز الخوف والرعب الذي كان مسيطراً على عقول وأجساد المواطنين السوريين طوال عقود. وأربكت الثورة بشطاعة وبسالة جماهيرها المسؤولين والقائمين على أجهزة القمع المختلفة العاملة في سوريا. منذ الأيام الأولى حقق ثوار درعا مكسباً هائلاً للشعب السوري، وهو كسر حاجز الخوف وإنهاء جمهورية الرعب التي عمل حافظ الأسد وخليفته بشار على خلقها واستمرارها من خلال بناء أكثر من 17 جهاز أمن للحفاظ على هالة الخوف والرعب في قلوب المواطنيين. حيث كانت الأجهزة الأمنية المتعددة تعيث فساداً وتعمل منذ عقود وهي فوق أي قانون، ولا يخضع منتسبيها لأي محاسبة على الجرائم التي يرتكبونها بحق الشعب السوري. لقد حطمت حناجر فتيان درعا وحوران ظلمة ليل دامس منذ عقود وداسوا بأقدامهم حواجز وأسوار الأجهزة الأمنية النفسية وأصبحت دون جدوى وفاعلية. لقد سقطت جمهورية الرعب، في حين أن العصابات الحاكمة لا زالت مصرة على إعادة عقارب الساعة إلى الوراء من خلال الإستمرار في ارتكاب سلسلة الجرام والمجازر بحق أبناء الشعب السوري.
- لقد أسقطت ثورة الحرية والكرامة السورية التي إنطلقت في 18. 03. 2011 في درعا البلد الأقنعة عن قوى سياسية وإجتماعية كثيرة في سوريا وفي المنطقة. فهذا نظام عائلة الأسد يسقط عارياً

ويكشف عن حقيقته. سقط القناع عن شعارات المقاومة والممانعة التي تلبسها نظام الأسدا قرابة نصف قرن من الزمان. وثبت بالدليل القاطع أنهم أكثر البشر تآمراً على القضية الفلسطينية التي يدعون تبنيها والدفاع عنها. لقد إكتشف أهلنا في مخيمات البؤس من أبناء الجولان أن حافظ الأسد وعائلته قد سلم الجولان وقايض بها الصهاينة مقابل مساعدة الصهاينة وأجهزة أمنها المتغلغلة في دوائر الدولة السورية وغيرها في وصول الأسد وعصابته إلى سدة الحكم، واستمرار سيطرته على مقدرات الشعب السوري والدولة السورية. " إبن الحرام باع الجولان" هذا هو الشعار الذي يرفعه أبناء الجولان ومعهم أبناء سوريا في مظاهراتهم السلمية. وتبين أن الحدود السورية في الجولان مع الكيان الصهيوني غير ملغمة وخالية من أي تحصينات عسكرية. وقد تواطأ اللوبي الصهيوني في بلاد الغرب مع كيان عائلة الأسد، وعمل رموز الكيان الصهيوني ومسؤوليه على ممارسة الضغوط على الدول الغربية من أجل حماية هذا النظام منع سقوطه لما في ذلك من مصلحة للكيان الصهيوني.

- لقد كشفت الثورة السورية المباركة حقيقة كثير من القوى السياسية والإجتماعية في سوريا وفي المنطقة. لقد أسقطت الثورة السورية القناع عن عصابات حزب الله اللبناني الطائفية. وأصبح لملايين الناس في سوريا وفي الوطن العربي والعالم جلياً وواضحاً بأن هذا الحزب مجرد مجموعة طائفية مغلقة لا وطنية وتعمل في دائرة مشروع دولة أجنبية معادية للعرب هي إيران. فهذا الحزب ليس حزباً وطنياً، ولا يؤمن إلى بلبنانية لبنان ولا يعتبر أن عمق أعضائه ومناصريه هو العمق اللبناني أوالعربي وإنما هو العمق الإيراين والثقافة الفرسية. وإن خيارات هذا الحزب السياسية والتاريخية هي خيارات فارسية وليس عربية،

وأن كل الإدعاءات التي يتطلقها أبواق هذا الحزب عن القضية الفلسطينية هي مجرد خداع أصبحت بعد إنطلاقة الثورة السورية واضحة المعالم.

- وعرت حكومة طهران ونشرت أحقادها الفارسية على الملأ العام. كذب وزيف وإدعاء ومغالاة كان سلاح مثلث حكام دمشق وطهران وبغداد، والقاسم المشترك لهؤلاء وأتباعهم كان فقط مجموعة العقد التاريخية والطائفية. ليس لهؤلاء القوم من قضية غير تصفية ثارات طائفية وهمية تم حشوهم بها منذ قرون. في مقابلة صحفية مع صحيفة الشرق الأوسط للشيخ أحمد الصياصنة بتاريخ 15. 03. 2012 قال: "الوضع مؤلم الآن في الشارع السوري بعد المذابح التي ارتكبها عناصر حزب الله وجيش المهدي القادم من العراق، لأنهم هم الذين ذبحوا الناس في حمص وحماه وإدلب،". وأضاف في نفس المقابلة "ولا ننتظر شيئا سوى رحيل النظام، على الأرض عناصر حزب الله والحرس الثوري الإيراني وجيش المهدي القادم من العراق ينفذون المذابح وقطع الرقاب بحق المعارضين". الشيخ الصياصنة يتمتع بمصداقية عالية وله إحترامه الشديد بين الناس، ولا يقول الكلام جزافاً بل هو على بينة من حقيقة تواجد عناصر هذه العصابات الإيرانية والعراقية واللبنانية على الأرض السورية.
- المشروع الصهيوني في المنطقة العربية مهدد أيضاً بشكل جدي بسقوط وزوال نظام الأسد في دمشق. ومع سقوط النظام في دمشق ستسقط بشكل تلقائي كل الترتيبات العلنية والسرية التي عمل بها طوال العقود الأربعة بين الكيان الصهيوني وسلطة نظام العائلة الأسدية. والصهاينة، كما الفرس، يعرفون حق المعرفة بأن إنهيار النظام السوري أمام ضربات الجماهير السورية الثائرة تشكل خسارة استراتيجية كبيرى لهم وضربة

مؤلمة لمشروعهم التوسعي في المنطقة العربية. والصهيانة يعدون أنفسهم ويعيدزن حساباتهم من جديد لمرحلة التطور المستقبلي العربي الذي احدثته سلسلة الثورات العربية على ميزان القوى الإستراتيجي بشكل عام، وعلى الوجود الصهيوني في المنطقة بشكل خاص. ومن الآن ترتفع الأصوات في دوائر صنع القرار الإسرائيلي تقول بشكل واضح بأن ليس بالإمكان الإحتفاظ بهضبة الجولان لفترة طويلة على ضوء التطورات العربية والتطورات في سوريا الجديدة. وعلى القيادات الإسرائيلية العمل لإستيعاب الواقع العربي الجديد، حيث تدخل المنطقة العربية في مرحلة جديدة نوعية أهم سماتها أن الحكومات التي ستأتي إلى سدة الحكم ستأخذ بشكل من الأشكال براي الجماهير التي إنتخبتها بأغلب القضايا التي تحيط بها وخاصة الإستراتيجية منها. إن المرحلة الجديدة التي دخلتها الشعوب والدول العربية تعتبر في كل المقاييس متقدمة ومتطورة وتناسب طبيعة العصر الذي نعيش فيه، وقد بدأت بشكل جدي في إنهاء سلطة الفرد والعائلة وأنهت مرحلة التسلط والإستبداد التي سادت في المنطقة العربية لعقود طويلة.

إن الصهاينة أكثر معرفة بخطورة ترسيخ مفهوم الدولة على أسس ديمقراطية وسيادة القانون، وإحترام حرية المواطن في الدولة العربية الحديثة على مشروع إسرائيل التوسعي. فقد أنتهى عصر المقايضة في السيطرة على أجزاء من الوطن وتخريب المجتمع مقابل الوصول للسلطة وضمان استمرارها عبر تلك الإتفاقيات السرية والعلنية مع عدد مع حكام العرب، وخاصة حكام سوريا منهم، من حسني الزعيم إلى حافظ الاسد وصولاً إلى بشار الاسد.

واقع حوران قبيل
إنطلاقة ثورة الحرية والكرامة

تعتبر منطقة حوران من أخصب وأغنى مناطق بلاد الشام. ففي هذه المنطقة تتوفر الأرض الخصبة وتتوفر المياه المطرية والمياه الجوفية وكذلك عدد من الأنهر والينابيع السطحية. ومناخ هذه المنطقة يعد من فئة المناخات المعتدلة. أرض حوران ترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي 500 وتهب عليه رياح البحر الأبيض المتوسط الرطبة والندية بشكل دائم عبر فسحة الجليل في فلسطين المحتلة. أطراف الجولان وحوران لا تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط قرابة 30 كيلو متر فقط.

من هذا فإن حوران كانت على مر التاريخ البشري منطقة غنية الموارد ولم تعاني من الفقر والجوع إلا في فترات زمنية متباعدة كان أغلبها ذو خلفيات سياسية مرتبطة بالأحداث العاصفة التي كانت تهب على المنطقة، كما كان عليه الحال في نهاية الحقبة العثمانية وفي حقبة الإنتداب الفرنسي على سوريا.

لكن حوران في عصر الإستقلال إنتعشت وبدأ فيها عجلة التطور تدور بسرعة. وقد عاشت حوران أفضل مراحل تطورها في فترة الوحدة السورية المصرية التي دامت ثلاثة سنوات فقط من عام 1958 حتى عام 1961 . ففي هذه الفترة من الزمن تم إنشاء أهم المشاريع الأساسية في البنية التحتية في محافظة درعا وفي ريفها الممتد. ففي خلال أعوام الوحدة

مدت الشوارع بين المدن والقرى. وفتحت أغلب المستشفيات والمستوصفات الصحية. في نهاية أعوام الخمسينات وبداية أعوام الستينيات من القرن العشرين بدا في سوريا وفي حوران نهضة تعليمية طموحة. ففي أعوام الوحدة بين مصر وسوريا بشكل خاص تضاعف عدد المدارس الإبتدائية والإعدادية والمدارس الثانوية. وفي هذه الأعوام التي سادت بها مجانية التعليم في كل المراحل الدراسية سرت في حوران حمى التعليم والغبة في التعلم، وأصبح هدف تعليم الأبناء وأيضاً البنات هو الحلم المهيمن على العائلات الحورانية. وقد ساعد على الأخذ في هذا التوجه بشكل عام العوامل التالية:

- مجانية التعليم
- مرور ثلاثة أعوام متتالية من الجدب وقلة هطول الأمطار الضرورية للزراعة أفقرت الناس وشردت عدد كبير من العائلات وإتساع دائرة الإمل المرجوة من تعليم الأبناء للمساهمة في حل المشكلة الإقتصادية التي سادت في تلك الأعوام.
- إنتشار الوعي السياسي والثقافي بشكل عام بين المواطنين من سكان حوران التي ساهمت في التوجه العام نحو تعليم وتدريس الأبناء والبنات.

لقد أثمر التوجه العام في حوران نحو العلم والتعليم إلى إرتفاع نسبة التعليم ونسب المتعلمين من أبناء محافظة درعا. وخاصة نسبة الحاصلين منهم على الشهادات الجامعية العليا. وفي آخر إحصائيات حول التعليم في سوريا تأتي محافظة درعا على رأس المحافظات السورية من حيث نسبة التعليم العالي. وقد إحتفلت محافظة درعا عام 2008 بمناسبة خلوا محافظة درعا من الأمية.

وفي أعوام الوحدة بين مصر وسوريا مدت قنوات مياه الشرب والري إلى درعا وإلى المدن والقرى في المحافظة من مناطق ينابيع المياه المتوفرة في المنطقة مثل المزيريب وتل شهاب والشيخ سعد ووادي الرقاد ووادي العلان والهرير. وفي هذه الأعوام الثلاثة من أعوام الوحدة السورية المصرية فتحت المدارس بكثرة وأصبحت مجانية ومتوفرة لأغلب أطفال حوران. وفي سنين الوحدة القليلة نفذ أول مشروع إصلاح زراعي. لازال أهل حوران يكنون المحبة والإحترام للرئس جمال عبد الناصر ويؤمنون إمان عميق بضرورة الوحدة المصرية السورية والوحدة العربية.

توقفت عجلة التطور عن الدوران مع بداية اليوم الأول من أيام الإنقلاب العسكري للإنفصاليين على الوحدة بين سوريا ومصر المشؤوم في 28. 09. 1961 . وقد بدأت مشاريع الإنقلابات والمؤامرات في هرم السلطة السورية من جديد. يبدو الجزم مبالغ فيه لأول وهلة عند القول بأن 80% من البنية التحتية المتوفرة في حوران قد تم إنجازها في أعوام الوحدة الثلاثة بين سوريا ومصر، وبأن 20% من البنية التحتية في محافظة درعا فقط تم إنجازها في فترة الخمسين عام من حكم البعث وعصابات حافظ الأسد. نعم يكاد هذا الإدعاء لا يصدق، لفداحة ومرارة تلك الحقيقة، لكن تلك هي الحقيقية التاريخية، والحقيقة العلمية المعروفة في حوران.

والحقيقة الأخرى في حوران ويعرفها أبناء حوران جميعاً، وعبر الأجيال المتتالية، بأن حالة النهضة العمرانية التي عاشتها حوران طوال العقود الأخيرة كانت الدولة والسلطات المركزية غائبة عنها تماماً. وقد ساهم أبناء حوران أنفسهم في هذه النهضة بعرق جبينهم ،وكدهم في بلاد الغربة. وخاصة تلك القرى والبلدات والمدن الحورانية من شرق حوران، التي تشرد قسم كبير من أبنائها إلى بلدان المهجر. ففي أعوام الستينات

من القرن الماضي رحلت أعداد كبيرة من شباب حوران إلى دول الخليج العربي البترولية، بحثاً عن فرص العمل. وقد حالف الكثير منهم النجاح في بلاد الخليج العربي، وجمع الكثير منهم ثروة معتبرة قاموا بإستثمار جزء منها في مشاريع متعددة إقتصادية وثقافية وعمرانية في بلداتهم ومدنهم في حوران. وكثير منهم من أقام مشاريع إنتاجية صغيرة ومتوسطة في مدينة درعا وبلدات حورانية أخرى. وقد استوعبت هذه المشاريع الكثيرة وأعداد كبيرة من اليد العاملة والخبرات الفنية المحلية. لقد كانت محافظة درعا مهمشة تماماً، ولم تكن محظوظة من اي حكومة من حكومات البعث المتتالية.

لقد عملت الحكومات السورية المتتالية على تجاوز منطقة حوران، وعدم إنشاء أي من المشاريع الإنتاجية في أي مدينة أو قرية من قرى حوران. على الرغم من تقلد شخصيات عديدة من أبناء حوران مناصب أساسية وحساسة في جهاز الدولة السورية طوال فترة حكم حزب البعث العربي الإشتراكي، لكن هذه الشخصيات السياسية الحورانية تصرفت وعملت حسب المصالح الذاتية والأنانية، ولم تقدم هذه الشخصيات أي عون ومساعدة حقيقية تذكر لأبناء حوران، أوالعمل على تطوير منطقة حوران. من أمثال هذه الشخصيات السياسية المسؤولة في الدولة السورية كان محمد جابر بجبوج، الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، ومحمود الزعبي، رئيس وزراء سابق. وفاروق الشرع، وزير خارجية ونائب رئيس الدولة، وفيصل المقداد نائب وزير الخارجية، وغيرهم الكثير من الوزراء ومساعدي وزراء ومسؤولي في مناصب قيادية في الدولة.

تسود بين أوساط الشعب السوري من أهل حوران القناعات العربية والقومية بالفطرة، وهذه القناعات تكونت منذ مئات السنين. وربما التكون

الإجتماعي لمجتمع سكان حوران، وكذلك الموقع الجغرافي لهذه المنطقة من أرض العرب، حيث تقع على تقاطع أربع دول عربية شرق أوسطية. أهل حوران والعائلات الحورانية تنتشر في سوريا والإردن ولبنان وفلسطين. كثير من العائلات اللبنانية والفلسطينية تعود أصولها لمنطقة حوران. حسب أحد الدراسات الفلسطينية الإجتماعية عن شمال فلسطين وكما نشرت على صفحات مجلة شؤون فلسطينية فإن 60% من سكان مدينة الناصرة الفلسطينية المحتلة، المسيحية منها والمسلمة، تعود جذورها العائلية إلى منطقة حوران في سوريا والأردن. والأغلبية الساحقة من سكان حوران كانت معجبة بالتيار العروبي الناصري في أعوام الخمسينات والستينات، ومن ثم دخلت أعداد كبيرة في منتصف الثمانينات في عضوية حزب البعث، إما بقناعةً أو مكرهةً، نظراً لقرب أطروحات وبرامج هذا الحزب النظرية من الفكر والقناعات القومية الفطرية المنتشرة بين سكان حوران.

على الرغم من تلك الحقيقة بقيت حوران مستثنية تماماً من أي نوع من أنواع العناية الحكومية والتطوير. بل أن حوران أفقرت وتم التجني على حياة أهلها من خلال تسليط عصابات الحكم الطائفية، وتسليط عصابات الفساد والنهب التي تدور في فلك العائلة الحاكمة في دمشق. كان آخر رموز الفساد هو المحافظ فيصل كلثوم، ورئيس جهاز الأمن السياسي في درعا، عاطف نجيب. وقد تفاقمت تعديات عصابات الحكم على أهل حوران من خلال إصدار قوانين وقرارات ومراسيم تحدد من حركة الناس الإقتصادية، وتجبر جماهير الناس في هذه المنطقة الخصبة والغنية بثرواتها الزراعية على ترك مهنة الزراعة والتخلي عن أي نشاط تجاري وإقتصادي مهما كان بسيط لعدم جدوى أي نشاط في هذه المجالات، نظراً لخضوع أي نشاط فردي أوجماعي لمزاج وأهواء أفراد عصابات الحكم في المحافظة والمرتبطة بعائلة الأسد الفاسدة. لم يشفع

لأهل حوران نشاطهم وجدهم في العمل. ولم تشفع لأهل حوران أهمية سهل حوران الخصب بالنسبة لمجمل الإقتصاد السوري، ولم تشفع لأهل حوران توجهاتهم القومية بشكل عام، وتلاقي هذه التوجهات مع إطروحات حزب البعث النظرية، وبقيت حوران تأن تحت وطأة النسيان والإفقار الممنهج والمتعمد. ففي القسم السوري من حوران أي محافظة درعا يعيش أكثر من مليون ونصف المليون نسمة، لكن لا توجد في هذه المحافظة أي جامعة ومؤسسة علمية عليا. إلا في الأعوام الأخير افتتحت فروع لبعض كليات جامعة دمشق في مدينة درعا. وإفتتحت الجامعة الأوروبية الخاصة في بلدة غباغب، في حين أن القسم الأردني من حوران، أي محافظة أربد، الذي يبلغ عدد سكانها قرابة المليون وربع المليون نسمة، أنشأت الحكومات الإردنية أكثر من ثلاثة جامعات حكومية وبالإضافة إلى عدد من الجامعات الخاصة، ومراكز البحث العلمي المتطورة.

لا يستطيع مسؤول سوري يحترم نفسه أن يدعي بأن الحكومات السورية أنشأت في حوران أي مشروع ذو أهمية إقتصادية، أو علمية، أومشروع ذو أهمية في البنية التحتية والصحة العامة. حتى أن أحد نواب حوران تجرأ وصرح في أحد جلسات مجلس الشعب السوري وقال لا تستطيع الحكومة أن تدعي إنها أقدمت على عمل وإنجاز أي شيئ ذو قيمة في حوران، وأبناء حوران هم من ساهموا بأموالهم الخاصة في بناء مدنهم وقراهم، وهم من قدموا المساعدات لأهلهم وذويهم وأنشأوا المؤسسات العامة والخاصة في المحافظة. ظلت محافظة درعا من المحافظات المنسية على كل الصعد، على الرغم من أهميتها الإقتصادية والجغرافية، ووقوع خط المواجهة مع العدو الصهيوني جله في حوران. فجميع قرى وبلدات الجبهة المواجهة للجولان المحتل هي قرى ومدن حورانية. وجميع الحروب التي وقعت مع العدو الصهيوني كانت تصيب في أثارها

السلبية أول ماتصيب مدن وقرى حوران، وتصيب سكان حوران بالدرجة الأولى.

واقع سوريا قبيل إندلاع
ثورة الحرية والكرامة

من المعروف أن سوريا كانت من الدول المرشحة للسير في طريق تطور سياسي وإجتماعي وإقتصاديي رائد في المنطقة العربية. فقبل وصول حزب البعث العربي الإشتراكي للحكم عبر إنقلاب عسكري قادته زمر عسكرية فئوية وطائفية في 8 أذار من عام 1963 كانت قد تشكلت في سوريا قواعد أساسية ضرورية للتطور والتقدم المنشود. ففي سوريا كانت أحزاب سياسية قد تشكلت ومارست النهج الديمقراطي لأكثر من ثلاثين عاماً. وقبل وصول البعث للسلطة كانت قد تعززت في سوريا قاعدة صناعية متطورة مقارنة بمثيلاتها من الدول العربية ودول العالم الثالث. وسوريا بلد زراعي فيه أراضي شاسعة خصبة ووفرة من مياه الري. وقد إتخذت في فترة الوحدة بين مصر وسوريا جملة من القوانين والخطوات العملية التي كان لها أن تساهم مساهمة كبيرة في عجلة التطور والتقدم في سوريا، مثل قوانين الإصلاح الزراعي وتأميم الإقطاع. وقواني الصحة والتعليم العصرية التي إبتدء العمل بها في تلك الأيام.

وكان الشعب السوري من الشعوب الحيوية والنشيطة في التجارة والمهارة الحرفية. ومن مئات السنين بل آلاف السنين عرف عن الشعب السورية بصفة الإنفتاح على الشعوب الأخرى مما أكسبت هذا الشعب قدرات إضافية في المعرفة والعلم والثقافة تميز بها عبر القرون. فمقولة "دمشق قلب العروبة النابض" لم تأت من فراغ وليس مادة للتملق

وللإستهلاك فهي تعبر عن واقع حقيقي كان معاش. لكن قبل وصول حزب البعث وعصابات العسكر الطائفية لسدة الحكم. فالصورة قد إنقلبت ووقعت سوريا الواعدة بقبضة حكام أقصى ما تفتقت به عقولهم وضمائرهم أن تظل سوريا ويظل الشعب السوري مطية لأهدافهم الأنانية الذاتية الضيقة. لقد توقفت حركة التطور في سوريا عند النقطة التي وصلت إليها في عام 1963، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذا البلد العظيم عنوانها الخوف والرعب والركود والطائفية زإلاغاء أية حالة مدنية أو طبيعية في حياة الشعب.

لقد استحضرت شعارات وأهداف محببة لقلب الجماهير، كان أهمها شعار تحرير فلسطين. في هذا الشعار كان ممكن إلغاء أي شيئ وإستباحة أي شيئ وقتل أي شيئ.
تحت هذا الشعار تم إلغاء مؤسسات الدولة، ونهبت مقدرات الدولة، وإلغيت حرية المواطن، وإمتلات السجون بالاحرار والوطنيين والنخب السورية.

الطائفية
تطل برأسها من جديد

من مفارقات القدر أن يعود حكام سوريا من عصابات البعث وعائلة الأسد من جديد على سياسة التحريض الطائفي والعرقي والمناطقي، وهم من تشدق كل الوقت في إعلامهم وأدبياتهم الحزبية على محاربة العرقية والطائفية. ودفعت عصابات الحكم في سوريا بمرتزقة سوريين ولبنانيين من أمثال بثينة شعبان، ووئام وهاب، على التحريض الطائفي المكشوف. وما محاولة تشكيل حزب الموحدون في لبنان لفتح فروع له في محافظة السويداء السورية، والترويج لهذا الحزب الطائفي عبر وسائل إعلام لبناية طائفية كمحطة المنار التابعة لحزب الله، إلا صورة من صور زرع الفتن ونشر الطائفية المقيتة. لقد قاطع وعزل دروز محافظة السويداء هذه الفكرة الطائفية الحديثة والقديمة، ونبذ أهل السويداء رموز هذا المشروع التدميري إجتماعياً، وطرد رأسها وئام وهاب من مدينة السويداء ومن قرى الجبل الاشم، وأعيد هذا المحرض الطائفي إلى لبنان ليتابع من هناك نشر أفكاره وأفكار الأسد وعصابته التخريبية من هناك.

كان منهج حكم الأسد في سوريا هو الشكل الأكثر وضوحاً في ممارسة الطائفية في كل مؤسسات الدولة السورية. منذ اليوم الأول لوصول حافظ الأسد إلى سدة الحكم من خلال سلسلة إنقلابات عسكرية قام بها على زملائه في السلاح، وعمل على زرع سياسة فرق تسد في جميع مؤسسات

الدولة. وكانت باكورة أعماله الطائفية هو تشكيل وحدات "سرايا الدفاع" العسكرية ذات اللون الطائفي الواحد عام 1971 تحت إشراف وقيادة شقيقه رفعت الأسد.

بقيت عصابات سرايا الدفاع الطائفية ترتكب الجرائم وتعيث فساداً في سوريا إلى منتصف أعوام الثمانينات من القرن العشرين. في تلك الأعوام أضطر حافظ الأسد مكرهاً إلى حل هذه العصابات العسكرية التي تعمل فوق القانون وإبعاد رفعت أسد، الذي أصبح ينافسه على السلطة، عن سوريا. لكن حل هذه العصابة العسكرية كان شكلي وغير حقيقي، بل استبدل الأسم وأصبح الأسم الشائع لعصابات الأسد الطائفية هي "الفرقة الرابعة" ووحدات "الحرس الجمهوري". وعندما نصب بشار الأسد على سدة الحكم في دمشق اسندت قيادة عصابات الفرقة الرابعة وعصابات الحرس الجمهوري الطائفية، وذات اللون الطائفي الواحد، إلى شقيق بشار الأسد المدعو ماهر الأسد.

يعاد إنتاج السيناريو العسكري الطائفي في سوريا من جديد بثنائية بشار وماهر، بعد أن كانت سائدة ثنائية حافظ ورفعت. وتستمر معها أيضاً دعاية التضليل وسياسة الخداع والكذب كما كان الحال مع حافظ ورفعت. وقد حلت شعارات المقاومة والممانعة في عصر الثنائي بشار وماهر مكان القومية والتقدمية في عصر الثنائي حافظ ورفعت. لكن الثورة السورية الباسلة كشفت كل أحابيل الزيف والخداع، وأنهت المسلسل الطائفي الدموي، الذي إعيد إنتاجه في زمن السلطة البعثية ـ الأسدية المخادعة.

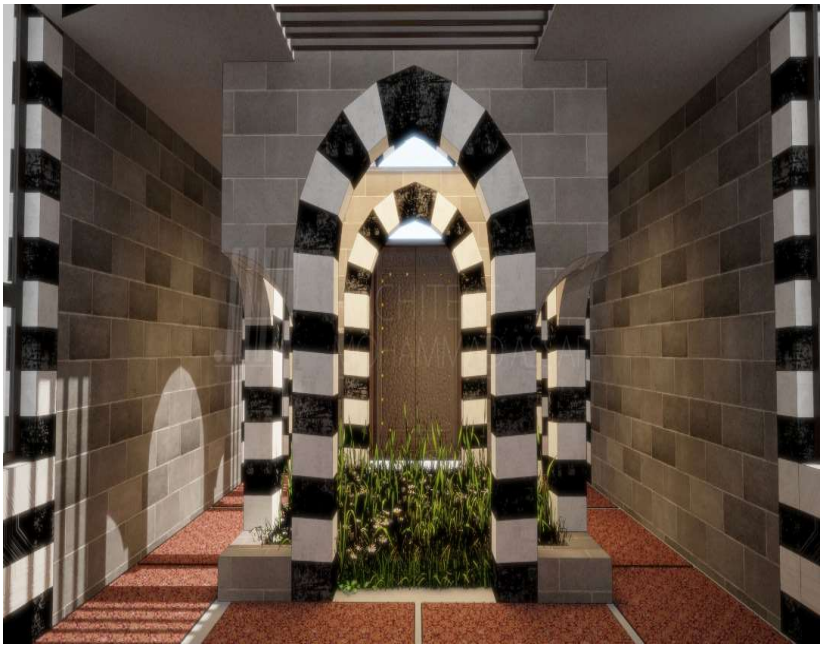

مقام الامام النووي في مدينة نوى في وسط غرب حوران

الـخـاتـمـة

كتبت مواد هذا الكتاب في خضم أحداث صيرورة الثورات العربية. وكانت لازالت الثورة السورية ملتهبة وتعم كل الأرض السورية. وقد تناول هذا البحث جانب محدد من كفاح جزء من الشعب السوري الثائر خلال فترة المئة عام الأخيرة من تاريخ المنطقة. ولم يكن المقصود في هذه الدراسة تناول المنطقة المعنية، حوران، من كل نواحي الحياة الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والعسكرية منها، بل كان القصد من هذه الدراسة تسليط الأضواء على القدرات البشرية لأبناء هذه المنطقة من ناحية، ومن ناحية أخرى سير الأحداث السياسية التي جرت في منطقة بلاد الشام وسوريا، وإبراز دور أبناء منطقة حوران في هذه الأحداث الهامة والجسيمة.

وقد جاءت الأحداث والثورات التي عمت المنطقة العربية مع بداية عام 2011 لتوأكد من جديد بأن لمنطقة حوران وأهلها نصيب في صنع الأحداث النوعية والتاريخية التي تمر بها المنطقة العربية. فالأحداث الكبرى والتطورات العظيمة التي سادت في أثناء الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من تشكلات سياسية جديدة بصرف النظر عن الموقف منها سلباً أو إيجاباً، كان لحوران وجهاد أهلها دور مؤثر وحاسم على نتائج الصراع الذي كان مستعر في تلك الأيام والأعوام.

وعندما دخلت سوريا والبلاد العربية في مرحلة الصراع المباشر مع قوى الإستعمار الغربية إبتدءاً من عام 1920 كان أهل حوران في مقدمة الركب في الدفاع عن حرية الشعب والوطن السوري والوطن العربي.

على مدى 25 عاماً من الكفاح المتواصل شارك أهل حوران الشعب السوري والأمة العربية في مشروع التصدي للغزو الأستعماري الغربي، وعلى أرض حوران دارت كبرى معارك السوريين شدة وضراوة ضد الغزاة الفرنسيين. ومن حوران إنطلقت الثورة السورية الكبرى عام 1925 في بلدة المسيفرة. وسقط في هذه المعارك الآلاف من الشهداء والجرحى والمشردين، ودمرت قرى كاملة في سهل حوران. وقد ختم الحوارنة كفاحهم البطولي ضد المستعمر الفرنسي ومن أجل حرية سوريا في معركة "المذخر"، القاعدة العسكرية في مدينة درعا وتمدد الثورة الشعبية المسلحة حتى عمت كل حوران وأفلحت في تحرير حوران عام 1945، تلك الثورة والمعركة العسركرية التي كانت خاتمة المعارك السورية مع المستعمر الفرنسي. ثورة أهل حوران الشعبية المسلحة هي التي أقنعت الفرنسيين بضرورة الرحيل عن أرض سوريا وتركهم لسياسة المماطلة والتسويف والخداع. لقد أدرك الفرنسيون بعد هذه الثورة بجدية الموقف وعليهم افستجابة لمطالب الشعب السوري الثائر في الحرية والإستقلال.

ومرة ثالثة وخلال قرن من الزمان فقط تتصدر درعا عاصمة محافظة درعا، حوران، المشهد الكفاحي وتعلن الثورة من جديد على الطغاة والمستبدين المحليين. من هناك تولد سوريا من جديد، بعد حالة سبات عميق فرضته مجموعات مارقة استولت على زمام الأمور في سوريا في غفلة من الزمن. من حوران إعيدت الذاكرة السورية إلى طابعها المألوفة في الحركة والنشاط في صنع التاريخ، وإنهيت حالة التشرذم وإنهاء حكم عصابات الشبيحة الطائفية. في درعا البلد كتب الأطفال حروف الحرية الأولى لسوريا الوعد، ولسوريا الخير ولسوريا الشعب. في 18. 03. 2011 إنطلقت ثورة السوريين وسقط أول الشهداء. ومن حوران هلت

البشاير لعيونك يا شعب ياثائر هتفت حناجر ألوف الحوارنة من أجل سوريا الحرة المستقلة، وسوريا المجد والوطن والشعب.

لا يهم في سياق طرح هذه الحقائق التاريخية التأكد عن العامل، أو العوامل، التي ساهمت في تفسير تكرار هذه الحقائق التاريخية، وهذه الملاحم الاجتماعية والسياسية في نفس المكان من بلاد الشام على أهميتها. أكان هو عامل الصدفة أم عبقرية المكان، أو كان عامل التركيب الإجتماعي لسكان تلك المنطقة، أو ربما شيئ آخر وعوامل إخرى هو السبب بنشوء الثورات المنتصرة في هذه المنطقة من بلاد الشام وبلاد العرب، فهي بالتأكيد مادة خصبة للبحث والدرس العلمي لمن أراد البحث والدرس فيها. لكن الأهم أن هذه الحقائق التاريخية قد حدثت في عين المكان، وتوارث الأحفاد عن الأباء والأجداد صنعة العزة والبسالة أصعب وأقسى الظروف، والتصميم الحديدي على بلوغ الغاية وتحقيق النصر مهما بلغ الثمن.

ستبقى حوران وأهل حوران قلعة من قلاع العرب والسوريين تساهم في صنع التاريخ وصنع المستقبل.

د. خالد صالح المسالمة

المـراجـع

- الخليلي، مصطفى، قائد ثورة حوران، المركز الثقافي، درعا، مذكرات غير منشورة.
- محمد شلاش المسالمة ، ضابط الارتباط السوري، مذكراتي مع الدكتور عبد الرحمن الشهبندر و الامير سلطان الاطرش وثوار حوران ، مكتبة حسين مقداد ، بصرى الشام ، درعا 1920.
- محمد كرد علي، خطط الشام، الطبعة الثالثة، الأجزاء الستة، مكتبة النور، دمشق 1983.
- أسعد مفلح داغر، ثورة العرب، القاهرة 1916، المكتبة العربية بدمشق.
- عبد الرحمن الشهبندر، الثورة السورية الوطنية، ترجمة وتحقيق محمد كامل الخطيب، منشورات وزارة الثقافة 1993.
- كتاب "جبل الدروز - حوران الدامية"، تأليف:حنا أبي راشد، مكتبة الفكر العربي دمشق 1961
- سلطان الاطرش، مذكرات سلطان الأطرش، سوريا تاريخ 1925-1927، مطبعة الشرق العربية، دمشق 1979.
- أحمد عطاالله الزعبي، صور مشرقة من نضال حوران، دار الشادي دمشق 1993.
- مذكرات فائز الغصين " الأول منه، ولا يزال الثاني مخطوطاً .
- الجزائري، طاهر، أعمال طاهر الجزائري، المدرسة العادلية، دمشق 1921.
- مقابلات لأعضاء لجنة كينغ كرأين الأمريكية في 28 كانون الثاني 1920 في درعا .
- قاسمية، خيرية، الحكومة العربية في دمشق، دار المعارف، مصر ، ب. ت ، ص : 114 ، 115.

- الخطيب، محب الدين، أوراق محب الدين الخطيب، مدير جريدة العاصمة 1920 وزارة الثقافة، دمشق، 1923.
- الاطرش، الأمير زيد بن ذوقان، مقابلة شخصية، 1996/2/7، السويداء، القريا.
- الاطرش، الأمير صقر، مقابلة شخصية، 1987، حمص، منزل الشيخ تامر بن طراد الملحم.
- لورانس توماس أدوارد، (لورنس العرب) أعمدة الحكمة السبعة، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت 1963 .

الفـهـرس

ـ مقدمة	6
ـ حـوران	11
ـ حوران تحت سيطرة الحكم العثماني	13
ـ تشكل الوحدات العسكرية الفلاحية في سهل حوران	17
ـ أهمية سهل حوران الأستراتيجية	26
ـ التركيبة الإجتماعية لسكان حوران	29
ـ أحداث جبل لبنان وتأثيرها على جبل حوران	35
ـ واقع العرب أثناء الحرب العالمية الأولى	40
ـ إنطلاق الثورة العربية الكبرى	46
ـ الحوارنة في قلب الثورة العربية	52
ـ على أرض حوران رفع علم الثورة العربية لأول مرة	58
ـ أهمية مدينة درعا في الإستراتيجية العسكرية	64
ـ مذبحة طفس وثورة الحوارنة الشاملة	67
ـ إنتصار الثورة العربية وتحرير دمشق	75
ـ الأمير فيصل الحاكم العام لسوريا المحررة	78
ـ حوران في ظل حكومة فيصل العربية	80
ـ وقوع سوريا تحت الإنتداب الفرنسي	84
ـ الثورات السورية في الساحل السوري المحتل	87
ـ كفاح أهل حوران المسلح ضد المستعمر الفرنسي	91
ـ مقتل رئيس واعضاء حكومة الانتداب في خربة غزالة	98
ـ معركة غباغب	104
ـ معركة دير علي	107
ـ معركة الكسوة وجبل المانع	110

ـ معركة الدلي الأولى 115
ـ عقد الهدنة مع قوات الجنرال غورو 120
ـ إنطلاقة جديدة لثورة حوران الباسلة 123
ـ معركة القنيطره 126
ـ التحضير لانطلاقة الثورة السورية الكبرى 130
ـ معركة المسيفرة وانطلاقة الثورة السورية الكبرى 134
ـ معركة داعل في وسط سهل حوران 142
ـ معركة الدلي الثانية 146
ـ مرحلة كفاح السوريين السياسية 148
ـ ثورة درعا وحوران "هبة او ثورة المذخر" 155
ـ حصار الثكنة العسكرية في ازرع 164
ـ الثورة المسلحة تعم الناطق السورية 169
ـ 17 نيسان يوم جلاء القوات الفرنسية عن سوريا 172
ـ طائفة من رجالات حوران 176
ـ مشاركة أهل حوران في قضايا الأمة العربية 184
ـ أهل حوران والقضية الفلسطينية 185
ـ ثورة الشعب السوري على نظام الأسد 189
ـ الربيع العربي والثورة السورية 195
ـ أطفال درعا يفجرون الثورة السورية 198
ـ الاطفال الذين اعتقلتهم اجهزة امن النظام في 27. 02. 2011 202
ـ إنطلاقة ثورة الحرية والكرامة من درعا البلد 204
المكانة التاريخية والدينية للمسجد العمري 211
ـ حوران تدخل بكل ثقلها وتحمل مشعل الثورة 219
ـ إجتياح مدينة درعا عسكرياً 224
ـ سلسلة مذابح عصابات الأسد في حوران 227
ـ مذبحة الصنمين 227

- مذبحة إنخل 229
- مذبحة إزرع 230
- مذبحة صيدا 231
- مذبحة تسيل وسحم الجولان 232
- مذبحة بصر الحرير 234
- المعتقلين والمفقودين في حوران خلال عام من الثورة 237
- في درعا رسمت ملامح الثورة وحددت أهدافها 239
- أهم إنجازات ثورة الحرية والكرامة 243
- واقع حوران قبيل إنطلاقة ثورة الحرية والكرامة 252
- واقع سوريا قبيل إندلاع ثورة الحرية والكرامة 259
- الطائفية تطل برأسها من جديد 261
- الخاتمة 264
- مراجع 267
- الفهرس 269

نبذة موجزة عن الكاتب

الكاتب من مواليد الجمهورية العربية السورية ومقيم حالياً في ألمانيا الإتحادية. درس وتخرج من جامعة الرور في مدينة بوخوم الألمانية من كلية العلوم الإجتماعية والعلوم السياسية. حائز على إجازة الماجيستير وإجازة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلوم الإجتماعية والتاريخ من نفس الجامعة. كاتب صحفي في القضايا السياسية الدولية والقضايا الإجتماعية. نشر عدد من المؤلفات والبحوث في المجالات الإجتماعية والعلاقات الدولية. شغل منصب مدير مكتب "تبادل الثقافات" بمدينة جيلزين كيرشن الألمانية، عمل كمدير لمركز الدراسات الألمانية ـ العربية في مدينة اسن الألمانية.

هذا الكتاب

يسلط الأضواء على مساهمات أهل حوران في تقرير مصير سوريا ومصير بلاد الشام في المئة عام الأخيرة. تلك المساهمات، على الرغم من أهميتها القصوى، وتكاد تكون من أهم المحركات في عجلة تاريخ المنطقة، إلا أنها لم تحظى بأي نوع من الاهتمام والتوثيق لمصلحة الحقائق التاريخية ومصلحة الأجيال السورية والعربية المتتابعة.

على الرغم من تشكل الحكومات الوطنية منذ عهد الاستقلال في الدولة السورية لكن بقي تاريخ ونضالات أبناء حوران في طي الكتمان والنسيان، غير المبرر والمفهوم.

حوران هو الإقليم الذي يقع في جنوب بلاد الشام، والممتد على أراضي الجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية، وهو الجسر الحضاري والبشري بين الجزيرة العربية وبلاد الشام، وساحل البحر الأبيض المتوسط.

في هذا الكتاب محاولة لتجميع الوثائق المتناثرة عن تاريخ وكفاح أبناء حوران على درب الاستقلال وبناء الدولة الوطنية، التي تعمدت بسلسلة من الثورات والانتفاضات، وأنهار من الدماء الزكية وعذابات الناس. وهي محاولة لتجميع التاريخ المحكي والشفهي المتواتر، والذي يتردد على ألسنة الأباء والاجداد، وفي جلسات الافراح والاتراح، وتعيشه الأجيال في الواقع المعاصر. وهي محاولة لتجاوز جزء من الظلم الذي وقع على تاريخ حوران وأهل حوران من البلاد الشامية، وتصحيح لخطأ فادح اقترفته دوائر السلطات السورية المتعاقبة وتغافلت عنه، عن قصد أو غير قصد.